الدكتور

مصطفى غلوش

التصوف و الأخلاق

م- الصفحات كثيرة من اهل الاعداد

فارغة عيب من الطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مانعرف قضية اختلف الناس حولها مثل قضية (التصوف) وليت الاختلاف كان هينا كما يلمح فى كثير من القضايا .. فتعكف على التقريب والتوفيق والتحليل والمواءمة .

ولكن الاختلاف هنا بيّن شاسع لدرجة أن الكثير من الناس يعتقد : أن السلوك الصوفى هو قمة المنهج الذى (يُوَصِّل) إلى منهج الله تعالى .

بينما نجد من يعتقد – وهمْ كثرة – أن السلوك الصوفى هو قمة المنهج الذى (يُبْعِد) عن منهج الله تعالى .

ومن هنا كان الباحث يحتاج إلى موازين يفصل بها الخلاف فى هذه القضية الحيوية التى صارت عامة وهامة فقد اهتم بها كل الناس . وفى جميع الأوساط والثقافات فقد غاص التصوف فى عقول العلماء الأجلاء . كما سبح فى وجدان الفقراء البسطاء وحوّل التصوف عالمه (شيخا) كما حوّل الأمى (مريداً) .

وبذلك سرت حركة التصوف فى المجتمع الإسلامى سريان الماء فى العود الأخضر قبولا ورداً .

فوقفت الفطر السليمة ألمُحبة لوجه الحق الباحثة عن الحقائق تبحث لنفسها عن فيصل فى هذا المعترك الصاخب .

فالمؤيدون للتصوف لهم رأيهم والمعارضون لهم رأيهم . وكلٌّ له حجته وبراهينه . وكلٌّ يدفع حجج الآخر ... فأين الحق هنا ؟ وأين الحقيقة .. ؟ وعلى أى مرفأ يرسو الباحث الناشد للحقيقة ، عذرىّ الفطرة ، نقىّ الطبع ، النائى الخُلف والاختلاف ، .. إلى أين يتجه ؟

ومن هنا كان لابد من دراسة متأنية حول (التصوف) حتى يستبين للناظر وجه الصواب وحتى نضع فى يد الانسان الباحث عن الحقيقة موازين الحقيقة .

إننا لانستطيع أن ننكر أن الله سبحانه وتعالى خلق من الناس قوماً : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) كما أن الله سبحانه وتعالى خلق من القلوب الرقيقة ماتجعل أصحابها (قليلاً من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون) وأن هناك من الأفئدة المؤمنة الذاكرة التي (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً . وعلى ربهم يتوكلون) .

ومما لاشك فيه أن هذه القلوب التي خلقها الله على هذا النحو من الحس المرهف والحب الصافي نحو الله تعالى . إنما يصدر حبهم هذا عن منابع لايمكن أن تكون من منبع (التكليف العام) .

وأقصد بعبارة (التكليف العام) هنا — ماكلف الله به عباده من صلاة وزكاة وحج وصوم وغير ذلك من الأمور العملية .

فإن شرع الله قد بيّن لنا أن (الصبح ركعتان) وأن (الظهر والعصر أربعٌ) . وغير ذلك . والله سبحانه وتعالى فرض على عباده هذا القدر من كل عبادة ، ولم يطلب منهم أن يزيدوا عن ذلك بل قد ورد في السنة المطهرة : "أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن الفرائض في الإسلام فذكر له رسول الله ﷺ الفرائض كما كلف بها المسلم . فقال الرجل : والله لاأزيد علىٰ هذا أو أنقص . وعقب رسول الله ﷺ على قسم الرجل في إقتصاره في العبادة على (الفرض) فقط بقوله ﷺ [أفلح إن صدق] .

ولعله ظهر الآن ما أقصده من كلمة التكليف العام . وهو الحد الأدنى من العبادة التي فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده بحيث لايعاقب الإنسان على ترك غيرها . نعم (يُعاتب) من رسول الله ﷺ كما ورد في الأثر .

إذا علمنا هذا نكون قد وصلنا إلى مانقصده وهو : أن هناك من القلوب العامرة بحب الله تعالى الملتذة بلقائه دوماً . والتي تجد في عبادته حلاوة في ذكره جمالا وأنساً . هذه القلوب لاتكفيها أن تصلي (الفرائض) وإنما تزيد على الفرض السنن والنوافل . ولكنها بعد السنن والتنفل تجد لديها

(طاقة الحب) لله تعالى : فتريد أن تمكث بين يدى الحضرة الآلهية وقتاً أطول وزمنا أكثر . فتظل تصلّى بالليل والناس نيام بعيداً عن فتنة الرياء والنفاق .

وكلما توغلت فى العبادة . أوْ غَلت فى الراحة والطمأنية . وهى بين العبادة والراحة فى سعادة وطمأنينة يرجع صداها قلب فرح ولسان ذاكر .

وقد ورد تصوير مانقصده فى السنة المطهرة حيث روت عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يقوم الليل – والقيام هو الصلاة فى جوف الليل – حتى تتورم قدماه . وتقصد عائشة من (تورم الأقدام) التنبيه على كثرة صلاته ﷺ . وكانت عائشة تشفق على رسول الله ﷺ . فكانت تخاطبه بقولها : ألم يغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ؟ ...

وكأن عائشة رضى الله عنها كانت تتصور أن صلاته ﷺ كانت تهدف إلى أن يغفر الله له (الذنب) . فنبهها رسول الله ﷺ أن هناك (عبادة) زيادة عن العبادة المفروضة يقصد بها أمور قد لايكون منها (غفران الذنب) وإنما هو التلذذ بالوقوف بين يدى الله حبا ونعمة وقد أفصح رسول الله ﷺ ، عن تلك الفكرة بقوله : [أفلا أكون عبداً شكوراً] .

ومن هنا نستطيع أن نسلم أن الله سبحانه وتعالى اصطفى قوماً فرقّق أفئدتهم وأيقظ قلوبهم بإشراق حبه فيها . فسطعت فى آفاقها أنوار العبادة . وسبحوا فى بحار الأنس بالله تعالى . فازدادوا شوقاً إلى فردوس الله . وتمنوا إنعام الله عليهم بعد أن وهبهم نعمة فى الدنيا . ورأوا أن الإنعام هو أن ينزلهم منازل عبوديته وأن يذهب عنهم وحشة الأمل فى القرب .

ويصف صاحب كتاب (التصوف فى الإسلام) هذه الأحوال : بأن عجز البشرية أمام الملكوت الأعلى وشعورهم بمكانهم . ومكانتهم أوصلهم إلى الشعور بالطمأنينة . وهذا الشعور بالطمأنينة ينتج (تأديب أصحابه . وهذا الأدب يلفهم فى ذل التعبد . وذل التعبد يقضى بهم إلى الكمال وهنا [illegible] (١)

(١) راجع صـ٦ من ك (التصوف الاسلامى) للشيخ [illegible]

ربهم (سبحانك لانحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) .

وهؤلاء هم (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) .

وقد نادى القرآن الكريم النفوس لتحيا هذه الحياة المترفعة عن الدنيا وشهواتها . قال تعالى (وماهذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون . قال تعالى : [اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته . ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما . وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان . وماالحياة الدنيا إلا متاع الغرور سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ؛ والله ذو الفضل العظيم] وقد تفهم المسلمون هذه التوجيهات القرآنية التى تكبح جماح النفس وتخفف من غلواء الشهوة فرأينا إستجابة المسلمين لهذا المنهج قد تمثلت فى أهل (الصفة) الذين يذكر أنه قد نزل فيهم قوا الله تعالى (ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيء ومامن حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

وفى إطار هذا المنهج القرآنى الواصف لمناهج القلوب الرقيقة يقول الله تعالى . [واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم . تريد زينة الحياة الدنيا ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً] .

وبهذه التوجيهات القرآنية سرت (الزهادة) فى المجتمع الاسلامى . وقد ساعد على تفهم هذا المنهج سلوك رسول الله ﷺ فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون الرسول الكريم فى حياته المعيشية الخاصة ، وكم رأوه وهو يعيش الأيام الطوال لايذوق طعاماً .

روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ جاءت لأبيها بكسرة خبز قائلة : (قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة) .

فقال رسول الله ﷺ . (أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام) .

وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها ، (إنى عرض علىّ أن تجعل لى بطحاء مكة ذهباً . فقلت لايارب ، أجوع يوماً وأشبع يوماً . فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك . وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك]

وقد تلقف الصحابة هذ التوجيهات النبوية بالقبول . حتى أنه روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه نهج منهج التأسى برسول الله ﷺ فى جميع أحواله .

وقد روت حفصة رضى الله عنها أنه لما كثرت أرزاق المسلمين فى عهد أبيها عمر .

قالت حفصة لابيها : (ياأمير المؤمنين . لو لبست ثوبا هو ألين من ثوبك وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك . فقد وسع الله عزوجل من الرزق أكثر من الخير) .

فقال عمر رضى الله عنه لابنته حفصة : [إنى سأخاصمك إلى نفسك . أما تذكرين ماكان يلقى رسول الله ﷺ من شدة العيش] .. وظل عمر رضى الله عنه يذكر ابنته حفصة بأحوال عيش الرسول ﷺ حتى بكت حفصة ..

وننبه إلى أن زهد الصحابة لم يكن تعطيلا للمواهب الإنسانية أو كان إعراضاً عن حركة : الحياة والإنتاج . أو إستسلاما للعجز أو الفقر وإنما كانوا مع زهدهم يضربون فى الأرض ويتجرون ويثرون ويزداد مالهم نماء وكانوا يعلمون أن كمال إسلامهم فى تملك نصاب الزكاة لاخراجها فأبو بكر الصديق وعثمان وغيرهم كانوا من الزاهدين فى أعراض الدنيا، المقبلين على العمل . المخرجين للزكاة الركن المالى فى الاسلام .

ولذلك قامت دعائم الأمة الإسلامية وترسخت أركان (الدولة) بهؤلاء

الزهّاد العابدين الذاكرين ، وقضى الاسلام على فكرة طرح الحياة من أجل عبادة الله وإنما منهجه طرح الشهوات والمتع الزائلة فقط . لأنها تعوق الإنسان عن إسهامه فى حركة المجتمع .

وقد لحظ (ابن تيمية) هذا فقسّم الزهد إلى [ماهو مشروع . وماهو غير مشروع] .

فالزهد المشروع هو ترك مالا ينفع فى الدار الآخرة . والزهد غير المشروع . هو ترك مايعينه على طاعة الله واتباع أوامره[1] .

وقد نقد (ابن تيمية) ماأسماهم (بالمتطرفين من الصوفية) الذين يغربون فى معنى الزهد ولايضعون حداً فاصلاً بين الزهد الصحيح المشروع وبين الزهد غير المشروع .

ولعل (ابن تيمية) قد أستلهم هذا التقسيم من القرآن الكريم حيث قال : [وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة] وقوله تعالى : [قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق] .

وقد ظل الأمر فى المحيط الإسلامى على هذا النحو من الفهم والوعى إلى أن فتحت البلاد واختلطت بالثقافات الهندية والفارسية والمسيحية واليهودية بفعل (الغنوص) الذى تولى إدخال هذه الثقافات فى بنيان الثقافة الإسلامية بطريقة ملتوية وهذا مايعرف باسم (الدخيل) .

ولاشك أن الدخيل لوحظ فى كل العلوم الإسلامية — وأيضا — المناهج الإسلامية[2] .

فكما بدأ التصوف فى الإسلام سلوكاً فى أحضان العبادة الاسلامية يَمْتَح من (الوحى) ويعايش الخلق القويم الذى تربّى فى أحضان الإسلام .

---

(١) راجع صـ٢٨ جـ١١ من « فتاوى ابن تيمية »

(٢) ذكر الشيخ صادق عرجون فى كتاب التصوف فى الاسلام ص ٧ أن ابن خلدون قد أوضح فى مقدمته أن التصوف ليس علما بالمعنى المعروف فى اصلاح أهل الفنون وهذا الفهم لعبارة ابن خلدون لايستقيم اطلاقا مع ماأورده فى مقدمته ص ٤٤٠ حيث يقول (وصار علم التصوف علما مدونا)

فإنه لوحظ فى نهاية القرن الثانى الهجرى أن التصوف قد بدأ فيه أيضا فكرٌ دخيلٌ تمثل فى محاولة نقل الحركة الروحية فى الهند أو : الحركة الروحية فى فارس أو الحياة الروحية - الرهبنة - فى المسيحية وكل هذه التيارات الدخيلة كانت معروفة فى العراق أثراً من آثار المدارس المسيحية فى [الرّها - ونصيبين - وجند يسابور]

هذه المدارس أفرخت فى العراق وتلاقت مع الغنوص فأحدثت حركة قوية فى مجالات متعددة تبغى إقحام (الدخيل) بغرض إحلاله محل الأصيل .(١)

ولذلك لاندهش حينما نجد أنه بعد فترة وُجِدَ التصوف (إسماً) بعد ان لم يكن كما وجد نشاطاً أو سلوكا فى اتجاهين :

الاتجاه الأول : (التصوف الإسلامي)

وهو تلك الحركة الروحية التى نشأت فى أحضان وحى الله تعالى وشرعه كلماتها هى : كلمات القرآن . وتوجيهاتها من توجيهات النبى المعصوم صلوات الله عليه . ولاتدور الا فى دائرة العبادة التى ارتقاها الاسلام .

فهى حركة تعبدية تقوم على فكرة عبادة الله تعالى خضوعا لفريضة (الكيف) وإن كانت تزيد فى (الكم) مع احترامها للتكاليف الشرعية كما وكيفاً .(٢)

الإتجاه الثانى : (التصوف الدخيل)

فى هذا الجو تلقف الفكر الصوفى من يتسم بالجهالة والخرافة وتسلط عليه من يدعى لنفسه الولاية والقربى من الله .

وشاهدنا من يتلفظ بألفاظ مبهمة غير مفهومة أو يتمتم بحروف غير

---

(١) يراجع تفصيل هذه الحركة الفكرية فى العراق فى نطاق الحديث والتفسير والعقيدة والتصوف فى ك (فجر الاسلام) لأحمد أمين .

(٢) سيأتى تفصيل هذا المنهج .

مترابطة أو ينطق بجمل تشف عن الحلول أو الاتحاد أو الفنـــــاء . وهذا أفسح المجال للأدعياء حتى شغلوا الناس بالحيل والشعبذة فى إطار (خرق العادات) حتى فتن العامة بهؤلاء فعدوهم من أرباب الكرامات ومن الأولياء المقربين .

والغريب أن هذا النوع من التصوف الدخيل اجترأ على شرع الله تعالى (وكان شيخ الطريقة من هؤلاء – غالباً مايترك الصلاة فإن اجترأ عليه أحد وسأله عن ذلك ؟ ادعى أنه يصلى فى الكعبة تارةوفى مسجد الرسول ﷺ تارات .

وقد استهانوا جميعا بالتصوف : فنقلوه من مجاهدة للنفس . ومشقة فى العبادة . وإفراد الله تعالى بمزيد من المحبة عن كل ماسواه إلى جلسات دورية – جماعية وليست فردية – ويقرأ فيها قليل من القرآن بلا تدبر ولا إنصات ويذكر فيها إسم الله تعالى بألسنة ملتوية وعبارات غامضة شغلتهم دنياهم فحضروا بعقول شاردة وأفكار غامضة . وأصبح الإنشاد والترانيم أصلا لجلساتهم . والويل والعقاب لمن يتخلف عن ميعادهم . والطرد والحرمان لمن ينكر عليهم فعالهم .(١)

وأحب أن أنبه هنا إلى أن هذا النوع الذى حول التصوف الى (مسألة تكسبيه) تبغى المال والتغرير بالعوام – رغم أنه موجود فإنه يمثل (قلة ضئيلة) لاتعرقل حركة هذا الجانب الروحى فى حضّه على الأخلاق والسلوك النابع من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة .

وبذلك قامت الدراسات المعاصرة حول التصوف تريد :

أ – توضيح ما عليه واقع التصوف اليوم .

ب – توضيح ماينبغى أن يكون عليه التصوف الحقيقى .

وجاءت هذه الدراسات مؤكدة أن التصوف ينقسم إلى عدة أقسام :

---

(١) راجع صـ٧٣ من رسالة الدكتور أحمد أبو السعادات وعنوانها « العارف بالله عبد السلام الأسمر » وآراؤه فى التصوف مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين .

١ - **تصوف سُنّي :**

وقد بدأ هذا التصوف بلمسة (الزهادة) ثم : انتهى إلى الأخلاق الإسلامية .

وقد وضح صورته الكاملة (أبو حامد الغزالي) وأصبح هذا السلوك العملي لمن ينشد طريقه إلى الصواب طريقاً من طرق أهل السنة .

وقد كتب لهذا الطريق البقاء والصواب لأنه دار في فلك ونطاق القرآن الكريم والسنة النبوية .

٢ - **تصوف سلفي :**

وقد وضح ذلك التصوف عند (ابن تيمية) الذى نقل أن : الصوفية يحاولون أن يصلوا إلى معنى يقول أنهم هم الذين يسيرون بالصوفي إلى معنى (الصديق)[١]

وابن تيمية لايسلم للصوفية بهذا المعنى الذى يريدون إثباته فى كل تعاريفهم للتصوف على الإطلاق لإن الصديقين هم أفضل الخلق بعد الأنبياء . كما هو مأخوذ من قول الله تعالى . [أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا].

وذكر الصديقين بعد النبيين مباشرة إعلاء لقدرهم .

ويقول الشيخ ابن تيمية : وهذه دعوى عريضة يجب التدقيق والتثبت فيها . ثم يعقب فيذكر : أن مرتبة (الصديقية) وهى هذه الدرجة العالية يطلبها الصوفية كما يطلبها بقية أفراد المجتمع المسلم من علماء أو صناع أو أمراء ونحوهم . كل بما اختص به من طريق يطلب به مرضاة الله .

ولايصح أن يعتبر الصوفى - عند ابن تيمية - هو الصّديق مطلقا - كما لايصح أن يقتصر الوصول إلى درجة الصديقية على سلوك طريقة تصوف واحدة .[٢]

---

(١) راجع التفصيل صـ١٦ جـ١١ وما بعدها من فتاوى ابن تيمية .

(٢) راجع جـ٤٣ من مخطوطة (موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية) رسالة ماجستير للدكتور احمد بناني . جامعة أم القرى - مكة المكرمة .

ونجد من الباحثين من ينبه على مذهب ابن تيمية فى التصوف وكيف سرى هذا المذهب وأثر فيمن بعده فيقول : [ثم انبثق هذا التصوف عن ابن تيمية – فكتب أجمل الصفحات فى التصوف على طريقته . ثم ظهر كاملاً متناسقاً عند تلميذه ابن القيم][1]

٣ – تصوف فلسفى :

وهو ذلك التصوف الذى حاول أن يبتعد بأصوله عن القرآن والسنة وأن يرتكز على أصول جديدة ابتدعها واصطنعها وقامت على الفلسفة اليونانية والفلسفة الأفلوطنية وغير ذلك من حكمة المشارقة وفلسفة المغاربة وتراث الهند الروحى من [الفيدا] إلى [اليوجا] .

٤ – تصوف إشراقى :

وهو ذلك الإتجاه : الذى حاول أن يرتكز على (العرفان الغنوصى) الذى لايتصل بضابط القرآن أو السنة أو بقواعد السلوك التى أثرت عن الصحابة رضوان الله عليهم أو حتى بنظريات الفلسفة .

[إذ لم تكن للبوذية أو الأديان الهندية أثر فى حياة العرب قبل الإسلام][2] . فخلصت جاهلية العرب من الخرافة الهندية والبوذية .

ولعلنا ندهش عندما نعلم أن العرب لم يعرفوا الخرافة البوذية أو الأسطورة الهندية إلا بعد أن جاءهم من اختلط بهم بعد الفتوحات الاسلامية .

وهذا يعطينا الحكم ببساطة بأن نقل هذه الآراء الفاسدة إلى المسلمين كان صادراً عن نوايا خبيثة لأعداء الإسلام وبأيد مدربة .

وبذلك رأينا كيف تحول السلوك الوجدانى الرفيع الذى نشأ بفعل القرآن الكريم إلى خضم هائل من الركام الفاسد المحتوى على الآراء البعيدة على الاسلام والتى يناقض بعضها بعضاً .

---

(١) راجع جـ٢٠ صـ٣ من ك (نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام) . للدكتور على سامى النشار .

(٢) راجع جـ٧٢ صـ٣ من المرجع السابق)

وأيما كان الأمر : فاننا نجد بعد هذا التقسيم أن التصوف فى نظرنا لايخرج عن أحد أمرين :-

الأول : تصوف إسلامى :-

وهو الذى منشؤه وغايته كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لايحيد عنهما بالنقص أو الزيادة فلا اجتهاد فى العبادة أو شكلها . إذ الله سبحانه وتعالى يجب أن يُعْبد بما أنزل وبما أمر .

الثانى : تصوف غير إسلامى :-

ولأننا نؤمن بسلامة الفطرة الإسلامية وأنه لاينشأ فيها الفاسد بذاتها وإنما يلحقها الفساد من خارج : فإننا أسمينا هذا النوع بالتصوف (الدخيل) وهو : كل حركة روحية بعدُت عن الاسلام واقتربت من منابع الغنّوص والمسيحية والفكر الهندى . والفلسفة الباطنية . وهكذا كان (ميزان الحقيقة) هنا فى ميدان (التصوف) هو القرآن الكريم والسنة النبوية . فما كان منهما سلوكاً وعبادة فهو من الاسلام ومالم يكن من القرآن والسنة سلوكاً وعبادة فليس من الاسلام .

تدوين التصوف :

يتفق المسلمون على ان التصوف كان فى أصله طريقة سلف الأمة الإسلامية وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .. وإن لم يكن بهذا الاسم . وطريقة هؤلاء : كانت طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع لله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا ..

وكان هذا منهج المسلمين .. فلما كان القرن الثانى الهجرى وجنح الناس إلى مخالفة الدنيا . مُيِّز المتمسكون بمنهج (العكوف) على العبادة باسم (الصوفية) . وظل الأمر كذلك منهجاً وسلوكاً تحفظه الصدور دون أن يُقَيّد فى السطور .. الى أن : جاء عصر التدوين والتأليف .

يقول ابن خلدون : [فلما كتبت العلوم ودونت ، وألف الفقهاء فى الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك . كتب رجال من أهل هذه الطريقة --

التصوف - في طريقتهم فمنهم : من كتب في (أحكام) الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك . كما فعله (المحاسبي) في كتابه (الرعاية) ومنهم من كتب : في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم في الأحوال كما فعله (القشيري) في كتاب (الرسالة) . و(السُّهروردي) في كتاب (عوارف المعارف) وأمثالهم .. وجمع (الغزالي) رحمه الله تعالى بين الأمرين في كتاب (الإحياء) فدوّن أحكام الورع والاقتداء . ثم بين أحكام القوم وسننهم .. وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم .

وصار علم التصوف في الملة - الاسلام - علماً مدوناً بعد أن كان (طريقة عبادة) فقط .. وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال . كما وقع في سائر العلوم التي دُوِّنَتْ ..][1] .

وقد وقف علماء الاسلام بالمرصاد للمتصوفة الذين حاولوا أن ينطقوا بالعبارات الموهمة .. أو الذين يفصحون عن شيء في التصوف لم يؤثر عن السلف الصالح فقد كان (السلف) يسلك سلوكاً صوفياً لايبتغى فيه إلا عبادة الله تعالى . [فلم يكن لهم حرص على كشف الحجاب . ولاهذا النوع من الإدراك . إنما همّهم الاتباع والاقتداء مااستطاعوا . ومَنْ عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به][2] .

وبذلك وضح لنا : أن المسلمين لحرصهم على كل مايتصل بالاسلام . اهتموا بنقد وتدوين ماوصلهم في كل العلوم الاسلامية . حتى (التصوف) وبذلك : فتح الباب . أمام مدّونات في التصوف . عبّرت كل (مدّونة) فيها عن اتجاه صاحبها في التصوف .. حتى اختلط الحابل بالنابل . وتماوج (الدخيل) مع (الأصيل) . مما جعل العلماء يهبّون لتنمية التصوف .. ومازالوا حتى اليوم .. وموقفنا - الآن - هو محاولة - متواضعة - في هذا المضمار . نسجل فيها أن العصر الحديث . لم يتقاعس عن تنقية الأصيل .

---

(١) راجع صـ٤٤٠ من (مقدمة) ابن خلدون نشر (الشعب) .
(٢) راجع صـ١٤٩ من المرجع السابق .

فى الاسلام من كل (دخيل) . حباً فى صفاء العقيدة . وإيماناً بنقائه وتنقيته ورغبة فى إعلاء شأنه .

كيف ندرس التصوف ..؟

وقد اهتم المُحَدثُون بدراسة التصوف خاصة بعدما وجدوا أن (المستشرقين) وأعداء الاسلام . قد اهتموا بطريقة ملفتة بنشر التراث الصوفى وخاصة لأولئك (المتصوفة) الذين عكّروا صفو المحيط الاسلامى بعبارات موهمة ومن هنا : لمحنا محاولة لوضع (منهج بحث) فى (التصوف) .

ورغم نقدنا لهذه المحاولة . لاننا نعتقد حقيقة . أن منهج البحث العلمى الصادق فى التصوف بالذات . لابد أن يبدأ وينتهى بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . لأن التصوف من العلوم التى تتصل بالجانب الروحى فى الانسان . والجانب الروحى – عموماً – قد تكفّل الله تعالى بمعرفته وحده .

فإن أى كلام فى الروح أو النفس – وجوانبها إنما هو كلام ينزع من فراغ . ولايعتمد على أصول علمية . قال الله تعالى : [ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وماأوتيتم من العلم الا قليلا] .

مناهج البحث فى التصوف :

رغم أننا لانرتضى محاولة وضع منهج للبحث العلمى للتصوف بعيداً عن القرآن الكريم والسنة المطهرة .

فإننا سنعرض لبعض المحاولات فى هذا النطاق . لنشير إلى مدى اهتمام المحدثين بدراسة التصوف .

فقد أثار التصوف بشكل خاص انتباه العلماء الأوربيين من المستشرقين . وعلماء مقارنة الأديان وعلماء تاريخ الأديان وعلماء الاجتماع وعلم النفس وعلماء الدراسات الإنسانية « أنثروبو لوجيا » **Anthrapalagy** .

فقد شاهدنا منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى الآن حركة نشطة لهؤلاء .

وقد وجدنا أن كل واحد من هؤلاء يريد أن يطبق مناهج البحث الخاصة بتخصصه على (التصوف) . !!

ويجب أن نعلم أن لكل علم (منهجه) الخاص به، وأن مخالفة المناهج إنما هو عبث بأصل العلوم .

وعموماً لقد أثمرت محاولات العلماء مايأتى :

أولا : التصوف ومنهج علم الاجتماع :-

حاول علماء الاجتماع بعد « أوجست كونت » تطبيق مناهج البحث فى علم الاجتماع على التصوف باعتبار أنه (ظاهرة اجتماعية) تنشأ ذاتياً بين الأفراد وتطبع المجتمع بلون خاص .

وقد نبه علماء الاجتماع وعلماء (الأنثربولوجيا الاجتماعية) على سبب الضرورة التى تقضى ببحث التصوف كظاهرة اجتماعية نشأت فى بنية المجتمع الإنسانى .

فإن التصوف لديهم ظاهرة إرتبطت بغيرها من الظواهر الاجتماعية كالدين والعادات والتقاليد .

ويؤكدون على ظاهرة (الاقتصاد) وعلاقتها بالتصوف حيث يرون أن التصوف يشيع فى المجتمع الذى يعايش اقتصاداً فقيراً .

وقد طبق علماء الاجتماع مناهجهم على التصوف وخرجوا بنتيجة تقول . إن التصوف مخروط اجتماعى ومجتمع تام له كل خصائص المجتمعات وله بنية داخليةوبنية خارجية . كما أن له أيضا لغته الخاصة به والتى تميزه عن غيره من المجتمعات .

١ - ورغم تحفظنا المسبق على استعمال هذا المنهج هنا فإننا نؤكد هنا أن هذا المنهج قد اعتبر التصوف ظاهرة اجتماعية . وغفل عن أنه حركة روحية قوامها (الفرد) و (الفردية) .

٢ - وأنه اعتبر مناهج العلوم الاجتماعية تتفق مع منهج التصوف . وهذا خطأ بيّن . لأن مناهج العلوم الاجتماعية هى فى حقيقتها مناهج (إستقرائية) مادية . بينما منهج التصوف يقوم على الوجدان والجانب الروحى .

وبذلك يظهر لنا بجلاء مدى فشل تطبيق منهج البحث الاجتماعى على التصوف .

ثانيا : التصوف ومنهج علم النفس :-

عندما نُقِدت محاولة علم الاجتماع . حاول علم النفس أن يحل محله في مجال التصوف . فقد اعتبر علماؤه : التصوف ظاهرة نفسية فردية : فهم أحق به من المناهج الأخرى .

وحاول علم النفس أن يحتضن التصوف ضمن أبحاثه بدعوى : أن التصوف فكرة وظاهرة نفسية ، محاولاً أن يفسر أحوال المتصوفة ومقاماتهم ومواجيدهم تفسيراً سيكلوجياً (نفسياً) .

لكن علم النفس لم يستطع أن يطبق مناهجه للآتى :-

١ - علم النفس يبحث في الانسان كظاهرة نفسية تتصل بنفسه وبمن حوله من الناس ، بينما التصوف حالة بين الانسان وربه تقوم على الجانب الروحى أو النفسى . فتباعد بذلك المنهجان .

٢ - بعدما فشل علم النفس فى إصطناع منهج خاص به يقوم على الجانب الروحى وحده . إصطنع لنفسه مناهج علمية مادية (إستقرائية) تشبه مناهج علم الاجتماع وقد أسفرت هذه المناهج عن (مقاييس وأحكام) لاتنطبق تماما على التصوف ولاعلى المتصوفة ، وبذلك نلمح أن مناهج البحث النفسية لم تستطع أن تفى بالمقصود .

ثالثا : التصوف ومنهج الفلسفة :

حاول العلماء أن يطبقوا منهج البحث فى الفلسفة على التصوف . وقد جانبهم الصواب فى هذه المحاولة للآتى :-

١ - الفلسفة (نظريات) نتاج عقول . بينما التصوف (مواجيد) نتاج قلوب .

٢ - الفلسفة يحكمها العقل العام الذى هو قسمة مشتركة بين كل الناس بينما التصوف محكوم بالحالة الفردية الذى يستحيل أن يتساوى فيها كل الناس فالفروق الفردية فى الجانب الروحى والمعنوى صارت أموراً معترفاً ومتفقاً عليها لدى كل العقلاء .

٣ - الفلسفة تبحث عن عقل وقواعد تسيره نحو حقيقة عقلية يخضع لها . فتبدأ من العقل وتنتهى الى العقل ، بينما التصوف يبدأ الإنسان فيه بالعبادة ينشد حقيقة واحدة وهى القرب من الله تعالى .

فالتصوف بذلك يبدأ من الانسان وينتهى الى القرب من الله تعالى .

وبذلك شطّ المنهج . وبُعد الطريق واتضح أن استعمال مناهج الفلسفة فى التصوف استعمال خاطىء . إذ شتان بين طريق العقل . وطريق الروح .

مدارس البحث العلمى فى التصوف :

ظهر لنا جلياً أن استعمال المناهج العلمية غير منهج (الوحى) فى التصوف يفضى إلى الخطأ العلمى . بمقياس العلم نفسه .

ورغم وضوح هذه الفكرة فإننا وجدنا أبحاثاً علمية قامت بها مدارس متعددة فى بلاد مختلفة .

١ - المدرسة الألمانية :-

وهى مدرسة قامت على (تفسير الموقف الصوفى) من ناحية تحليل مصطلحاته وتعبيراته . فالكلمة - لدى هذه المدرسة - دائماً تعبير عن فكرة أو مذهب فلسفى أو كونى .

وقد تزعم هذه المدرسة (فون هامر) .

ورغم فشل هذه المدرسة فى نتائجها التى قامت على منهج يشبه منهج (الوضعية المنطقية) الملحدة[1] فإنها قدمت شيئاً طريفاً فى التحليل اللغوى لمصطلح التصوف وألقت الأضواء على كثير من جوانبه التاريخية .

٢ - المدرسة الإنجليزية :-

حاولت (المدرسة الإنجليزية) أن تدرس التصوف الذى هو فى نظرها تصوف عام مشترك بين مختلف الجماعات الإنسانية .

---

(١) الوضعية المنطقية هى : اتجاه فلسفى يهدف إلى هدم الفلسفة وقد قصر أتباعها الفلسفة على : تحليل اللغة تحليلا منطقياً . ولم يعترفوا بمعرفة سوى : المعرفة الحسية . راجع صـ١٩٦ من ك (أسس الفلسفة) د/ توفيق الطويل .

ويمكننا أن نقف على دور هذه المدرسة من خلال :-

(ا) مؤسسها « براون » فقد كان دارساً لنواحى الفكر الإسلامى خاصة الجانب الصوفى الذى نقل منه ترجمة عدد من الكتب الفارسية إلى اللغة الإنجليزية وكان (براون) يُكّن عداءً شديداً للإسلام فكتب عن التصوف الفارسى وصلته بالتصوف الإسلامى ورأيه فى هذا رأىٌ (مشبوهٌ) .

ويؤكد أحد الباحثين [أن (براون)لم يكن برغم معرفته الواسعة بالتراث الإسلامى مخلصاً في دراسته العلمية وإنما كان - براون - مبعوثاً أو أدق : (جاسوساً) للحكومة الإنجليزية فى هذه البلاد . وقد استطاع - براون - أن يثير - يبعث - الحركة البابية وماأعقبهامن حركة (البهائية) . ولاشك أن (الباب والبهاء) كانا تلميذين له . وأنه - أىْ (براون) - قد علّمهما الكثير من عناصر مذهبهما وقد ثبت أن (الأقدس) وهو كتاب البهائية الدينى قد استند على مجموعة كتب محيى الدين بن عربى] [1] .

وهذه المدرسة ورغم نشرها للكثير من المخطوطات العلمية وتحقيقها فإن (براون) وتلاميذه لخير شاهد لنا على مانؤكده من تربص أعداء الإسلام بالإسلام .

(ب) وقد جاء بعد (براون) تلميذه « نيكولسن »[2] الذى سيَّر هذه (المدرسة) فى نفس إتجاه (براون) وإن كان يفارقه فى أن « نيكولسن » ترك تسخير الدراسات الإسلامية للسياسة . وعكف على دراسة علمية نقدية للتصوف .

ولكن « نيكولسن » كان يشعر بضغن كبير شديد على الاسلام والمسلمين وعذّبه هذا الضغن وهذه الكراهية فى كتبه [3] .

---

(١) راجع صـ٢٤ جـ٣ من ك (نشأة الفكر الفلسفى) د . على سامى النشار .

(٢) هو صاحب كتاب (فى التصوف الإسلامى) الذى ترجمه الاستاذ أبو العلا عفيفى .

(٣) راجع صـ٢٤ من المرجع السابق .

وقد حاول « نيكولسن » أن يصل بين كثير من رجال التصوف الأوائل وبين مذاهب خارجة عن الاسلام ويمتلىء كتابه (فى التصوف الاسلامى وتاريخه) بلهجة الإعجاب الشديد لكل طاعن فى الاسلام .

ويرى أن أمثال (الحلاج والسّهروردى) نماذج فريدة فى الفكر الاسلامى . وربط بين هذه الشخصيات وبين التصوف المسيحى والهندى واليونانى بالذات .

ننبه هنا إلى أن (نيكولسن) كغيره من المستشرقين إنما هو فى الحقيقة : يصدر عن (غُنُوص معاصر) . (باطنية قديمة) .

٣ – المدرسة الفرنسية :

وهى مدرسة قامت على فكرة (التفسير الروحى المسيحى للتصوف الإسلامى) على معنى : أنها تعترف بأن الحركة الصوفية الإسلامية حركة روحية . ولكنها إمتداد لرسالة المسيح فى العالم الإسلامى .

وهذه المدرسة فى حقيقتها تمثل الجانب التبشيرى في المحيط الإسلامى من خلال المنهج الصوفى .

فإن أهم الدراسات لهذه المدرسة برزت عند (لويس ماسينيون) الذي كان كاتباً كاثولوكيا غلبت على حَيْدته ومنهجيته نزعته الكاثوليكية المسيحية .

ويكفى لإدراك هذا المغزى أن دراسات « ماسينون » عن (الحلاج) كوّنت حلقة مشهورة فى المجامع الكاثوليكية تسمى (بالحلقة الحلاجيّة) وهى تقرر : أن (المسيح) ظهر فى (الحلاج) وقيل لأنه أعلن : أنا الله . أنا الحق .

(وكل هذا خطأ شنيع من (ماسينون) .– وإن أحسنّا الظن به فإننا لانستطيع إلا أن نقرر أنه – لم يفهم أى « ماسنيون » نصوص الحلاج وراح يتخبط فى فكرته عن تردد صورة المسيح فى الحلاج . وبقى حبيساً لعقيدته الكاثوليكية . لقد قتل الحلاج لأسباب سياسية وأسباب فقهية)[1] .

(١) راجع صـ٢٥ من المرجع السابق .

وقد تابع « ماسنيون » فى أبحاثه « كوربان » فطبق منهج هذه المدرسة فى أبحاثه الصوفية .

ويلاحظ أنه : اهتم إهتماماً بالغاً بالتشيع الباطنى وبالسّهروردى المقتول ولم يكن أمينا فى عرض تاريخ التصوف أو الفلسفة الاسلامية بقدر ماكان مهتماً بعرض نزعته المسيحية ومحاولته إيجاد الصلة بين نزعته وبين التصوف .

وقد اهتم « كوربان » بتطبيق (التفسير الفينومولوجى) أى التفسير الظواهرى .[1] على ماذهب إليه من آراء تناصر التشيع والغنوص .

وقد أدى تطبيق هذا المنهج إلى وقوع « كوربان » فى تصورات غريبة بعيدة عن الفكر الشيعى والفكر الصوفى مما نتج عنه الحكم بفساد منهجه .

٤ — المدرسة الاسبانية :—

وهذه المدرسة تعلن عن نفسها : أنها مدرسة (كاثوليكية) بحْتَةٌ خاضت مجال التصوف فى المحيط الاسلامى تبحث عن أصول المسيحية فى أصول التصوف الاسلامى .

وقد أعلنت هذه المدرسة أن التصوف الإسلامى تأثر بالمسيحية ممثلاً فى الرهبان المسيحيين المنتشرين فى العالم الاسلامى . وأكد صاحب هذا الرأى (أسين بلاسيوس) أنه أيضا أثر المسلمون فى التصوف المسيحى .

ويهمنا هنا أن نؤكد أن المدرسة الاسبانية لم تكن إلا مدرسة مسيحية عُنَيت بدراسة التصوف لخدمة أغراضها الكاثولوكية وكانت واضحة فلم تعلن عن نفسها أنها ستكون (محايدة) أو أنها تبغى الدراسة بغرض البحث العلمى المجرّد .

وبعد : فإننا بعد هذه الدراسة نكون قد لاحظنا ماعاناه التصوف . ومايعانيه على أيدى أعداء الأسلام وأن فى ميدان التصوف اختلط الدخيل

---

(١) وضعه الفيلسوف الألمانى « هو سيرل » ويذهب فيه إلى تطبيق المنهج التجريبى بشقيه التاريخى والاستقرائى فى دراسة وتحليل الظواهر الإنسانية .

بالأصيل والتصوف الإسلامى المؤصل على القرآن الكريم والسنة النبوية بغيره من التصوف الدّعىّ .

ومن هنا كان لزاماً علينا من منطلق المسئولية العقائدية أن نقدم دراسة موضوعية عن التصوف حتى نستطيع أن نميز الخبيث من الطيب لنحق الحق ونبطل الباطل عندما نمسك بأيدينا (ميزانا) مستوحى من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ : (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة) .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

دكتور

مصطفى غلوش

بسم الله الرحمن الرحيم

مكانة التصوف في الإسلام

إن مرادنا بالتصوف الذى نعرض له بالدراسة هنا هو ذلك الاتجاه الروحى الذى لمح فى المحيط الاسلامى خلال حركة التاريخ الفكرى للاسلام .

وكما سيظهر من تعريفنا للتصوف عند الذين حاولوا أن يعرفوه : أن التصوف : له جوانب عدة . هى التى حدت بهؤلاء المخلصين ان يختلفوا في المراد من التصوف .

ونعتقد أن السبب فى تعدد التعاريف قد صدر عن تعدد النظرة إلى مفهوم التصوف .

وهذا يعطينا أن ثبات فكرة (التصوف) .

فى الفكر الاسلامى . ووضوحها . لم يتم لها دليل . بل لو أننا اعتبرنا الاختلاف دليل الابهام . لقلنا : إن الدليل قد قام على الغموض والابهام .

فإذا ما أردنا أن نقف أمام ظاهرة تلقى الامة الاسلامية .. لهذا الضرب من الافكار من حيث القبول والترحيب به .. وعدم التبرم بمنشطه حتى من الذين لا ينخرطون فى هذا الاتجاه الروحى .

مراعين فى وقفتنا : أن الرسول ﷺ والراشدين بل والصدر الأول من الاسلام ... لم نجد لديهم رافداً (صوفياً) بالمعنى الموجود – والذى نحن بصدده – يرد الينا منسوبا النسبة التى يطمأن اليها .. وقبل أن نلج إلى تعريف التصوف وإتجاهاته أحب أنْ اصرح إبتداءً . أننى : أحفل بذلك الاتجاه الروحى الذى يأخذ الانسان من واقع وجوده الأدنى إلى وجود أعلى يغمر الروح الشفافة فتدرك بحسها الخاص (مقام الالوهية) مثلاً . بإدراك يفوق إدراك من أخلد روحه لحافة التكليف .

وما أتصور أن الرسول ﷺ عندما أخبر عن إيمان الخليفة الأول أبى بكر

الصديق رضى الله عنه . بأنه لو وزن إيمانه لرجح إيمان الامة إلا اشارة منه إلى : ان الناس فى مجال (شفافية) الروح لا يمكن ان يكونوا على درجة واحدة ...

ولذلك نحن لا ننكر تلك الرقة الروحية التى تعصر الروح شوقا او تصهر الفؤاد حنيناً إلى معارج تبغى ان تستشرف على وجود أكثر ملائكية أو راحة اكثر اطمئناناً .

الفرق بين الإبداع والتذوق :

والناس أمام هذه المعانى متفاوتون فى الإدراك فاذا استحضرنا هنا مثلا : مفهوم تذوق الشعر .. فإننا نجد أن الغالب من الناس يتذوق الشعر كفن وجرس وأداء ومعنى وأخيلة . فيطرب له ويجذل بسماعه .

وبجانب هؤلاء (فئةٌ) من الناس لا يكتفون بهذا التذوق القائم على فكرة (التلقى) لفن الشعر ولكنهم يخطون خطوة أكثر عمقا وأبهى إشراقا لما يملكونه من (ملكة) تُعينهم على هذه الخطوة . أعنى بهؤلاء : الذين (يقرضون) الشعر ويكتشفون المعانى .

إن الشعراء (فئة) من الناس تتذوق الشعر مثل الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالى وهبهم رقة فى الشعور وقدرة على خوض بحر القريض — فاقبلوا عليه يغترفون .

وهنا نستطيع أن نلمس الفرق بين (المتذوق) للشعر . صاحب (الملكة) الصانع للشعر .

فاذا تصورنا ذلك وعُدنا إلى موضوع التصوف وجدنا أن وُجْدَانَ (المسلم) به رقة هادئة وعاطفة سمحة (رحماء بينهم) متشحة بحب الله تعالى (والذين آمنوا أشد حباً لله) تعينه على تقبل التكاليف .

ومن المسلمين من يملك (ملكة) أكثر رقة وأشد إشراقاً فتعوده هذه (الملكة) إلى التطواف فى ملكوت الله تعالى فيرى بها جوانب العظمة وأدلة الوجود . ومناهج القدرة فتزداد روحه إيماناً ويمتلىء صدره عرفانا فيبلغ حالة

من الحب لله تعالى اكثر ركونا وأشد ثباتاً من حالات غيره فاذا ما وصل (المسلم) إلى هذه (المنزلة) اطمأنت نفسه واستكانت روحه . وملأه (الصفاء) الذى يشيع فيه (الملائكية) الصادرة فيه بسبب معرفته الجديدة الوليدة .

وهذا الوضع هو ما أسميه (التصوف الحقيقى) الذى ينبع من ذات الانسان بلا (شيخ) أو (معلم) أو (طريق) . ولا مفجر له سوى تدبر القرآن الكريم . والالتفات إلى ملكوت الله . وإلى آلائه ونعمائه على الوجود والانسان .. والتنبيه إلى سلوك وتعاليم أصدق البشرية محمد ﷺ وباعتباره خاتم وحى السماء ونبوتها .

وهكذا ندرك أن هذا المعنى لا يمكن أن يقوم ويدور وينهل إلا من (القرآن والسنة ومنهج السلف فى السلوك ....) .

(التلذذ بالتكاليف، سمة الصوفى)

ونصرح هنا أننا لا نختلف على هذا النهج فى التسمية سواء دل عليها بالتصوف . أو بالزهد او بالتنسك أو غيرها .

فكل هذه الأسماء . تصور (حالة إنسانية) تُلحظ فى سلوك الانسان . مؤداها : إن هذا الانسان – رجلاً كان أو امرأة قد رقت روحه . وشفَّت حتى صار اكثر ايماناً وأكثر عبادة وأكثر خوفاً . واكثر رجاءً وأكثر بكاءً وأكثر خشية لجناب الله تعالى .

وإنه خرج من طور أداء العبادة التى يؤديها غالبية الناس من منزع التكليف أى طور أداء العبادة التكليفية من صلاة وصوم وزكاة وحج . كما طلب الاسلام من المسلمين .. بلا إسقاط أو تاويل .. وإنما الفرق انه يقوم بالعبادة . وقد شاعت فيه (لذة) العابد الذى يتلذذ بصلاته – مثلا – إلى محبوبه الذى يعبده .

فالتلذذ بالعبادة عندنا هو الفرق الذى يمكن الالتفات إليه . أعنى الذى

يمكن أن يحسه العابد كمرتبة (قرب) من حب الله تعالى ..

منابع التصوف :

وبذلك يكون التصوف الحقيقى عندنا هو : ذلك الاتجاه الروحى الذى تراعى منابعه وأهدافه ..

ومنابع التصوف فى الاسلام هو القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة كما أوردها السلف وشرحوها . بلا باطن لنص أو ظاهر غير مراد .

غاية التصوف :

وعلى ذلك فلابد - عندنا - أن يؤصل التصوف على الكتاب والسنة النبوية . ولابد أيضاً - أن يكون هدف التصوف (إسلامياً) ..

على معنى : أن يبلغ بالانسان درجة روحية تقرها العقيدة الاسلامية . وتعضدها .

فلا معنى للتصوف الذى يتناقض مع القرآن الكريم .. أو السنة النبوية أو ماأجمعت عليه الصحابة فى الصدر الأول .

ولا معنى للتصوف الذى تتعارض مبادىء معتقده مع مبادىء الاسلام وما عُلم من الدين بالضرورة . أو التصوف الذى يدعو الى إسقاط التكاليف .

كذلك لامعنى للتصوف الذى يرفض الحياة ويدعو للكسل وهجر الكون .

ولامعنى للتصوف الذى يحتوى على : عبارات وكلمات أو عقائد - ما سمعناها من النبوة أو الصحابة أو التابعين رضوان الله عليهم .. وتصادم العقيدة السليمة . أو تفتح الباب للفتن والشبهات ودعاوى الظن والشك وتبتعد عن صفاء الاسلام ونصاعة الحق فيه وانبلاج نوره .

(مقياس التصوف الاسلامى)

اننا يجب أن نتلمس مقياساً حقيقاً للتصوف الإسلامى . نقيس به حركة التصوف فى المحيط الاسلامى وجوداً أو عدماً . تاريخاً وفكراً . لنستطيع أن نحكم باطمئنان على هذا النوع من (المعرفة) التى وجدت فى المحيط

الإسلامي (بمصطلحات) لم تكن على عهد الرسول ﷺ .

ربما أن المقياس العام في الإسلام أن نُحكّم في (التلقى) كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لنأمن (الضلال) ونتمسك بهذا التحكيم . كما دلنا رسول الله ﷺ حيث قال : (تركت فيكم ماإن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا : كتاب الله وسنتى) .

إن رسول الله ﷺ يبين للناس مايجب عليهم اعتقاده وعمله عندما سئل عن (الاسلام) فوضح مايجب عليهم عمله والتصديق به وبين ميدان الإقرار والتسليم المطلوب ليكمل الإيمان عندما سئل عن معنى (الايمان) . وانتقل البيان النبوى إلى حيث : وجدنا أن أمين الوحى : جبريل عليه السلام، سأل الرسول ﷺ : عن معنى (الإحسان) فقال له رسول الله ﷺ (الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فهو يراك) .

منازل المعرفة فى الحديث :

نلفت النظر فى حديث رسول الله هنا إلى أنه وضّح (الاسلام) لعامة الناس ليقبلوا على الدين الجديد فيكونوا فى الاسلام ثم أبان (الإيمان) لتسكُن نفوسهم ويستقر فؤادهم . فيكون الاسلام فيهم .. ثم عرّج على نوع من البشر لديهم (ملكات) فى العبادة لايطيقها كُل الناس . هم (المحسنون) هؤلاء لايقفون عند حد التكليف فى العبادة وإنما يرتقون إلى غاية ابلغ حيث يتجهون إلى منهج القرب والحب لله تعالى . حتى كأنهم يرون الله سبحانه وتعالى والمقصود بالرؤية هنا ليس رؤية الذات قطعاً وإنما المقصود : أنهم يعبدون الله الذى يجدون الايمان به فى صدورهم وافئدتهم . فى يقظتهم ومنامهم فى غناهم وفقرهم .. حتى ليكادون يحسونه من فرط إيمانهم بوجوده . وعدم غفلتهم عنه : أنهم يرونه ببصائرهم .

الإسلام يعترف بفكرة الصفاء :

وعلى هذا يتضح لنا من خلال هذا :

أن فكرة الصفاء الروحى معترف بها فى العقيدة الإسلامية وقد أطلق عليها

الاسلام درجة (الإحسان) ومقياسها : (أن تعبد الله كأنك تراه)

وهذا المعنى هو الذى فهمه كل (صوفية) الاسلام الأول . فلم يعتقدوا أنهم تحولوا إلى (حال) خارج اطار الاسلام ولم يتصوروا أنهم وصلوا إلى (أمر) لايعرفة الناس فلم يخرجوا ليعلنوه للناس بل جُلّ علمهم انحصر فى عملهم . مدركين أن الحديث الذى وصلهم قد وصل غيرهم ، وأن رقة الشعور فيهم وصفاء الطبع فى وجدانهم فقط ، هو الذى اطلعهم على مرتبة (الاحسان) فليس الناس فى ذلك سواسية في بلوغ مرتبة الإحسان لاختلاف الطبائع ، وتباين المناهج . وقد عبر الرسول الكريم عن هذا بقوله : (إنما أنا قاسم والله معطى ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين) .

وهذا الأحسان هو الذى كان يجعل رسول الله ﷺ يعبد الله حتى تتورم قدماه من شدتها . وكان يجيب عائشة رضى الله عنها عندما كانت تذكره بمغفرة الله تعالى لما تقدم من ذنبه وماتأخر .

فيقول لها : (أفلا أكون عبداً شكوراً) .

وهذا الاحسان هو الذى كان يفهمه كرام الصحابة . فيقومون الليل ويبكون حتى تتخضّل لِحاهم حذر العذاب وشوقا الى يوم لقاء ربهم .

الاحسان هو التصوف فى الاسلام :

بذلك يتضح لنا أن التصوف الحقيقى . منهج اسلامى وقد عبر عن (قاعدته) رسول الله ﷺ : وأسماه (الاحسان) .

ومن هنا نقول : إن التصوف بهذا المعنى اتجاه روحى يبلغ بالانسان درجة (الاحسان) فدرجة (الاحسان) — إذن ذروة التصوف . أو هى تمام التصوف وكماله . وأعتقد أن التصوف بهذا المعنى جدير بأن يبتعد بصاحبه عن (أهداف) أخرى لايقرها الاسلام : كالحلول والاتحاد والفناء .. وغير ذلك من قضايا تصادم الاسلام .

ونحن حقيقة نحس فى صدورنا بعضاً من (العُتْب) على بعض المتصوفة الذين وردت إلينا آراؤهم تلك .. وهى تحتوى على دعاويهم من الأحوال

الذوقية التى تعاوروها والتى يتضح منها : التسوية بين : العابد والمعبود أحيانا .

التصوف حالة فردية :

نبهنا إلى أن (التصوف) ملكة خاصة للروح وليس أمراً مشاعاً متاحا لكل الناس وصورنا ذلك – للتقريب – بمثال متذوق الشعر . وصانع الشعر نفسه .. فى مجال المقارنة بينهما .

فالشاعر هو الذى يملك الموهبة وهو هنا (المتصوف) .

وعليه : فليس كل الناس (شعراء) وإن كان يمكن أن يكون كل الناس أو أغلبهم بالثقافة والتربية الفكرية : من متذوقى الشعر .

وإذا ظهر ذلك : يظهر أن (التصوف) حالة فردية يستطيعها أولوا العزم فقط . من عباد الله وليس (تكليفاً) يطيقه كل الناس . وإلا لكان أوجبه علينا الله وأخبرنا بذلك الوحى الكريم فلا يكتم عنا رسول الله ﷺ شيئاً من بلاغ الوحى .

ونحن من جانبنا لانتصور أن يفتح الاسلام (نافذة) لبعض الافراد الذى يملكون (ملكات) روحية شفافة ليرتادوا بها رحبة قدسية يتلذذون بها . ويتركهم فى بيداء الحياة بلا إرشاد روحى من الوحى المعصوم ..

إذ أن بعض النفوس البشرية الرقيقة تتخذ التصوف (منارة) تشرئب منه إلى (الرقى الروحى) حيث تكون قدراتها الروحية أعمق ويكون لديها القدرة على التنقل الفكرى فى المنازل الروحية .

وينبغى ان نعلم أنه ليس كل (فرد) مستعد لهذه (المنازل) وانما هى لبعض النفوس (المستعدة) كما أشرنا الى اختلاف النفوس البشرية فى الاستعداد أمام الملكات الفنية .

مثل : الشعر والرسم والموسيقى وغيرها . فهذه الفنون كلها فى النهاية (جهود فردية) توصل اليها (فرد) بمفرده وباستعداده الخاص دون مساعدة من بشر سواه .

والحق : أنه لايمكن (الحجْر) على مثل هذه النفوس فى ارتيادها الروحى . بل ان الاسلام لايرضى أن تُصد النفوس البشرية الصافية عن هذا الارتياد باسمه . ورقة القلب وشفافية النفس فى مجال التدين مطلب من الله تعالى . طلبه من الانسان . حيث قال تعالى : (فبمارحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) .. ولذلك نعى القرآن الكريم على بنى اسرائيل (قسوة قلوبهم) .

فليس التصوف اذاً (حالة عامة) وظاهرة اجتماعية يشترك فيها كل الناس او قطاع معين عريض ، وانما التصوف حالة (فردية) تنشأ بين (انسان واحد) وبين (الله الواحد) وتظل ترقى هذه العلاقة فى إطار القرآن الكريم : من منهج الاسلام الى منهج الايمان حتى تصير منهجا يسمى منهج (الاحسان) كما وضحت السنة النبوية هذا (الترقى) ..

التصوف والكتمان :

وإذا كانت (الفردية) هى (محور) (التصوف) فان هذا يجذبه إلى (دائرة) (الكتمان) على معنى : أن من ينهج منهج الإحسان (التصوف) بجهد (فردى) حتى يرى نفسه وهو يعبد الله كأنه يراه : فإنما يسعى إلى ذلك حثيثا يتواضع فى الذات وسمو فى الروح . فيعليه تواضعه ويدنيه سموه ويظل يعرج فى التواضع والسمو : حتى يدرك معنى (الاحسان) .

والانسان المسلم فى هذا الاطار يدرك أنه بلغ أو يحاول بلوغ (غاية) ليست لكل الناس ، ولذلك نجده دائما يحاول ان (يكتمها) ولا يعلنها للناس ولنا : فى (خبر) الثلاثة الذين حاولوا أن يصلوا إلى درجة (الإحسان) بمفهوم الزهد الشديد وكثرة العبادة . فذهبوا يتلمسون عبادة الرسول ﷺ . فلما أخبروا بها كأنهم (تَقَالُّوها) ما يعطينا المثل على أن الصحابة الباحثين عن مرتبة الاحسان كانوا يسعون اليها ولكن بمنهج (الفردية) . فالفردية هى الأصل الأصيل فى التصوف . فان قوام الملكات الروحية والفنية دائما : أنها ملكات فى أفراد أى أنها ملكات (فردية)

فالخروج بالتصوف عن هذه (الفردية) الى (الجماعية) هو خروج به عن طبيعته ...

الإعلان فى التصوف :

اذا علمنا أن التصوف منهج (فردى) وليس منهجا (جماعيا) فإننا – حقيقة – ندهش من تصريحات بعض المتصوفة ومجاهرتهم بهذه الأحوال الذوقية .

ونحن اذا سلمنا مع هؤلاء (المتصوفة)[1] الذين يجاهرون بأقوال لا تجد لها دليلا من كتاب الله ولا سنة رسوله الكريم . بأن التصوف حالة (فردية) وسلمنا لهم بتسترهم تحت حالات (الفردية) من (انعدام) البرهان والدليل .

فانه يحق لنا ان نسألهم خاصة وهم يعترفون بأنها (حالات فردية) لا يذوقها الا من شاهدها : –

لماذا يحاولون جعل هذه الحالات الفردية حالة (جماعية) ؟ ولماذا يصرحون بذلك للناس .. ؟

اننا لا نتصور أن هؤلاء المتصوفة (عابثون) بمجاهرتهم بهذه الأحوال عند انتفاء (الغرض) من هذا (الاعلان) فلابد إذن : أن يكون وراء تلك (المجاهرة) غرضا وغاية ...

فما هو الغرض من الاعلان ؟ .

ان ما يعلنوه من (حيثيات) للجهر بأنه علاقة بين (محب ومحبوب) ويقصدون (الله والانسان) .

فإننا لو صدّقناهم نجد عند المقارنة أننا لا نستطيع الا أن نضعهم فى مصاف العابدين الذين خانوا أمانة (الكشف) .

وأما اذا كان تصريحهم لغرض آخر .. فإننا بكل قوى النفس التى تحسن الظن في المسلم .

(١) سأستعمل لفظ (المتصوفة على الذين لاترتضى مذهبهم .
ولفظ (الصوفية) على هذه الفئة التى تمنح من منهج القرآن الكريم والاسلام .

نقول : إننا نعتقد أن التصريح بهذه الأقوال التى لم ترد فى كتاب (الله) ولا سنة رسوله الكريم ولا عن السلف الصالح – من أمثال القضايا التى توهم الحلول و (الفناء) و (تشبيه الخالق بالمخلوق) . إن أفاد هذا التصريح (شخص) المجاهر .. فإن التصريح نفسه (يضرّ) بجانب ذلك الغالب الأعم من (عوام) المسلمين الذين قد (يفتنون) فى شخص المجاهر خاصة اذا استحضرنا هنا ان النفس البشرية عموما مستعدة لتلقى (الافتتان) من منطلق الدين وإن قيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقطع (الشجرة) التى بايع تحتها رسول الله ﷺ . عندما وجد المسلمين يذهبون اليها طلبا للبركة : لخير دليل على استعداد النفس البشرية للافتتان . وموقف الاسلام من أبواب الفتن بالقضاء على البدع .

ولذلك وجدنا بعض (الصوفية) الذى شربوا من نهر القرآن الكريم والسنة النبوية يؤكد محذرا من التصريح بشيء من الالفاظ التى شوهدت فى نطاق التصوف لأنها حالات (فردية) وخاصة . وشاع عنهم فى أسلوب التحذير قولهم (من باح راح) .

فتوى الغزالى :

ويكفينا فى هذا المضمار أن نلتفت إلى وضوح هذه الفكرة وشخوصها عند الامام (الغزالى) الذى ظل ينشد (درجة الإحسان) فتصوف من اجلها (عشر سنوات) فى (مئذنة المسجد) .

فلما عاد إلى الناس . كانت عودته فى صورة ذلك (الشخص) العادى الذى أَلِفُوه من قبل – فلما سألوه عما وجده أثناء فترة عزلته وتفرّده للعبادة فماذا كان جواب الغزالى ؟ ..

أجاب الغزالى من سأله عن علاقته بالله تعالى فى تصوفه وتجربته الروحية فكان جوابه فاصلا اسلاميا ، ونحن لذلك نعتبره (فتوى شرعية) من (حجة الاسلام) سد بها باب المجاهره . وأوضح (فردية) هذه الحالة بجلاء حيث أجاب بقوله : –

فكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

ويحكى لنا (ابن خلدون) فى (مقدمته) : أن عظماء الصوفية لا يخبرون عن حقيقة ما يرونه . بل يعتبرون الإخبار والجهرية (محنة) وابتلاء يتعوذون ويلوذون بالله تعالى طلبا من النجاة منها .[1]

وهكذا وضح موقف (المُعْلِن) ان أحسنا به الظن :

أما اذا أسأنا الظن فى هؤلاء المتصوفة : فاننا نلفت النظر إلى أولئك الذين انخرطوا فى التصوف ولبسوا (خرقته) ليدسوا للاسلام من خلاله . خاصة وأن قضايا التصريح . التى عُهدت عندهم ينتظمها : (مصادمة) للعقيدة الاسلامية . وهذا النوع هو الذى ادعوه (بالمتصوفة) أى : أدعياء التصوف . الخارجين عن خط التصوف كما أراده القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . وما أثر عن السلف الصالح .

وهذا الصنف من الناس - اى الأدعياء فى العقائد - موجود فى كل زمان ومكان حتى فى عصور النبوات . ويكفى ان نلفت النظر إلى أن فى القرآن الكريم (سورة) تنبه إلى وجود (مرضى) القلوب الذين تستروا بالاسلام ليكيدوا له هى (المنافقون) ..

الصوفية ترفض المتصوفة :

وعلى ذلك فاننا نعتقد ان التصوف الحقيقى : لا ينقصه ان يعترف معنا : أنه قد دخله بعض (الغرباء) عنه الذين عند ما تنبه إليهم (علماء الاسلام) فنقدوهم وأظهروا خروجهم على قواعد الشرع والاسلام :

هَمْهَمُوا قائلين : شطحات وأحوال وأذواق ومواجيد وعشق .. وغير ذلك من العبارات الغامضة . والتى لا يضبطها قانون : لغوى أو فكرى أو روحى . وأنبه هنا : إلى أن هذا النوع الذى ترطن التصوف إنما هو (أجنبى) ودخيل على المحيط الاسلامى .

وبذلك نكون قد اقتربنا من تفصيل منهجنا هنا ...

---

(١) راجع ص ٤٤١ من (المقدمة) نشر دار الشعب .

مبحث

التعريف بالتصوف

لمْ يكن على عهد رسول الله ﷺ . ذلك الإصطلاح الذى استحدث فى المحيط الاسلامى . وتلقته الأمة الاسلامية بمناهج مختلفة فى القبول .. وأعنى به (التصوف) فقد وجدنا من قَبِلَ هذا المصطلح بالاطلاق ومن رفض بالاطلاق .. ومن رفض بعد دراسة .. ومن قَبِل بعد دراسة ..

مشكلة المعتقد :

وهذه المناهج هى التى تحرضنا : أن نحاول استجلاء جوانب الحق فى هذه المناهج .

وليست لدى (الانسان) مشكلة فى اعتقاده لأى قضية من القضايا .. من حيث القبول والرفض ..

انما المشكلة الحقيقية إنما تكون عند (المسلم المتدين) الذى ينشد أن يقيس كل القضايا التى تحيط به بمقياس الاسلام .. فان عارضها رفضها وان أيّدها قَبِلها .. وأما اذا لم يتضح له منهج القبول والرفض هرع إلى العلماء المتخصصين يبغى جهودهم فى تقديم العون العقائدى اليه . فيقدمون له فى أمانة : ما يمكن ان تفتحه هذه القضية ان اعتقدت من مشكلات عقائدية .. يعتبرونه بمشكلة (لوازم المذهب) فكل عقيدة صارت مذهبا . او أن كل مذهب صار عقيدة .. انما بالضرورة يأخذ بصاحبه إلى (لوازم) أخرى .. يضطر صاحبها إلى اعتقاده . وقد يتصور فى بادىء الأمر أنه : لا علاقة له بين البدء الاعتقادى .. والانتهاء الاعتقادى ، ولخطورة هذه (اللوازم) سنضطر إلى عرض بعض (القضايا) بعد هذا التعريف والتى قد يُظَن انها لا علاقة لها بالعقائد .. بينما هى (تصادم) العقيدة فى جوهرها وان كانت لا تُفصح عن ذلك (ابتداء) .. وتلك مكامن الخطر ..

ابن خلدون وتعريفه للتصوف :

اذا ذهبنا إلى (ابن خلدون) الذى اهتم بدراسة العلوم التى تؤثر فى سلوك الاجتماع الانسانى . واشتهر بدقته فى الوصف وأمانة النقل . فاننا نجده يذكر فى (مقدمته) عن التصوف بوصفه (علما) فيقول : (ان هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة – الناشئة – فى الملة – يقصد الاسلام) .

وهكذا يقرر (ابن خلدون) فى هذا النص أمرين :

(ا) إن التصوف لم يكن على عهد الرسول ﷺ ولم يأت به الوحى . وانما هو منهج قد حَدَث أى : نشأ وابتدُعَ بعد ذلك .

(ب) ان هذا النوع من العبادة . قد صار (علْماً) وينبغى ان نفهم من معنى (العلم) عندما يضاف إلى معنى يندرج فيه (مسائل) . أو (قضايا) أنه :

مجموعة القواعد والقوانين والأساليب والمصطلحات التى تجعل (قضايا) هذا العلم : محكومة بمنهج هذه القواعد . حكماً يمكن أن يهىء لنا : نقدها . أو تعلمها . أو ضبطها . أو الاضافة والحذف . بمعيار ثابت .. وهذا كله يصب فى (قالب) واحد هو ما يطلق عليه اسم : (علم كذا) ...

تصوير ابن خلدون لمعنى التصوف :

يصور لنا ابن خلدون طريقة – أى منهج – الصوفية فيذكر لنا : أن طريقة هؤلاء القوم . لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين . ومن بعدهم هى الطريق إلى : الحق والهداية ..

وقد كانوا يفهمون الطريقة على أنها :

العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى . والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها . والزهد فيما يُقبل عليه الجمهور وعامة الناس بما فُطروا عليه من حب اللذة والمال والجاه والسلطان .

فقد (انفردوا) عن الخلق فى الخلوة للعبادة ...

ويذكر (ابن خلدون) : أن هذا الاتجاه الروحى كان (عاما) فى سلوك الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح .

فلما انقضى القرن الأول الهجرى . كثر اقبال المسلمين على الدنيا وجنح الناس إلى الضرْب فى الأرض سعياً وراء الاكثار من المال والجاه ولذات الحياة ..

فتقلّص بذلك ونقص الذين كانوا ينهجون (طريقة) الصحابة والتابعين . وليس معنى هذا - عند ابن خلدون - أن الساحة قد خلت من قوم : ظلوا متمسكين بنهج الصحابة والتابعين فى العكوف على العبادة فان قوما من المسلمين لم (يشغلوا) عن طريقة الصحابة والسلف . فلم يسعوا وراء الدنيا .. وانما تمسكوا بمنهج (الاقبال) على الله تعالى والبعد عن اللذات والمتع .

ويورد (ابن خلدون) ان هؤلاء القوم المسلمين الذين تمسكوا بطريقة الصحابة والسلف فى العبادة والزهد . قد خُصّوا باسم (الصوفية . والمتصوفة) ثم ينقل عن القشيرى قوله :

(ولا يشهد لهذا الاسم - التصوف - اشتقاق من جهة العربية ولا القياس . والظاهر أنه : لقب . ومن قال : اشتقاقه من : الصفاء . أو من : الصفة . فبعيد من جهة القياس اللغوى .. وكذلك - ليس من الصوف : لانهم لم يختصوا بلبسه) .

ويقرر (ابن خلدون) : ان الأظهر فى الاشتقاق : أنه من : الصوف لانهم - فى الغالب - مختصون بلبسه . حيث كانوا يخالفون الناس الذين يلبسون الثياب الفاخرة الناعمة إلى لبس الصوف الخشن[1] .

ويقول الدكتور على سامى النشار :[2] .

---

(١) راجع التفصيل ص ٤٣٩ من ك (مقدمة ابن خلدون) طبعة دار الشعب .

(٢) راجع ص ٣٠ جـ ٣ من ك (نشأة الفكر الفلسفى) ط السابعة نشر دار المعارف .

(لقد ثبت أن كلمة (التصوف . استخدمت . إما فى أواخر القرن الثانى – الهجرى – وإما فى بدء القرن الثالث .. أما حركة (الزهد) فقد وجدت منذ عهد النبى ﷺ وعصر السلف . وحكم الأمويين . وأن أول كلمة أطلقت على مجموعات الزهاد . وأول كلمة أطلقت على أول (حلقة) زهدية . هى : حلقة أبى الحسن البصرى . هى كلمة (المعتزلة) سُمى بها هؤلاء الذين زهدوا فى الحياة والسلطان . وعاشوا عيشة اجتماعية ذات خصوصية . نَبَتْ – بَعُدَت – بهم عن نزوات الناس .

وقد خرجت حلقة الحسن البصرى : الطوائف الآتية : –

١ – الزهاد . ٣ – السائحون .[١]

٢ – العباد . ٤ – البكاءون .[٢]

وبذلك يظهر أن كلمة (التصوف) أتت متأخرة عن هذه الالفاظ ... بل انه من الملفت للنظر هنا :

إن الكثير من الزهاد كانوا يتحرجون من أن يدعوهم الناس بالصوفية . فاذا ماسألنا أنفسنا :

لم كان هذا الحرج .. وماالدافع اليه ... ؟ ...

اننا لانستطيع الجواب الا تلمساً .. حيث خلت أخلاقهم الطيبة من : إبداء الرأى فى غيرهم .. وانْ هَجَرُوهم .. فلن نجد – ان بحثنا – حسب تصورى : رأيا لهم فى مخالفيهم الصوفية – وان نفروا وتخرجوا من أن يطلق عليهم (الصوفية) أعنى : اننا لن نجد بوضوح (حيثيات) هذا الحرج . ومن هنا يتعين علينا تلمس هذه الحيثية اجتهاداً ...

---

(١) السائحون : معناه الصائمون لله تعالى عبادة وطاعة . ويطلق عليهم أحيانا (الجوعية) راجع ص ٣٩٠ جـ ٤ من ك (تفسير ابن كثير) وص ١٢٨ من ك (ثورة العقل) د/محمد عاطف العراقى .

(٢) كانت التوبة والبكاء طريقا من طرق قدماء الصحابة سواء من أهل (الصفة) أو من غيرهم . راجع ص ٨٤ جـ ٣ من ك (نشأة الفكر الفلسفى) د/ النشار . وك (فى التصوف الاسلامى) لنيكلسون .

فاذا علمنا أن المسلم لايتحرج مِنْ وصفه بالايمان والاسلام والعبادة والتطوع .. الى آخر هذه الأمور التى تقربه من الله تعالى ..

فانه لايبقى لدينا سوى الفرض الثانى . وهو :

التحرج من وصف – يجدونه لايليق بالمسلم الذى تعهد أن يقبل ماأثر عن الصحابة والسلف فقط أما عدا ذلك مما ابتدع فى المحيط الاسلامى بعد ذلك . فكانوا يخافونه .. وينفرون منه . تحرجاً .. ان يفتح عليهم منافذ فِتَن . أو يقودهم الى : مواطن اعتقاد . لايرضى عنها الله ورسوله .

ومن هنا يكون التلمّس لسبب هذا التحرج قد أوقفنا على رأى هؤلاء فى التصوف . والذى تبلور فى أن التصوف قد وفد ضمن بعض التيارات الثقافية التى وفدت فى عصرهم . وأنهم كانوا لايطمئنون الى (الصفاء) الذى أخذوا أنفسهم به . وأنه ارتكز على بعض الأقوال والقواعد التى ماقال بها رسول الله ﷺ « أو الصحابة أو التابعين .. وانما مدّ طريقا بين الانسان والله من صنع واجتهاد (الانسان) .. بينما هم لايرون سوى الطريق الذى (مدَّهُ) الرحمن مداً . وهو طريق (الوحى) .

وقد حكى محمد بن سيرين : أن النبى ﷺ كان يلبس (الكتان) وأولى بنا الاقتداء بنبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وقد ورد فى الأثر أن عمر بن الخطاب : خاطب رسول الله ﷺ فى مضمار يبين تواضعه وهو يبكيه بعد موته . فقال له :

(لبست الصوف) .

ومهما يكن من شىء : فانه يبدو أن لبس الصوف كان لباس عامة الناس من العرب قبل الاسلام فى حين كان الأغنياء يلبسون : الحرير والديباج وغيره . فلما جاء الاسلام . ودخل الناس فى دين الاسلام أفواجاً .. طلب منهم الاسلام (تغييراً) فى لباسهم من حيث النوع فانتشر الصوف وغيره .. انتشارا أوسع بسبب ذلك الطلب وهو :

إن الاسلام (حرّم) بطريق القطع لبس (الحرير) . فأدرك الناس بفطرتهم الواعية . أنه طالما أن الله تعالى حرم (الحرير) الذى كان ملبسا

للأغنياء .. فانه بالتالى : يرضى عن الصوف الخشن .. ملبس الفقراء وهكذا انتشر الصوف .. وزادت (خشونته) حتى عند الأغنياء .. وصار علامة على الضارب فى سبيل رضاء الله تعالى . المبتعد على ملاذ الدنيا . المتقرب الى الله تعالى بالابتعاد على (شبهة) الثوب الناعم أو الفاخر .. إذ أن النعومة والفخامة .. هى ألصق أوصاف (الحرير) ..

ومن هنا نحن نعتقد أنه ماانتشر (الصوف) كلباس بين المسلمين .

الا نتيجة (ردّ الفعل) – إن صح هذا التعبير – لتحريم الاسلام للبس (الحرير) ..

وإنّ تلمّس معنى غير ذلك لظاهرة انتشار لبس الصوف . انما هو (وَصْمٌ) لأجلاّء الصحابة والسلف . بتأثرهم بالروافد الوافدة بينما هم كانوا أحرص الناس على (الاتباع) المحْض . والذى يعنينا هنا : ان الصوف لَمْ يكن اشارة خاصة معينة . لطائفة معينة .

بل إن (الاسلام) أورد مايحث على عدم الالتفات الى مثل هذه الأمور . فتجده يركزّ على ان موضوع (الملبس) انما هو شىء يهم الناس فى دنياهم فقد أباح الله للبشر كل الملبس . وماأراد تحريمه عليهم كالحرير والذهب – مثلا – نص الوحى الكريم على تحريمه . وماعدا ذلك . فهو باق على أصله من (الحِلّ) .

وبذلك نستطيع أن نفهم قول الرسول ﷺ : (ان الله لاينظر إلى صوركم وأجسامكم . ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم) .

وقد وصف (الخُلُق) الفاسد الذى لم يرتضه الاسلام بأنه خلُق (جاهلىّ) .. عندما قال رسول الله ﷺ . لمن عيّر مسلما بأمه السوداء ، (إنك امرؤ فيك جاهلية ..) .

بينما لم نجد فى الأثر : وَصْفَ (اللباس) بأنه لباس (جاهلى) كل مافى الأمر : أنه من حيث (الكيْف) : حرّم (الحرير) . ومن حيث (الكم) : وضح حدود (العورة) عند الرجل والمرأة الحرة وغير الحرة ..

تعليل الطوسى للنسبة الى الصوف :

يعتبر السراج الطوسى أقدم من أرخ للتصوف (ت ٣٧٨ هـ) ولذلك عندما نذهب اليه نستنطقه فى علاقة الصوف بالصوفية فنجده فى كتابه (اللمع) يذكر عن الصوفية :

ان الصوفية . لاتنفرد بنوع من (العلم)[١] حتى تنتسب اليه . كالفقهاء الى الفقه . والمفسرين الى التفسير والزهد الى الزهاد[٢]. لأن الصوفية معدن جميع العلوم . ومحل جميع الأحوال المحمودة الاخلاق الشريفة سالفا ومستأنفا . وهم مع الله فى الانتقال من حال الى حال . مستجلبين للزيادة . فلما كانوا كذلك : لم يستحقوا اسما دون اسم ولكن الطوسى - بالرغم من ذلك - لايمانع من نسبتهم الى ظاهر لبسهم لأن لبس الصوف عنده هو : دأب الأنبياء وشعار الأولياء والأصفياء .

والطوسى لايرى فى النسبة الى الملبس أىّ غضاضة .. ويستدل على تقبله لهذه النسبة بلا حرج بالقرآن الكريم ..

فيقول : (وصف القرآن الكريم أصحاب عيسى عليه السلام بالحواريين وكانوا يلبسون : الثياب البيضاء . فنسبهم الله تعالى الى : هذه الثياب) .

ويؤكد الطوسى : أن الصوفية من الصوف : وأنه بذلك القطع : يتضح مصدر الاشتقاق ...

التصوف ومتى يفترق .. ؟ ...

ونجد من يعرفنا بالتصوف ناظرا الى (منهج التصوف) نفسه وهذا التعريف هو الذى يضع أيدينا على : الاختلاف الذى نلاحظه فى طرائق

---

(١) يلاحظ الفرق بينه وبين (ابن خلدون) .

(٢) يقرر الطوسى هنا صراحة ان التصوف لا علاقة له بالزهد . وأنه نشأ يجاور الزهد . وبذلك يظهر عدم دقة ماذهب اليه الدكتور عاطف العراقى من أن (التصوف فى بدايته كان يتسم بالزهد أى ترجع نشأته إلى حركة الزهد) - راجع ص ١٢٩ من ك (ثورة العقل) . نشر دار المعارف الطبعة الثانية .

ومناهج التصوف . ولم صار التصوف أحيانا إشراقياً ؟ ولم صار : فلسفياً .؟ ومتى يكون : إسلاميا .؟

(يقول هذا التعريف :

(التصوف اذن : فكر وعمل ودراسة وسلوك) ويقصد بالفكر والدراسة : الدعائم العقلية الفلسفية التى يؤصل عليها مناهج التصوف .

ويقصد بالعمل والسلوك : الأسلوب الذى يُعْتَبر ظاهرياً ويحسّه الناس من العامل والسالك حقيقة ماثلة أمام عيونهم . والعمل هو المقابل للاعتقاد الناشىء عنه عادة .. والسلوك هو السير حسب هذه المعانى الروحية الأخلاقية .

ويعبّر عن الجانب العقلى فى التصوف : بالفكر والدراسة . ويعبّر عن الجانب العملى السلوكى فيه : بالعمل والسلوك .

واختلاف المتصوفة فيما بينهم راجع الى تغليب أحد الطرفين عن الآخر .

فمن رأى طريق الوصول الى الله تعالى وكسب جنته العليا لتحقق السعادة الكاملة هو الدراسة والبحث والفكر عمد الى (الفلسفة) ليتخذها : طريقا ..

ومن رأى طريق الوصول هو : التقشف والزهد الذى يتبدى سلوكا وعملا فى نبذ سلوك .. واتباع سلوك . واتيان عمل وترك عمل . عمد الى (العمل) والاكثار من العبادة ليتخذه : طريقا .

وقد نقل لنا تاريخ التصوف الذى شوهد فى المجتمعات قبل الاسلام مثل : الهند والاسكندرية :

١ – ان التصوف عند رجال مدرسة (الاسكندرية)[1] كان يقوم على

---

(١) مدرسة فلسفية نشأت قبل الاسلام . وقامت على معنى (التصوف) الذى جاء فى فلسفة (أفلاطون) فجاء (أفلوطين) مؤسس هذه المدرسة . فعمق التصوف . واستطاع ان يصوغ العقيدة المسيحية على فكرة التصوف . والذى جاء فى كتابه المعبّر عن فلسفته الاشراقية والمسمّى (تاسوعات أفلوطين) ونحن لانعرض هذا لتاريخ التصوف . إنما منهجنا عرض (التصوف الاسلامى) أو (التصوف فى الاسلام) .

فكرة : الالهام والاشراق والفيض .. ويؤكدون : أنه لايمكن للمتصوف ان يحصل على هذا الالهام الاشراقى الا عن طريق الفلسفة والأبحاث العقلية .

٢ – أما التصوف عند (براهمة الهند) فكانوا يرون أن : التصوف لابد أن يقوم على (السلوكيات) . وحصروها فى : الثياب الخشنة . وكلما ازدادت خشونة . كلما كانت موصلة أكثر .. والتقشف فى المأكل والصوم والجوع وافناء الجسم وشهواته توصلا لتفريغه لطاعة الله هو فقط الذى يوصل الى الله تعالى .

وبذلك يدلنا تاريخ التصوف قبل الاسلام على أنه نوعان :

(أ) نظرى : فلسفى وفكرى .

(ب) عملى : زهد وتقشف وعبادة[1] .

تعريفات عامة للتصوف :

نحاول ان نذكر أن التصوف لم يرد فى العقيدة الاسلامية على هذا النحو الذى لمح عند الحضارات والمجتمعات الأخرى ...

وعندما ترجمت الفلسفة الاغريقية فى عصر المأمون (ت ٢١٨ هـ) نقل الى المسلمين (تاسوعات أفلوطين) وقد نسبت بطريق (الخطأ) الى أرسطو على أنها كتاب (الربوبية)[2] فاختلطت هذه الثقافات الاغريقية بما كان موجودا عن المسلمين من معانى روحية مستقاة من القرآن الكريم والسنة فهرع المسلمون يبحثون عن تعريف (ضابط) للتصوف بشرط ان يكون : جامعاً مانعاً ..

وهنا يصرح (الطوسى) بأنه لايمكننا أن نعرف التصوف هذا التعريف الجامع المانع . فيقول عن الصوفية :

---

(١) والى هذا ذهب الامام القشيرى فى (الرسالة) ص ٢١٧ .

(٢) نحن لاحظنا أن كل الكتب الذى أسندت بطريق الخطأ – كما يّدعون – تجمعها فكرة : الترويج للفكر الغنوصى والدعاوى التى تصادم الاسلام كالحلول والاتحاد والفناء ووحدة الوجود .

(هم العلماء بالله وبأحكام الله . العاملون بما علمهم الله تعالى المتحققون بما استعملهم الله عزوجل . الواجدون بما تحققوا القانعون بما وجدوا ..)[1] .

وهذا التعريف ينطبق على كل (مسلم) . وُهِبَ (علماً) وحكمة .. ولايمكن أن نُخرج منه الأئمة الاعلام مثل : ابى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وغيرهم مثل البخارى ومسلم .. فان تاريخهم يؤكد انهم العلماء القانعون المتحققون ... الخ ... ولم يشتهروا ضمن (الصوفية) وان لوحظت محاولات لنسبة التصوف الى بعضهم ..

وهذا معنى قولنا : تعذر التعريف الجامع المانع ..

ولذلك : فانه بعد ايرادنا لبعض محاولات التعريف عند بعض العلماء .. فانا نذكر هنا بعض التعارف التى اعتبرت فيها (زوايا) خاصة . نظر اليها القائل . فاختلفت التعاريف .

تعريف مبنى على الجانب العملى :-

يقول الجنيد : (التصوف ذكر مع اجتماع . ووجْد مع استماع . وعمل مع اتباع) .

تعريف مبنى على الجانب الأخلاقى :-

يقول الكتانى :[2] (التصوف : خلق . فمن زاد عليك فى الخلق . فقد زاد عليك فى الصفاء) . وقال الحدّاد : (التصوف كله أدب) . ونُقِل عن الجنيد أن التصوف : (أخلاقية كريمة . ظهرت فى زمان كريم . من رجل كريم . مع قوم كرام) .

---

(١) راجع ص ٦٤ من ك (تاريخ الفلسفة) د/ ابراهيم مدكور .

(٢) وجد عند (الكتانى) التخطيط المطابق لتخطيط النظام السرى الاسماعيلى الباطنى . فى نظام (حكومة أهل الباطن) والدكتور محمود قاسم لايَعُد ذلك من قبيل اتفاق الخواطر . راجع ص ٢٥٥ من ك (فى الفلسفة الاسلامية) الطبعة الخامسة نشر دار المعارف .

تعريف مبنى على : فكرة (المقامات) :

يقول معروف الكرخي : (الأخذ بالحقائق – يعني المقامات مثل الزهد والصبر ... واليأس مما في أيدى الخلائق) . ويقال أيضا : (التصوف هو الصبر تحت مجارى الأقدار . والتعلم على يد الملك الجبار . وقطع البوادى والقفار) .

تعريف مبنى على (الأحوال) :

يقول ابو على الرذبارى : (التصوف : صفوة القُرب بعد كدورة البُعْد) ويعنى تبدل (الحال) الى : الأنس والشوق والمشاهدة والقرب ..... الخ هذه الأحوال .....

تعريفٌ مبنى على فكرة (الوصول) :

يصف (الخراز) التصوف بوصف أهله . فيقول عنهم هم . (قوم أُعطوا حتى بَسَطوا . ومُنِعوا حتى فقُدِوا . ثم نُودوا مِن أسرار قريبة ... ألاَ فابكوا علينا ....) ....

تعريفٌ مبنى على : فكرة (الفناء) :

يقول الشبّلى : (التصوف : بَرْقَة – صاعقة – محرقة ....)

ويقول ابو الحسن الخرقانى : (ليس الصوفى برقعته – ملبسه – وسجاداته . ولابرسومه وعاداته . بل الصوفى من لاوجود له) .

وبذلك يظهر لنا كيف أنه لايمكن الاتيان بتعريف للتصوف يُعَوّل عليه عند كل العلماء وفى مختلف العصور .

وانما لكل (انسان) رؤيته الخاصة التى يرى بها التصوف فيطلق تعريفه للتصوف من هذا المنطلق ...

واذا كنا قد فقدنا القدرة على التعزيف (بالحدّ) هل يمكننا تعريف

التصوف (بالرسم) كما يقول المناطقة . بحيث اذا أشير اليه فُهم المقصود منه بوجه عام ..[1] .

التصوف العام :

هو الصلة الروحية التى تربط الانسان بالله تعالى حسب مناهج تعبدية خارجة عن نطاق التكليف العام انجذابا منه لله تعالى : فيكثر من الطاعات ويزداد تخلقا بالأخلاق الكريمة .

التصوف الاسلامى :-

أما التصوف فى العقيدة الاسلامية . بداية فإننا لا نعرف طريقا الى الله تعالى .. لم يوضحه لنا (الوحى) . فما كان من الوحى . فهو طريقنا ومالم يكن من الوحى . فلا نعرفه . اذ الطريق الى الله تعالى قد تكفل ببيانه الوحى المفصل فى القرآن الكريم والسنة النبوية .

ولم يرد فى (الوحى) كلمة (التصوف) . وان كان قد وردت حقيقة الصلة الروحية بين الله والانسان . ولكن تحت اسم آخر ..

وقد تعلمنا من علمائنا : أنه (لامشاحّة فى الاصطلاح) . أى : أنه لايهم وصف الحقيقة الواحدة بأى اسم . أو أى مصطلح .. فمادامت الحقيقة ثابتة فى ظل أى (مصطلح) فلا اعتبار للاطلاق . ولكن المعتبر فى الفكر الاسلامى هو : الحقيقة أى المطلق عليه ...

ولكن رغم هذا : فاننا لانرى هذا الرأى منطبقا هنا . لأن عبارة (لامشاحة في الاصطلاح) وهى صادقة .. انما تكون عندما يكون الموقف هو : المقارنة بين (مصطلح) و (مصطلح) وهذان المصطلحان من وضع العلماء .. أما إذا كانت القضية مقارنة مصطلح من وضع علماء البشر .

---

(١) يقول الدكتور قاسم (ان لم يكن تعريف التصوف غير ممكن . فلا أقل من أن نقول : ان تعريفه صعب عسير) .

راجع ص ٢٦٩ من كتابه (تاريخ التصوف فى الاسلام) .

بمصطلح آخر من وضع (الوحى) . فان الأمر يختلف ، وعلى ذلك : فاننا نرى . أنه مادام هناك (التوقيف الشرعى) على أى استعمال اصطلاحى . أو تسمية لفكرة أو حقيقة فانه لايجوز لنا أن نعدل عن تسمية الشرع إلى تسمية أخرى . وبذلك يكون (التصوف الاسلامى) هو : (الاحسان) وهو الذى جاء به (الوحى) فالاحسان هو : (ان تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فهو يراك) .

وهذا (الاحسان) . هو (التصوف الاسلامى) . عند من يشدّه لفظ (التصوف) ولكننا ننبهه الى أنه (هاجرُ) لاستعمال (التسمية) التى جاء بها الوحى المنزل على سيدنا محمد ﷺ .. وكفى بهجر (السنة إثماً) .. فى مقام السعى نحو (الله) تعالى .

مبحث
كيف يعرف العارف

الانسان لايستطيع ان يعيش وجوده منذ مولده . الا اذا كان على صلة بما يحيطه ومايدركه من معارف وعلوم وشخوص . وفى سبيل تحصيل هذه (الصلة) ينشط الانسان وتبدو حركته واضحة لادراك هذه (الصلة) .

وهذه الصلة هى ماتعرف عند المتخصصين باسم (المعرفة) ، والانسان منذ أن يولد من بطن أمه لايدرك عن (المعرفة) شيئا . فينشط هو أو ينشط وجدانه وفطرته . ليوجد العلاقات بين الجزئيات ليتوصل الى معنى (كلّى) .. حيث قال تعالى :

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا) وقال تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) .

واذا كان الانسان صفحة بيضاء تنقش عليها المعارف التى يسعى لتحصيلها ويكتسبها من معايشته للكون والحياة فانه يمكننا أن نحصر الوسائل التى يتوصل بها الانسان الى (المعرفة) حسبما لوحظت فى التراث الانسانى عند جميع الاتجاهات الثقافية . بحيث لانجد (معرفة) تخرج عن هذا الحصر المعرفى .

وسائل المعرفة الانسانية :

اذا سألنا أنفسنا من أين يتحصل الانسان على معارفه .. ؟ .. أو بمعنى أدق : ماهى الوسائل أو الطرق التى يعرف بها الانسان مايحيط به .. ؟ ..

فاننا نجدها في الأمور الآتية :-

أولا : المعرفة الْوَحْيِيَّة :

ونعنى بها المعرفة التى يتحصل عليها الانسان بطريق الوحى الآلهى الذى يتنزل على الأنبياء والرسل . اذ أن القضايا التى يثيرها (الوحى) تمثل لدى

الانسان (معارف) ماكان يمكنه أن يبلغها بنفسه . لولا معاونة الوحى له على تحصيلها ..

ولنا أن نتصور : إنسانا يجلس فى بيته لايدرى من أمر السماء . ولايعرف عنها شيئا .. فيدخل عليه : انسان آخر . فيخبره بما (عرفه) من أمر نبى الله محمد ﷺ . ويقول له : هل [عرفت ماجاء به رسول الله . ؟ . ثم يبدأ فى تعريف من] (لايعرف) بقضايا (معرفية) . اختص (بمعرفتها) الوحى . مثل : وجود الله ووحدانيته والصلاة وكيفيتها والزكاة والصوم . والاخلاق . ومعرفة تحريم الخمر والربا والزنا .. الخ . فهذه المعارف كلها .. كان يمكن أن تظل (خافية) على الناس لولا نزول الوحى . وهذا هو معنى (البلاغ) فى رسالات الرسل . يقول الله تعالى : (ياأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته ..) . فالتبليغ هو : توصيل المعارف الآلهية للناس .

وهذا مانقصده من معنى (المعرفة الوحيّة) . والتى يمكن تعريفها بأنها :

معرفة القضايا التى ترد عن طريق (الوحى) الآلهى والتى تدخل فى اختصاصه . ولايمكن ان تأتينا الا من هذا الطريق ..[1]

أداة المعرفة الوحيّة :

هذه المعرفة كغيرها من المعارف . تعتمد على (أداة) معنية توصيلها الى الناس .

فما هى هذه الأداة هنا .. ؟ ..

أداة هذه المعرفة هى : رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم . فهم الذين يوصلون هذه (المعرفة) . والأداة هى (طريق التوصيل) . وبدونهم ينقطع التوصيل لهذه (المعرفة) .

(١) لحظ علماء الاسلام . تفرد هذه (المعرفة) بخصائص معينة . وأنها تختص بميدان لاتنازع فيه . فخصروها فى إطار واحد اطلقوا عليه : (السمعيات) .

منبع المعرفة الوحيية :

وإذا كان (الرسل) هم (أداة) هذه (المعرفة) فان (المنبع) الذى منه تنشأ وتبدأ هو (وحى الله) تعالى . فالرسول يتولى (نقلها) من (منبعها) الى الناس .

مصدر الثقة بهذه المعرفة الوحيية ؟

واذا عرفنا الأداة والمنبع .. فما هو : الثقة بالمعرفة الوحيّية .. .. كيف يتأكد (العارف) من صدق هذه المعرفة .. ؟ ونحن نؤكد هنا :

أن مصدر الثقة هنا ينبع من الثقة فى (سلامة) الأداة .. فطالما أنه قام الدليل عند الانسان على أن (أداة) التوصيل : صادقة . وأنها تستقبل من (المنبع) الأصيل .. استقرت لديه الثقة بهذه المعرفة .

وهنا تقوم الثقة فى المعرفة الوحيية على : الثقة صدق رسل الله واستحالة الكذب عليهم . وثبوت (العصمة) للأنبياء والرسل . وان توارد (المعجزات) فى هذا المجال تمثل توارد (الأدلة) على (مدلول) واحد : هو : الثقة فى صدق الأنبياء والرسل .. وهم (أداة) هذه المعرفة وبذلك يظهر لنا : أهمية هذا المصدر فى (معرفة) الانسان وكيف أنه يمثل : وسيلة هامة معتبرة . لها أداتها الخاصة ومنبعها الخاص . ومصدر الثقة : الفريد المتميز ..

تقييم : نلاحظ أن (الأداة) هنا تغاير (المنبع) وأنهما يوثقان بمعنى (خارج) عنهما .. وهذه (الروافد) تجعل (المعرفة) عامة كلية : موثوقاً بها ..

ثانيا : المعرفة الحسية :

هذه هى أولى الوسائل التى يتخذها الانسان مصدراً لمعرفته منذ نعومة أظفاره .[1]

---

(١) وقد أخرناها فى الذكر .. تشريفا لمصدر (الوحى) .

وهي المعرفة التي تعتمد على (حواس) الانسان الظاهرة. من: سمع وبصر ولمس.. الخ..

فالمعرفة الحسية. وسيلتها: الحواس الخمس وما تنقله للانسان من مدركات خارجية. يضيف بها الى معارفه (معرفة).

أداة المعرفة الحسية:

تعتمد المعرفة الحسية في الوصول الى الانسان على (أداة) توصيلها. هي هنا: (الحواس) الخمس الظاهرة. فالسمع يمثل: أداة لجانب هام من المعرفة الحسية. وكذلك: البصر.. وكل هذه (الأدوات) يطلق عليها رغم تفرد كل (أداة) بمنهج ومنشط أنها (أداة) المعرفة الحسية.

منابع المعرفة الحسية:

والمعرفة الحسية تنبع من كل (الموجودات) سواء أكانت موجودات: تُرى بالبصر كالجواهر والاعراض أو موجودات: تُسمع. كالأصوات أو تُشم: كالروائح. أو تذوق كالمطعومات. والتي تحس وترى وتشم أيضا.. وهذا يوضح لنا: مدى الاشتراك في هذه الأدوات. وأن حصرها في (أداة) الحس باطلاق كان انبثاقا من هذا التداخل. أو التمازج وان كان لايعني: أنه توجد (أداة) أخرى.. مثلما نلاحظه مع: البصر والسمع.. فلا يتداخلا ولا يتمازجا.. كالتذوق المطعوم.

فالعالم المحسوس المشاهد المكون من: جواهر وأعراض هو (منبع) المعرفة الحسية.

مصدر الثقة في المعرفة الحسية:

وينبغي ان نعلم أن مصدر الثقة في (المعرفة الحسية) يقينيٌّ. لأن (المشاهدة) طريق (البداهة).. فمن شاهد (الشمس) طالعة بنظره. (عرف) على الحقيقة أن الشمس طالعة وهذه الثقة منه بهذه المعرفة أتته

من طريق (البداهة) بحيث لو نوزع فيما يحسّه . لما استنام لمن ينازعه . وحينئذ يكون لقول علماء المناهج (بداهة الحس) معنى :

تقييم :

وجدنا في المعرفة الحسية . كيف اختلف (المنبع) عن (الأداة) . وكيف ربطهما (بداهة الحس) برباط الثقة . وهو أمر (خارج) معتبر في العموم والاطلاق والاستقراء .

ثالثا : المعرفة العقلية :

من وسائل المعرفة الانسانية : المعرفة التى تأتيه عن طريق العقل . وأولى مراحل المعرفة العقلية هى (التصور) وهو معنى منتزع من (الحس) فيضاف اليه ويحذف مايخالفه من (تصورات) أو ما يماثله من : (تصورات) حتى يصل الانسان من خلال هذه العملية العقلية الى (معنى) ليس موجودا في (الحس) باطلاق .. وليس بعيدا باطلاق .. وانما هو : منتزع بطريق (التجريد) التصورى . من عالم المشاهدة . وهذا الانتزاع يمثل معنى (كليا) .. مستقره (العقل) الانسانى . الذى هو (ثمرة) من (ثمرته) .

فالمعرفة العقلية : هى التى يتحصل عليها الانسان بطريق العقل وحده .[1]

---

(١) عندما قال (جون لوك) (ان العقل ليس فيه شيء لم يمر بالحس أولا) .. جاء بعده (ليبنتز) فأضاف الى عبارة (لوك) جملة تقول : (الا العقل نفسه) فكانت هذه الاضافة التعبير الواضح لفهم حقيقة المعرفة الانسانية فهماً خالصاً . حيث اعادت للعقل مكانته . وهيمنته في ميدانه وخلّصته من المحاولات التى استهدفت (تنحية) العقل عن منهجه في الاستدلال .

راجع ص ٢٩٦ من ك (أسس الفلسفة) للدكتور توفيق الطويل الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨م .

أداة المعرفة العقلية :-

وأداة المعرفة العقلية . هى (العقل) نفسه فهو الذى ينتزعها من (التصورات) ثم يُجليها (قضايا) مجردة . قد نضجت واختمرت فيه .

منبع المعرفة العقلية :-

ومنبع المعرفة العقلية هو (التصور) العقلى . وهو محكوم - غالبا - بالحس والمشاهدة . فانه لايمكن أن (يرغل) فى الابتعاد عن الحس بصورة واضحة ..[1] فالعقل يستقدم (مادته) من (تصوراته) ويؤلف بينها بطريقة معينة . مستجليا الصدق فيها . حتى يصل فيها الى (حكم) . وهذا الحكم الكلى العقلى هى (المعرفة العقلية) لأنها : نابعة عن دليل ...

مصدر الثقة فى المعرفة العقلية :-

والعقل أودع فيه : نوع من القضايا يتخذها مقياسا لكل عملياته العقلية . وهذه (القضايا) يتفق فيها كل الناس . فى جميع العصور والعقائد . فهى كما يقولون : (قسمة مشتركة بين الناس) وهذه القضايا يطلق عليها (البديهات) . وهى الأمور التى لاتحتاج فى وضوحها ويقينها الى (استدلال) كالواحد نصف الاثنين . ولزوم الزوجية للأربعة . وكون الابن أصغر من أبيه . وان السكون والحركة لايجتمعان سويا ولايرتفعان سويا .. الخ ..

وهذه البديهات : صدْقُها يقينى .. والعقل فى (تصوراته) واستدلاله . يعتمد عليها . ويحاول أن يتخذها طريقا لمنهجه فى الاستدلال .

---

(١) يكفى فى تصور هذا المعنى أن نذكر كيف اخترع الانسان (الطائرة) و (السيارة) فبالرغم من أن الانسان (اخترعهما) اختراعا على غير (إلْف) فانه لم يستطع الفرار بتصوره عن (الحس) ..

ولذلك جاءت (الطائرة) على هيئة (الطير) المحسوس الذى له أجنحة وذيل .. وجسم ممدود .. الخ ... وأيضا (السيارة) جاءت على شكل (دابة) من ذوات الأربع .. الخ ..

وهذا هو الذى يجعل (الثقة) فى المعرفة العقلية . واضحة . فاعتماد ديكارت فى استدلاله على البديهات هو : مصدر الثقة فى (المعرفة العقلية) .

تقييم :

وضح الآن تخالف عناصر المعرفة العقلية (فالاداة) غير (المنبع) وهما يعتمدان فى الثقة على مصدر (خارج) عنهما . ثابت اليقين . وأصيل الثقة وهو (البديهات) .

وهذا يجعل الاطمئنان فى هذه المعرفة العقلية : مَدْخلاً لليقين العقلى .

رابعا : المعرفة الاشراقية :-

وقفنا على أنواع المعارف الانسانية التى لها مدخل فى حياة الناس . ويعتبرونها مصدراً لعلومهم وفنونهم وعقائدهم ها نحن الآن نبغى توضيح (المعرفة الاشراقية) .. وهذه المعرفة لاترتكز على (الوحى) ولا على (الحس) ولا على (العقل) .. وانما ترتكز على شىء خاص بها .. وهو (الإلهام) . وهذا (الإلهام) يعرّفه (الغزالى) بأنه نور قذفه الله فى قلبه . وذلك النور هو (مفتاح) اكثر المعارف .

ويستدل على هذا بأن الرسول ﷺ سئل عن معنى (الشرح) فى قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) فأجاب صلوات الله وسلامه عليه : (هو نور يقذفه الله فى القلب) .

وهذا النور ينبجس من الجود الآلهى ..[1] .

وبالجملة فالمعرفة الاشراقية تقوم على (الحَدْس) وحده . إذْ يَرى أصحابها : أن المعرفة الحسية لها مجالها الخاص . والمعرفة العقلية لها مجالها الخاص . ولكن وراء هاتين المعرفتين مجال لايمكن ارتياده بهما .. ولكن الارتياد يكون بنوع من (الادراك) يقوم فوق المدركات العامة المتاحة لعامة الناس – الحسية والعقلية – وهو الادراك الاشراقى المؤصل على (الحدْس) .. ويرى الصوفية الذى يستأثرون بهذا النوع من (المعرفة) أن العلم اليقينى لايأتى الا من هذا الطريق – (الحدْس) .

(١) راجع ص ١٣٨ من ك (المنقذ من الضلال) للامام الغزالى .

والحدس[١] يطلق عليه معنى : الذوق والكشف والعيان والوجدان . والحدس - عندهم - يُلْقى في قلب الصوفى إلقاءً . فيذوق معانيه ولايستطيع وصفه والافصاح عنه . وبعضهم يسمّيه (العلم اللدنى) .

وعلى ذلك ظهر لنا أن المعرفة الاشراقية . وسيلة من وسائل المعرفة . لم تُعهد الا في محيط الصوفية فأصلوا عليها علومهم . ومناهج سلوكهم .

فالاشراق والحدس .. مرتبط بالتصوف منذ عهده القديم (الهندى والأفلوطينى) ..

أداة المعرفة الاشراقية :-

واذا كنا نحاول توضيح فكرة (المعرفة االاشراقية) كما يُلَمِّحُ اليها أصحابها . فاننا نسأل :

ماهى أداة هذه المعرفة .. ؟ ..

الحق لانستطيع حصر هذه (الأداة) الا من أقوالهم هم يقولون : انهم يعرفون بطريق (الهام) و (الاشراق) فبدون هذا (الالهام) لايعرفون .. فهذا (الالهام) والحدس : تكون هذه المعرفة . وهو في صدر الانسان وقلبه ..

وهذا مانقصده بمعنى الأداة .. فالحدس يقوم مقام (الحواس) و (العقل) في هذه الوسيلة ..

منبع المعرفة الاشراقية :-

كيف يتحصّل (الصوفى) على هذه المعرفة ... ؟ .. وبمعنى آخر : بعدما رأينا : المعرفة الحسية تنبع من الموجودات والعقلية من التصورات والبدهيات : ممن أين تنبع هذه المعرفة .. ؟ ..

وكيف يتسنى أن يَبْلُغَ الادراكُ الحَدَسِيُّ .. ؟ ..

(١) يلاحظ أنه عندهم يفارق معنى (التخمين) بعد ماصار مصطلحا عندهم . والتفرقة بينهما بصفة عامة : ان صاحب التخمين . يخمن بلا استيثاق بينما (الحدسّى) يحدس باعتقاد اليقين في (حَدَثٍ) ما .

يقولون : ان النفس البشرية لديها استعداد للانسلاخ من بشريتها لتصير (ملائكية) في لمحة من اللمحات ... وبهذه (الملائكية) تتجه الى الأعلى . وتتصل بطريق (الفطرة) به . فتتلقى النفس (المعرفة) بطريق الالهام الآلهي . على سبيل المكاشفة . وهذا العلم اللدنى لايكون الا بارتفاع (حُجب الحس) المرسل بين القلب والملأ الأعلى بطريقة المجاهدة وهذا هو المراد من قول الله تعالى: (والذين جاهدوا فينا لتهدينهم سبلنا) ومن (هذا النبع تفيض المعرفة اليقينية عند الصوفية . وهذا النبع يقوم وراء نطاق الحس ونطاق العقل معا ....)[1].

وهذه المعرفة كما رأينا منبعها . يرتكز داخل الانسان نفسه ..

مصدر الثقة بالمعرفة الاشراقية :

يذكر الصوفية ان (المعرفة الاشراقية) معرفة موثوق بها الإطلاق . (وهذه المعرفة الحدسية يسمونها بالعلم اللدنى . وهى يقينية لايرتقى اليها الشك أبداً . ومن العسير التعبير عن هذا النوع من المعرفة بالألفاظ . ومتى بلغ الصوفى ذلك فقد حقق غايته ..)[2] .

ويقول (الشيرازى) : (أصل القواعد الاشراقية ومأخذها هو الكشف والعَيَان ....) .

ويقول (القيصرى) عن الذوق : (مايجده العالِمُ على سَبيل الوُجدان والكشف لا البرهان والكسب) .

ويقول ابن عربى موضحاً جانب الثقة في (الاشراق) إن من يبنى ايمانه على البراهين والاستدلالات . لايوثق فى ايمانه . لأنه يستمد ذلك من الفكر والنظر .

ويقول ابن عربى لفخر الدين الرازى معاصره [إن العلم الكامل لايجىء من طريق الله رأسا من غير وساطة . وليس من طريق الرواة والاساتذه] .

---

(١) راجع ص ٢٩١ من ك (أسس الفلسفة) للدكتور توفيق الطويل . الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨م .

(٢) راجع ص ٤٥١ من المرجع السابق .

وكان أبو زيد البسطامى (ت ٢٦٠ هـ) يقول لعلماء عصره : (أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتاً عن ميت . وأخذنا علمنا عن الحى الذى لايموت) .

وهكذا تستمد المعرفة الاشراقية الثقة فى يقينها من ذاتها اذ يرتكن فيها فقط لأنها (اشراقية) : اشالت على (البصيرة) ..

تنبيه

لاحظنا أن المعرفة الاشراقية قد اعتمدت على أمور لايمكن (اختبارها ..) فالحدس مفهوم ذاتى للانسان .. اذ لكل انسان (حدسه) الخاص به .. والالهام والذوق .. كلها معانى ذاتية فردية ..

وبذلك يتضح أن (المعرفة الاشراقية) أداة ومنبعا ومنهج استشفاف تخضع لذات الانسان الفرد وحده.. وليست منهجا عاما يصلح لكل الناس . ومن ثم يمكن ان تكون المعرفة الاشراقية . عند (زيد) على هيئة مخصوصة .. وعند (عمرو) على صورة أخرى .. تباينها . أو تشابهها وليس بين أحدهما (المعيار) الذى يمكن أن يزيد به هذا أو ذاك . أو يستوثق به من (صدق) هذا أو (يقين) ذاك ..

انما الأمر فى نهايته فى مجال (النقد والتقييم) يخضع لذوق الفرد وبما ينطق به حسبما يشاء ويخبر ....

فالنفس الانسانية وحدها . فى داخل الانسان الفرد هى التى (تعرف) وتثق وتتيقن .. ولاحاكم عليها سوى نفسها . فهى كما يقال : الحاكم والمحكوم والقاضى والمقضى عليه ..

كما نحب أن ننبه على أن انكارها للمعارف الانسانية الأخرى واهدارها لمعرفة الوحى حتى فى (الجانب الميتافيزيقى) يجعلنا ندهش محاولتها (التفرد) فى ميدان (المعرفة) وحرصها على أن تكون داخل (الفرد) نفسه ..

ويجب أن ندرك أن (المعرفة الاشراقية) بهذا المعنى انما هى فى الحقيقة : عدة معارف اشراقية متعددة متكثرة فليست (منهجا) واحدا ..

وانما عدة (مناهج) .. وليست للبشر والانسانية . وانما هى (للفرد) لكل فرد ..

وان حرص (الاشراقيين) على اهدار ماعداها .. ودعوى أخذ العلم عن (الحى) الذى لايموت .. وأن علماء الاسلام أخذوا العلم عمن يجرى عليه الموت .. انما هى دعوى تقوم على فكرة (السفسطة) فى نطاق الترويج للمعرفة الاشراقية على هذا النحو ...

ويكفينا لادراك (الخطر) فى هذه (الدعوى) أن ندرك أنه يتدرج تحتها كل علوم (النبوة) .. اذ الأنبياء بشر .. وقد (ماتوا) . وقد قال الله تعالى فى حق خاتم الأنبياء محمد ﷺ . (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا . وسيجزى الله الشاكرين) .[1]

---

(١) راجع التفصيل عن كيفية « المعرفة » فى كتابنا : (البعد الرابع فى نظرية المعرفة) .

بحث
المجاهدة الصوفيه

ذكرنا فى مضمار (الاشراق) ان أصحابه يقولون بحجيته بطريق (المجاهدة) . فهى أول درجات (التصوف) .

فما مرادهم : بمعنى المجاهدة .. ؟ .

انهم يقصدون بها : التنقل فى : الاحوال والمقامات .. فما معنى هذا التعبير الذى صار (مصطلحا) صوفيا .

معنى الاحوال والمقامات :[1]

يذكرون ان الوصول إلىّ المرتبة الرفيعة للمتصوفة . لابد أن يكون عن طريق التقدم المنظم المطرد الذى يؤلف (المقامات) المتتالية . والتى تسمح للسالك . بأن يقتاد تأملاته فى نجاح حتى يصل إلى (عتبة) الاتصال المراد[2] .

معنى المقام :

المقام فى اللغة : موضع القيام . وقد يكون (حسّياً) . قال تعالى : (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقد يكون (معنوياً) . قال تعالى : (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) والمراد بالحسى (الحِجْر) وبالمعنوى (مقام الشفاعة فى يوم الفصل) .

المقام فى اصطلاح الصوفية :

يقصد الصوفية من كلمة (المقام) الدلالة على مرحلة من مراحل التعمق

---

(١) يقال : إن أول من قال بالمقامات أو المنظمين لها بالطريق التدريجى هو : (ذو النون المصرى) .

(٢) راجع ص ١٧٣ من ك (التنسك الاسلامى) للدكتور محمد غلاب نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

في العبادة . فهم يقصرونه على الجانب (المعنوى) .

فهو عندهم : (ما يتوصل اليه بنوع تصرف . ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف ..)[1] .

وعند الطوسي : المقام (معناه : مقام العبد بين يدى ربه عز وجل . فيما يقام من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عز وجل ..)[2] .

ومنه الآية الكريمة : (ذلك لمن خاف مقامى . وخاف وعيد) .

والسالك عند الصوفية يجب أن يبدأ بمقام (التوبة) والمقام بذلك : (مكتسب) يسعى اليه الانسان ويحصله ..

معنى الحال :

الحال في اللغة : ما عليه الانسان من خير أو شر ..

وأما الحال عند الصوفية فهو : كل ما يمر به السالك من صفات متغيرة كالخوف والرجاء والحزن والطرب ونحو ذلك .

يقول السراج (معنى الأحوال : فهو ما يحل بالقلب أو تحل به القلوب من صفاء وكدر)[3] .

ويقول القشيرى : الحال (يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب)[4] .

فالحال على هذا المعنى : منحة توهب للانسان بلا سعى أو جهد . ومن سمتها : أنها تنزل بالقلوب ولا تدوم .

الفرق بين المقام والحال :

١ - المقام مكتسب يحصل عليه المجاهدة ... بينما (الحال) يوهب

---

(١) راجع ص ٢٠٣ من ك (التعريفات) للجرجانى .

(٢) راجع ص ٦٥ من ك (اللمع) الطوسى وص ١٧٤ من ك (التنسك الاسلامى) د/ محمد غلاب .

(٣) راجع ص ٦٦ من ك (اللمع) .

(٤) راجع ص ٥٤ من ك (الرسالة) للقشيرى .

ويمنح بلا اكتساب .

٢ - المقام يدوم ويبقى عند الأخذ بأسباب بقائه .

اما (الحال) فلا يبقى ولا يدوم . ولا يملك الانسان الابقاء عليه . أو استدامته .

٣ - المقام قد يرسخ ويصبح (ملكة) فصاحبه (مُمَكَّن) فى مقامه[1] والحال . لا يعرف هذا الرسوخ أو الثبات فصاحبه (مترقٍ) فى حاله .

ولذلك قيل : الأحوال تأتى من عين الجود .. والمقامات تحصل ببذل المجهود .

المقام من الحال :

يرى بعض الصوفية : أنه لا يمكننا الفصل التام بين مفهوم المقام والحال .. اذ أن (الحال) كان فى بدايته معنى يطرأ ويزول لا يعرف الثبات والرسوخ والاستقرار . ولكنه عندما تكرر وروده .. وتعدد (مَنْحُهُ) وَهِبَتُهُ .. صار بالتكرار معنى (راسخا) لا يزول . ولذلك قد يثبتِ فيصير (الحال) مقاما فى نهاية الأمر . (راسخا) . مع أن البدء كان (حالا) طارئا زائلا ..

وقد ذكر هذا الرأى (السُّهر وردى) فى كتابه (عوارف المعارف)[2] .

مراتب المقامات :

المقام الأول : (التوبة) :

ويعرفونها بأنها : ندم بالقلب واستغفار باللسان وترك للجوارح واضمار أن لا يعود التائب إلى الذنب .

---

(١) يمكننا مناقشة هذا (التمكين) [illegible] من (مقام) الى (مقام) .

(٢) [illegible] ص ١٢٩ جـ ١ من [illegible] (الأولياء) أبى [illegible] .

ولها خصال عشر [1] : وشروط محددة[2] .

المقام الثانى : (الصبر) :

وهو عندهم مقام شريف . ومكانة الصبر فى الاسلام ظاهرة . وهو شاق على النفس مرير على الطبع الانسانى . صعب عند الذل والضيم (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) الزمر ١٠ .

المقام الثالث : (الرضى) :

وهو عندهم – باب الله الأعظم وجنة الدنيا – ويعنون به : ان يكون قلب العبد ساكنا تحت حكم الله عز وجل[3] .

وهذا المقام يحتوى على (أحوال) .. لأن لأهل الرضى فى الرضى ثلاثة أحوال :

(ا) الحال الأول : حال من يعمل على اسقاط الجزع ليستوى عنده ما يجرى عليه فى حكم الله تعالى .

(ب) الحال الثانية : حال من يذهب عن رؤية رضائه عن الله تعالى . برؤية رضى الله عنه . فلا يثبت لنفسه (قَدَم) فى الرضى . وان استوت عليه الشدة والرخاء والمنع والعطاء .

(جـ) الحال الثالثة : حال من يذهب إلى ما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضى .

---

(١) وخصالها العشر هى : ١ – عدم عصيان الله تعالى . ٢ – عدم الاصرار عند الابتلاء بالمعصية . ٣ – التوبة من المعصية . ٤ – الندم على ماكان . ٥ – عقد النية على الطاعة حتى الموت . ٦ – خوف العقوبة . ٧ – رجاء المغفرة . ٨ – الاعتراف بالذنب – (الاعتراف للبشر يرفضه الاسلام) – ٩ – اعتقاد ان الفعل والترك من الله تعالى وقدرها عليه . ١٠ – المتابعة بالعمل الصالح بغية تكفير الذنوب .

(٢) من الشروط : ان يبتعد عن أهل المعاصى . وعن نفسه التى تعودت المعصية . والاصرار على عدم العودة . ويلقى عن الناس مؤونته ويدع كل مايضطر الى ذنب .

(٣) لايُعَرض (الرضى) على (البلادة) والاستكانة . ففكرة (الرضى) الحقيقى تلهبها فكرة (تأهيل النفس) [illegible] به وترضاه فى دنياها ودينها وتصوفها . [illegible]

المقام الرابع (الزهد) :

والمراد به : الزهد فى الحلال الموجود . اما الحرام والمشبوه فتركه (واجب) .

والزهاد على ثلاثة أصناف : –

(ا) المبتدئون : وهم لا مال ولا ملك لهم . وأيضا لا يتعلقون بشيء من هذه الأمور .

(ب) المتحققون : وهم التاركون لحظوظ النفس المتاحة لهم فى جميع نواحى الحياة . وهو الزهد بالقلب عن : الجاه والسلطان .

(جـ) الزاهدون فى الزهد : وهم الذين يزهدون فى الزهد نفسه . ويوضح هذا الصنف قول الشبلى : (الزهد غفلة لأن الدنيا : لا شيء والزهد فى لا شيء غفلة)

المقام الخامس (الفقر) :

يقول الخواص : الفقر رداء الشرف . ولباس المرسلين وجلباب الصالحين . وتاج المتقين وزين المؤمنين . وغنيمة العارفين . ومنية المريدين وحصن المطيعين وسجن المذنبين .

المقام السادس (الورع) :

وهو ترك (الشبهات) تورعا وخشية لله تعالى . والشبهات هى : ما بين الحلال والحرام ومنه : التورع عما يرنو اليه القلب . ويجرى فى الصدر . ومنه : الورع الشغل بغير الله تعالى بالاطلاق[1] .

مراتب الأحوال :

من الأحوال التى يعتبرها الصوفية :

١ – المراقبة : ويقصدون مراقبة الله تعالى فى السر والعلانية .

٢ – القرب : وسبيله الطاعة وصدق العبودية .

٣ – الحب والمحبة : وطريقه الوجد والمناجاة والأنس بالنعم الآلهية .

---

(١) راجع ص ١٧٩ وماقبلها من ك (التنسك الاسلامى) د/ محمد غلاب .

٤ - الشوق : وقوامه الشوق إلى لقاء الله تعالى .

٥ - الأنس : ومعناه : الاعتماد على الله تعالى والسكون اليه . والاستعانة به .

ولكل حال من هذه (الأحوال) مراتب و (أحوال)[1] .

---

(١) راجع التفصيل ص ١٨٢ وماقبلها من المرجع السابق .

مبحث
قضايا يرفضها الاسلام

ان منهج النقد العلمى يدلنا على أن الباحث يجدر به عندما يعرض لأحد المذاهب . أو احدى القضايا .. أن يتسلح بالحيدة العلمية فلا يجذب بعامل من عوامل النفس البشرية . بعدا . أو قربا .. حبا . أو بغضا ... فان من طبيعة النفس انها اذا أحبت : مدحت .. واذا قَلَتْ : قَدَحَت .. وقد وصفها حكيم عربى فقال :

وعيـــن الـــرضى عـــن كـــل عـــيب كليلـــة
كمـــا أن عيـــن البـــغض تبـــدى المساوئـــا]

وقد لاحظنا أن أغلب المشكلات يستعر فيها الناس لا بدافع البحث عن الصواب والحق .. ولكنه الاستعار الذى بين من يحب . وبين من لا يحب .

ولذلك : فاننا سننهج هنا منهجا خاصا بدافع نشدان (الحيدة) العلمية . فنعرض بعض القضايا . التى يرفضها الاسلام . لأنها تصادم الوحى .. وتكذب النصوص الآلهية . وتقضى على كثير من الأمور التى عُلِمَت من الدين بالضرورة .. وهذه القضايا . بعد عرضها .. سيظهر حكم الاسلام فيها وفى معتقدها .. فما بالنا : بمن يدعو اليها ويسعى لنشرها وترويجها . ويتهم من لا يعتقدها .. بتهم غليظة ....

فاذا ما تم لنا ذلك - باختصار الواجز - أدركنا الآتى : -

(ا) حكم الاسلام فى هذه القضايا .

(ب) الحكم على مَنْ يقول ويروج لهذه القضايا .

(جـ) امكانية نقد (النظريات) التى ترد على ألسنة بعض المسلمين على معنى : اذا وجدنا احدى هذه القضايا تمثل إهاب هذه (النظرية) . حكمنا ببطلان . النظرية وبطلان مذهب صاحبها .. وكان حكمنا هنا - فى الحقيقة - نابعا من منهج الحق .. لأننا لا ننظر - عندئذ - فى شخص

القائل ... ولكن النظرة إلى ذات المذهب ومنطوقه .. بوعى تحليلى .

ومن هنا سنعرض لبعض القضايا التى عرفها (المسلمون) من خلال نشاط رجال (المتصوفة) بحيث نستطيع أن نقول : لولا الصوفية فى المحيط الاسلامى . ما وجدنا هذه القضايا ومثلها .. وقد تكون هذه القضايا .. معروفة قبل النشاط التصوفى .. ولكنه : اما أنها كانت فى (بيئات) يقاوم ثقافتها المسلمون .. واما أنها كانت عند البعض الذى يتحصن منه المسلمون . ويعتبره خارجا ..

ولكن ما نعنيه هنا : ظهور هذه القضايا .. عند ظاهرى الصلاح والتدين .. والذين استطاعوا أن يحتلوا مكانة (عالية) فى نفوس (عامة) المسلمين ..

وسيكون عرضنا من منطلق التعريف المناسب لأهم هذه القضايا .

أولا : وحدة الوجود :

تاريخها :

ظهرت (وحدة الوجود) عند قدماء الهنود تمثل الركيزة الاساسية للديانة (البرهمية) و (البوذية) .. بحيث لو حاولنا نزع مذهب (وحدة الوجود) من هذه الديانة الهندية .. لوجدناها قد تلاشت .. وزالت من أساسها .. بما ينبيء أنها قد تأسست عليها وتأصلت ..

تصويرها :

يعنى أصحاب (وحدة الوجود) بهذا المعنى : أن (الوجود) شيء واحد . وأن (الآله) هو الموجود الحقيقى . وما عداه : رؤى غير حقيقية .. والآله – براهما عند الهنود – موجود فى كل مكان على سبيل (الظرفية) . فهو فى كل (الوجود) . ولذلك فجميع الأشياء المادية الموجودة فى هذا (العالم) تعتبر أشياء (الهيه) ويقولون : ان (الآله) جعل نفسه : أرضا وماء وأشجارا . يستقر عليها الحيوان . ويتغذى .. ويتناسل .. الخ .

ويحكى البيرونى (ت ٤٤٠ هـ) مذهب الهند فى (وحدة الوجود) فيقول : (ومذاهبهم وان كثرت . فان قطبها ما عليها البراهمة . وقد رشحوا لحفظه واقامته . وهو الذى نحكيه . ونقول : انهم يذهبون فى الموجود إلى أنه شيء واحد .... فان - باسديو - يقول فى الكتاب المعروف - بكتيا - : أما عند التحقيق فجميع الأشياء آلهية . لأن (بشن) - الآله - جعل نفسه أرضا ليستقر الحيوان عليها . وجعله ماء ليغذيهم وجعله نارا وريحا لينميهم وينشئهم وجعله قلبا لكل واحد منهم) .[1] .

وبذلك يظهران الديانة البرهمية الهندية ترى :

عدم انفصال هذا العالم عن موجده . فالعالم الموجود . والآله الموجد : شيء واحد .

وهذه الصورة (الواحدية) هى مما يطلق عليها وحدة الوجود .

نقد وحدة الوجود :

(ا) رأينا كيف قامت هذه الفكرة على دعوى (التسوية) بين : (الله والعالم) . وأنه ليس فى العالم (وجودان) . بل هو : وجود واحد . فالله عندهم هو العالم . والعالم هو الله . فاذا علمنا ان العالم يحتوى على : البشر والبقر .. فانه يمكننا ان نتصور ما فى هذه الدعوى من فساد وبطلان . فكل (انسان) هو (الآله) عند مذهب (وحدة الوجود) .

(ب) وحدة الوجود ترى الوجود : عدماً . وجميع الموجودات ليس موجودة وانما هى معدومة . وما يمكن قوله فيها انها (مُتَجلّيات) وصور للوجود الحقيقى الواحد . وهو : وجود الله .

ومذهب وحدة الوجود على هذا النحو - لو نظرنا اليه بمعيار العقل والعقائد . لوجدناه : مذهبا باطلاً فاسداً . فالعقل لا يستسيغ اطلاقا : أن

---

(١) راجع ص ٣٠ من ك (فى تحقيق ما للهند من مقولة) لأبى الريحان البيرونى طبعة حيدر آباد . بالهند .

الشيئين : شيء واحد . أعني : أن الاثنين واحد ، كما لا يستسيغ : انكار الموجودات المادية المحسوسة ..

والعقائد الدينية السماوية : قامت على فكرة : وجود سامي (ليس كمثله شيء) .. ووجود (مادى) مخلوق .. وعليه : فإن فكرة تدعو إلى (التسوية) فكرة : تصادم العقيدة الاسلامية ..[1]

ثانياً : الحلول :

يبدو معنى (الحلول) ومعنى (وحدة الوجود) عند بعض الباحثين (متداخلا) . ولكن الأمر – عندنا – ليس بهذا التصور :

فان الحلول – عند أصحابه – معناه : امتزاج بين الله والعالم أو جزء منه . مع (بقاء) عنصر كل الطرفين على حالته الأولى . على معنى : أن الحلولية عندما قالوا بحلول (الآله) فى (البقرة) . فالآله عندهم (حال) فى البقرة . والبقرة مازالت (هى هى) بقرة تحلب . وتؤدى وظيفتها .

وعلى ذلك يكون الحلول : وجود بجوار وجود ..

اما اذا كان (الحلول) فوق (الامتزاج) فانه يتحول إلى : (وحدة) فى الوجود . وهذه الوحدة لا تعبر عن (الامتزاج) وانما تعنى أن الله وحده هو الموجود . وما سواه عدم . ويطلق على هذا (وحدة الوجود) .

وعلى ذلك تكون وحدة الوجود : عدم بجوار وجود[2] .

---

(١) حاول بعض الباحثين المعاصرين فى مضمار الدفاع عن بعض الصوفية فى (وحدة الوجود) بالتفرقة بين : وحدة الموجود ووحدة الموجود وخلصوا إلى أن الباطل : وحدة الموجود .. الخ .. ونحن لانقر هذا المنهج . ونعتبره : تسامحا فى غير حق المتسامح . فالمجال حقوق الله فى رفض التسوية بينه وبين المخلوقات .

راجع مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود على كتاب (المنقذ من الضلال) للامام الغزالى .

(٢) الفرق بين الحلول عند الهنود عند الصوفية أن الحلول الهندى يجعلونه : عاما فى كل الكائنات . بينما المتصوفة يقصرون الحلول على (الاشخاص) فقط .

راجع ص ٢١٢ جـ ط من ك (نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام) للدكتور على سامى النشار . الطبعة السابعة .

نقد الحلول :

قام الدليل على بطلان (مشابهة الله تعالى بالحوادث) .. والاسلام يرفض حلول الله تعالى على أى صورة . أو أى نحو كان[1] وهو اعتقاد باطل يصادم ما نزل على محمد ﷺ .

ثالثاً : الاتحاد :

وقفنا على معنى (وحدة الوجود) .. وعلى معنى (الحلول) .. فما المراد بمعنى الاتحاد ... ؟ ..

الاتحاد صار مصطلحا عند أصحابه . ويعنون به : اتحاد الآله مع العالم . بحيث يصير الاثنان : شيئا واحدا . ولكنه يفترق عند هذه النقطة عن (وحدة الوجود) .. بكونه لا يحتوى على (تلاشئ) كِلاَ العنصرين . فيبقى العالم مع الآله أو بمعنى أدق : يبقى (المتَّحِد) مع (المتَّحَد معه) .

واذا كنا قد قلنا فى بيان وحدة الوجود : أنها : عدم بجوار وجود .

واذا قلنا عن (الحلول) انه : وجود بجوار وجود .

فاننا هنا نقول عن (الاتحاد) انه (وجود مع وجود)[2] .

نقد الاتحاد :

يكفينا أن نعلم أن اعتقاد (اتحاد) الله تعالى مع المخلوقات يصادم العقيدة الاسلامية .. وكون (الآله) (متحد) مع الكائنات وهى كثيرة متنوعة .. يجعل فكرة (الألوهية) فكرة (وثنية) .. والاسلام برىء من هذه العقائد الفاسدة .

---

(١) راجع تفصيل الاستدلال على بطلان (الحلول) فى صوره (الثمانية) ص ٦٩ جـ ٢ من ك (شرح المقاصد) وبحث (الحلول والاتحاد) رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة كلية اصول الدين بالقاهرة للدكتور/ ابراهيم حربية .

(٢) فهم البعض أن (وحدة الوجود والاتحاد والحلول) بينهما رابط جامع وأنها [illegible] على فكرة واحدة .

راجع التفصيل ص ١٦٣ جـ ٤ من ك (ظهر الاسلام) للدكتور احمد أمين .

رابعا : الفناء :

تعتبر فكرة (الفناء) مرحلة متطورة عند أصحاب العقائد الوثنية فان (الاتحاد) يظل يتطور بصاحبه إلى أن يصل إلى (وحدة) .. ولكنها ليست (وحدة الوجود) العام .. ولكنها (وحدة وجود جزئية) . أعنى : وحدة وجود الشخص المعيّن مع (الله) بطريق هو (الفناء) .

وعنى ذلك : فانه بعد ما كان (الآله) ساع إلى الانسان بالاتحاد .. يصير الانسان هو الذى يسعى نحو (الآله) بالفناء .

ففكرة (الاتحاد) : فكرة هابطة .. بينما فكرة (الفناء) فكرة صاعدة .. وهما فى (الهبوط والصعود) يدوران فى مجرى نهر (وحدة الوجود) .

وبلوغ الفناء (حالة) كانت تعرف عندهم باسم (النرقانا) أى : الانطلاق . وعرفت فى العقيدة المسيحية باسم (الخلاص) وعرفت عند من يقول بها من المسلمين باسم (الفناء) .

وكل هذه الاسماء بمعنى واحد . يصوره قولهم :

(من لم يرغب فى شىء ولله يرغب .. وتحرر من رق الأهواء . واطمأنت نفسه فانه لا يعاد إلى حواسه . ويتحد بالبراهما فيصير هو . ويصبح الفانى باقيا)[1] .

نقد الفناء :

الفناء من الأمور التى لم ترد فى كتاب الله ولا سنته . ولم يمتدح بها الله تعالى أحدا من عباده .. فهى فكرة هندية قديمة وقد أسماها (بوذا) باسم (النرقانا) ..

وهى فى جملتها تصادم عقيدة الاسلام . الذى خلى من مفهوم الفناء هذا .. فلم يؤثر (فناء) عن الأنبياء والأولياء والصحابة والتابعين ومكانتهم فى (التعبد) لله تعالى معلومة . وأرواحهم كانت تفهم معانى الايمان . وفيهم : المبشرون بالجنة وغيرهم .

---

(١) راجع التفصيل ص ٦٦ من ك (أديان الهند) للدكتور احمد شلبى .

ومما يؤسفنا أنه عندما نقلت فكرة (الفناء) إلى المحيط الاسلامى وجدنا من ينكرها – ان قبل الاصطلاح – على الصورة الهندية (النرفانا) مثلما لاحظناه عند أبى بكر الكلاباذى فى تعريفه للفناء حيث يقول : (هو أن يفنى الشخص عن الحظوظ . فلا يكون له فى شىء حظ . ويسقط عنه التمييز شغلا بما فنى به)[1] .

ويقصد بمعنى الفناء : التسامى عند الشهوات والرغبات الدنيوية ويتجه إلى الله تعالى لا يرى سواه . فلا يشعر بشواغل المادة حوله وصوارفها . وهذا منه وهو فى ادراكه ووجوده الاجتماعى . ووضوح مدركاته البشرية فى شخصه . وقمة الفناء – على هذا المعنى – أن يكون (التعبد) لله تعالى . بغاية (الحب) . وبعيد عن مفهوم (الثواب والعقاب) .

أما الفناء عن التمييز بين : الأمر والنهى والمعصية والطاعة فلا يقول به الاكُلّ (ملحد) فاجر معتوه . كما يذكر الكلاباذى الذى كنا نرجوه :

أن لا يعتبر ما اعتبره من مصطلح (الفناء الحق) الذى هو بمعنى التسامى .. حيث يفتح الباب أمام الشبهات . ونحن لا حاجة بنا إلى (مصطلح) وافد . ضرره أكثر من نفعه . خاصة ومعنى (التسامى) معبر عنه بطرق أخرى فى (الوحى) ...

فالتسامى بمعنى – ذهاب الصفات الشهوية البشرية والتحلى بالفضائل الانسانية . يطلق عليه : الايثار والتسامى والفلاح وقد اعتبره القرآن الكريم فى قوله (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) .

ومن هذا المنطلق لم نفهم مراد الامام (ابن تيمية) من تقسيمه (الفناء) عند الصوفية إلى :

١ – فناء المجانين . وهذا باطل عنده .

٢ – فناء المصعوقين . ويجوز تأويل غامض القول عند هؤلاء .

٣ – فناء الصحو . وهو ما يكون والانسان فى حالته الطبيعية .

---

(١) راجع ص ٩٢ من ك (التعرف لمذهب أهل التصوف) .

وهو عند الأنبياء وكثير من الصحابة . وصحوهم نابع من قوة وكمال ايمانهم[1] .

وما نحسب أننا بحاجة إلى (تأويل) . لأقوال (مصعوقين) اذ التأويل له قواعد عند (أهل السنة) وعند (السلف) وكليهما متفق على أنه يكون حول (النصوص) العقائدية ..

تقييم عام :

لاحظنا مدى وثاقة الصلة بين (الفناء - الاتحاد - الحلول - وحدة الوجود) .

وحسبما يبغيه أصحاب هذه الأفكار . وعلى أى (صورة) يريدون فاننا نجد (الذات الإلهية) قد اختلطت بالانسان أو اختلط بها الانسان بطريق (التحيز) . وهذا يجعل مخالطة (القديم) للحادث (عقيدة) . مع أن مُخَالِطَ الحادث : حادث . ولا يكون (آلَهًا) على الاطلاق .

فهذه القضايا المترابطة .. تضاد معنى الألوهية الذى قررته العقيدة الاسلامية . فإله الاسلام (ليس كمثله شيء) .

ومعتقد هذه الافكار على النحو الذى وضحناه انما يعتقد قضايا تصادم الاسلام وتأباها أصوله وقواعده ..

ومن هنا فاننا ندهش من دعوى من يدين بهذه المعتقدات أنه يعتقدها : ليعبد من خلالها الله تعالى . وليرقى بها اليه فهى فى دعواه هو : مناهج عبادة .. وهذا باطل وكذب .. اذ لو كان صادقا فى دعوى (العبادة) لنهج منهج الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين .. وكل هذا بارز فى تاريخ الفكر الاسلامى .

---

(١) راجع التفصيل فى بحث (موقف الامام ابن تيمية من التصوف والصوفية) رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة كلية الشريعة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة . للدكتور/ احمد محمد بنانى .

خامساً : تناسخ الأرواح :

تناسخ الأرواح عقيدة هندية قديمة وجدت منذ حوالى (ثلاثين) قرنا قبل الميلاد . وقد اقيم الدين الهندى - ومازال - على التناسخ .

وقد عرف الشهر ستانى التناسخ فقال :

(التناسخ هو أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى مالا نهاية . ويحدث فى كل دور مثلما : يحدث فى - الدور - الأول . والثواب والعقاب فى هذه الدار . لا فى دار أخرى لا عمل فيها . والأعمال التى نحن منها - الآن - انما هى : أجزية علي أعمال سلفت فى الأدوار الماضية) .

ويعرفه الشريف الجرجانى ، فيقول :

(التناسخ : تعلق الروح بالبدن بعد المفارقة من بدن آخر من غير تخلل زمان بين التعلقين للتعشق الذاتى بين الروح والجسد) .

وهكذا نجد أن التناسخ يقصد به : أن الانسان بعد ما يموت تدخل روحه - مرة ثانية - جسداً آخراً . وهذا الجسد الجديد يحدد نوعه .. عمل الانسان في حياته السابقة . فان كان خيرا . دخلت الروح فى جسد (غنى وقوى) وان كان العمل شرا دخلت الروح في جسد (مريض فقير) .. وكلما ارتقت في الاخلاق : ارتقت في الاجساد .. حتى صارت ملائكية وتخلصت من العلائق . ووصلت إلى مرحلة (الفناء) أى (النرقانا) أو (النجاة) من التناسخ . وفى المقابل : كلما سفلت فى الأخلاق انتقلت إلى جسد (أقبح) . وكلما أوغلت فى التسفل أوغلت فى (القبح) حتى تصل إلى (الحيوان الاعجم) .

نقد التناسخ :

عقيدة التناسخ تصادم الاسلام . وتكذب الأنبياء . وتنكرها العقول والفطر .. ومعتقدها لا يعتقد ما أنزل على محمد ﷺ لاحتوائها على ما يأتى : -

١ – ينكر التناسخ : النبوات . فالله والانسان بلا (وحى) بينهما . فلا تحتاج الانسانية التناسخية إلى : نبى او رسول .. بل انها – كما يصف أقدمها – ترى أن ارسال الرسل (عبث) .

٢ – التناسخ ينكر : البعث وحشر الاجساد يوم القيامة والدار الآخرة وما فيها من (جنة ونار) .. كما تقرر نصوص القرآن الكريم . فالبعث التناسخى عبارة عن :

انتقال الروح بعد الموت إلى جسد آخر . لتحيا دورة ثانية . فهذه الدورة الثانية هى (البعث) عندهم . أما الدار الآخرة .والنفخ فى الصور .. والحساب والجنة والنار الذى يقرره القرآن فى مثل قوله تعالى فى البعث (ثم انكم يوم القيامة تبعثون)[١] وقوله عن الجنة (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) ويقول عن النار : (يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم نارا . عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)[٣] .

وكل هذه المعانى ينكرها (التناسخ) :

٣ – التناسخ يقول بقدم العالم . وأبديته . وقد وضح ذلك من تصوير معناه عندهم ..

القرآن الكريم يبطل التناسخ :

يوجد الكثير من النصوص القرآنية التى توضح بطلان التناسخ وكفر معتقده . ومصادمته لعقيدة الاسلام . ولكن الآية التى تعرضت للتناسخ بطريق مباشر . هى قوله تعالى : (... حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب رجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت : كلا . انها كلمة هو قائلها . ومن

---

(١) سورة المؤمنون/١٦ .

(٢) التوبة/ ٧٢ .

(٣) التحريم/ ٦

ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)(1).

وهكذا يوضح القرآن الكريم رأيه فى (المؤمّلين) فى (العودة) إلى الدنيا بعد الموت – التناسخ – بصورة حاسمه تبرز فى قوله (كلا) ومعنى (البرزخ) . فلا رجعة ولا عودة .

ملاحظة :

ونحب ان ننبه هنا إلى العلاقة القوية التى ربطت بين (التناسخ) وبين : الاتحاد والحلول والفناء ووحدة الوجود . اذ لا يمكن ان تستقيم هذه المعانى الا باعتقاد التناسخ عند أرباب هذه العقائد .

سادسا : الحقيقة المحمدية :

يقرر الاسلام فى نصوصه ان محمدا ﷺ بشر . يماثل جميع البشر . ولا يتميز عن الناس . الا باصطفاء الله تعالى بالنبوة . يقول الله تعالى : (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ) .

وقد وَضَّح سلوك النبى ﷺ هذا المعنى . فظل موازيا لهذه النظرة القرآنية . فالنبى يستشير أصحابه . ويعاتَب ... بل يحرص القرآن الكريم على تنبيه المسلمين : أنّ محمدا سيجرى عليه لبشريته – رغم نبوته – كل ما يجرى على الناس من نواميس . فيأتى التوجيه القرآنى القائل : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) .

وبذلك يتضح للمسلمين التفرقة الهامة بين مفهوم البشرية ومفهوم النبوة فى شخص (محمد) ﷺ . فقد فرق بين ما هو : فانٍ . وبين ما هو : باقٍ (الوحى) .

فليس لرسول الله ﷺ من (تمّيز) عن البشر الا (الاصطفاء) بالنبوة .. فلا يعلم الغيب . ولا يخلد . وانما يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . صلوات الله وسلامه عليه . وهذه (قمة) الروعة فى النبوة الاسلامية .

---

(١) المؤمنون/ ٩٩ – ١٠٠ .

وعلى ذلك لو رأينا (انجرافا) لهذه الصورة . فاننا يجب أن نعتقد أن هذا (دخيل) علينا . وأنه قد (نقل) الينا . بدافع تكدير (الصفاء) فى العقيدة الاسلامية .

وقد حاول بعض من ينتسب إلى الاسلام نقل عقيدة : (الحقيقة المحمدية) . والتى تسمى ايضا عندهم : (النور المحمدى) .

تصويرها :

يقول اصحاب فكرة (الحقيقة المحمدية) ان محمدا ﷺ . ليس مخلوقا ككل الناس . وانما هو (أزلى) الوجود . وأن أول شىء خلقه الله تعالى هو (الروح المحمدى) أو (النور المحمدى) . وقد ظهر (محمد) . أول ما ظهر فى صورة (آدم) . وظل (محمد) يظهر بعد ذلك فى صورة جميع الأنبياء من بعد آدم .

فالروح المحمدى هو : الروح الآلهى الذى نفخ الله منه فى (آدم) وأن الحقيقة المحمدية هى : مبدأ الحياة ومركزها فى العالم وهى روح كل شىء فى الكون وحياته .. وهى (الواسطة) بين الله وعباده .

نقدها :

وإذا كانت هذه الأزلية للروح . تعنى قدم الأرواح البشرية وقد تقرر فى الاسلام : ان النفس حادثة . وأنه لا قديم سوى الله تعالى .. فأننا نعثر على موطن الخطر .

ودعاة (قدم الأرواح) وتنقلها من بدن إلى بدن . وهو (التناسخ) يريدون ترويج هذه العقائد : فيستغلون اسم نبينا محمد ﷺ . لما له من مكانة عظيمة فى النفوس وحب شديد وتقدير رفيع . فينسبون اليه ما يرجون له الترويج ومعلوم أن النسبة فى الاسلام هى للاسلام نفسه وليست لنبيه . والمسيحية هى التى نسبت إلى (المسيح) ولم تنسب إلى : الدين أو (الله) ..

وتظهر نيتهم وتفضح باعلانهم عن دعواهم التى تفضى ببساطة إلى أمرين :

١ – وجود التناسخ فى اجساد الأنبياء .
٢ – ان النبوة لم تختم بمحمد ﷺ .

فدعواهم تقول :

ان أزلية النور المحمدى الذى ظهر فى صور جميع الأنبياء من آدم إلى عيسى . ثم ظهر فى صورة الرسول (محمد) نفسه . ولكن ظهور (محمد) لم ينته فى نظر دعاة فكرة (الحقيقة المحمدية) بموته عليه الصلاة والسلام . ولكنهم يعتقدون أن محمدا لا يزال (يظهر) فى صورة (الأولياء) الذين يقبسون من نوره . ولذلك يعتبر دعاة (الحقيقة) المحمدية : انهم : خلفاء النبى والله .

ومن هذا الاعتبار عندما أرادوا (أن يصفوا الروح المحمدى وصَفُوا أنفسهم . لشعورهم بأنه حى فعال فيهم ..)[1] .

وقد نقلت هذه الفكرة من العقيدة المسيحية . التى تقول فى (المسيح) مايقربه من (الألوهية) .. فانّه يظهر (الشبه العظيم بين الافكار التى شرحناها ... عن شخصية محمد . وبين مايعرف فى علم اللاهوت المسيحى) .

ونرتضى هنا نقد احد الباحثين لفكرة (الحقيقة المحمدية) التى أصّلت على (التناسخ) الباطل – حيث يردها الى أصلها الدخيل .

فيقول :

(فالنظرية هنا – يعنى الحقيقة المحمدية – تترددبين غُنُوص الثنوية الفارسية . وبخاصة وهى تستخدم فكرة : النور . وبين الأفلاطونية المحدثة . وهى تتكلم عن فكرة : الهباء وبين غنوص المسيحية فى : الكلمة ...)[2] .

وبذلك يتضح لنا أن دعوى : (الحقيقة المحمدية) أريد بها نشر عقائد

---

(١) راجع ص ١٦١ من ك (فى التصوف الاسلامى وتاريخه) تأليف نيكولسون ترجمة أبو العلا عفيفى .

(٢) راجع التفصيل ص ١٦٥ جـ ٢ من ك (نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام) للدكتور على سامى النشار الطبعة السابعة . دار المعارف .

دخيله على الاسلام . مستغلة الاسم المحبب إلى النفوس وهو اسم (محمد ﷺ) ليذهل الناس بجمال الوحى . عن تأمل (صلب) الفكرة . فلا يلتفتون .. وانما يعتقدون ...

سابعاً : عالم الذر :

وهذه الفكرة وجدت عند بعض المسلمين . وقوامها يدعو إلى : اعتقاد قدم الأرواح وأزليتها .. وفكرة القدم . وسبق وجود النفس على البدن فكرة باطلة فى العقيدة الاسلامية . وقد قال بها (أفلاطون) الاغريقى وأقام عليها نظريته فى (المثل) .

تصوير فكرة عالم الذر ؟ .

الذين اخترعوا (عالم الذر) يعنون به : أن الموجودات كانت موجودة قبل خلق هذه الدنيا . وأن (أرواح) بنى آدم وآدم معهم كانت موجودة . ولكنها كانت (تسبح) فى عالم إلٓهى على شكل (ذرات) دقيقة لا تتلبس بأجسام أو أجساد .

ويقولون : ان الله سبحانه وتعالى قد أخذ من هذه الأرواح السابحة فى هذا العالم الذرى : عهده وميثاقه وأشهدهم فيه على (ربوبيته) بذلك تكون (المعرفة) — عندهم فطرية عند النفس الانسانية . التى تعلمها قبل تلبسها بالبدن فى هذه الحياة الدنيا . كما قرر ذكره أفلاطون فى دعوى (التذكر) فى مفهومه عن المعرفة وهذا يصادم القرآن الكريم الذى يقرر أن (المعرفة) مكتسبة كما جاء فى قوله تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) .

نقد فكرة عالم الذر :

نشير إلى أن القرآن الكريم التى تحدث عن : عالم الانس والجن وعالم الملائكة . وعالم الاشجار والطير والحيوان . وكيفية خلق آدم عليه السلام . والجنة والنار .. والصراط والكوثر .. حتى أنه كثيرةً ما سمى بعض (سوره) بأسماء بعض هذه العوالم .

مثل : (الانسان – البقرة – النحل – النمل – الجن – العنكبوت – التين – الناس – القيامة) . بل انه حدثنا عن (هدهد) سليمان و (كلب) الكهف و (ناقة) شعيب .

نقول : هذا القرآن الكريم . لم يحدثنا عن (عالم الذر) على أى صورة كانت . وأيضا : لم يرد الينا فى مجال الحديث الشريف حديثا (متواترا) يثبت به العقائد . يحدثنا فيه رسول الله ﷺ عن (عالم الذر) . إذ جميع (الآثار) التى وردت فى هذا : اما موقوفة . واما ضعيفة واما بها (مطعون فيه) . و لم يسلم فى هذا المجال أثر واحد لم تجد فيه أقلام رجال الجرح والتعديل .

وقد حاول مثبتوا (عالم الذر) الاستدلال عليه بطريق القرآن الكريم فلجأوا إلى قول الله تعالى :

(واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم . وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم .. ؟ .. قالوا : بلى . شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين)[1] .

ومحاولة اثبات (عالم الذر) بهذه الآية الكريمة . محاولة باطلة لا يساعد عليها النص ولا تساندها قواعد اللغة للأمور الآتية :

١ – قوله تعالى (من ظهورهم) بدل من قوله (بنى آدم) فيكون المعنى : واذ أخذ ربك من ظهور بنى آدم . فيبطل دعواهم : حيث كانوا – كما يقولون – بلا ظهور أو أصلاب .

٢ – أخبر القرآن الكريم أن من حكمة هذا (الاشهاد) الا يقولوا : (انما أشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) . ولا يمكن ان يكون هذا القول متحققا فى آدم عليه السلام . سواء كان الأخذ من (آدم) نفسه . أو من (ظهر بنيه) . اذ جميع الشاهدين يقولون : (انما اشرك آباؤنا من قبل) . و لم يكن لآدم (أب) فضلا عن (آباء) . كما أن (آدم) لم يكن من المشركين . فيقطع التسلسل البادى من قولهم (أشرك آباؤنا) .

٣ – الآية القرآنية تؤكد ان هذا العهد والميثاق . أخذ عليهم لاقامة

---

(١) الاعراف/١٢٧

(الحجة) على البشر وقت أخذه بينما يذكر دعاة (عالم الذر) أن العهد أخذ فى (عالم الذر) . حيث لا تكليف بعد ، فكيف يتصور : الالزام بلا تكليف . وكيف يتصور : الالزام الذى نُسى . ومعلوم أن (الحجة) فى الاسلام تقررت بإرسال الرسل . يقول الله تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)..

وبذلك – الاختصار – نستطيع القول بأن فكرة (عالم الذر) ليست مقولة اسلامية . وانما (مقولة) قصد بها التمكين لفكرة : خلق النفوس قبل الابدان . وهى نفس فكرة (تناسخ الأرواح) .

ولعله بانَ لنا الآن . مدى التشابه الشديد بين (عالم الذر) وبين (عالم المثل) عند أفلاطون . فى مجال (الظرفية) وأن كان ثمة فرق فهو فى (العرض) بسبب تغير (العقيدة) فكلاهما : بذكر النفوس المجردة السابحة بجوار الله أو النفس الكلية قبل خلق الأبدان ..[1] .

توجيه آيه الميثاق :

يقول ابن كثير : (قال قائلون من السلف والخلف : ان المراد بهذا الاشهاد انما هو : فطرهم على (التوحيد) . وقد فسر الحسن الآية بذلك ... قالوا – أى السلف والخلف – ولهذا قال « واذ أخذ ربك من بنى آدم . ولم يقل (من آدم) من (ظهورهم) ولم يقل من (ظهره) : ذرياتهم . أى : جعل نسلهم جيلا بعد جيل . وقرنا بعد قرن . كقوله تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض » . وقال : « ويجعلكم خلفاء الأرض » . وقال : « كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » . ثم قال : وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم . قالوا : بلى « أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له : حالا . وقال : والشهادة تارة تكون بالقول . كقوله « قالوا شهدنا على أنفسنا » وتارة تكون : حالا . كقوله تعالى : (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم

(١) يحاول بعض المسلمين المعاصرين اثبات (الذر) من خلال هذه الآية بتأويل لاتسعفه فيه اللغة ولا المنهج الاسلامى العام .

راجع ص ٨٥ من ك (الحياة البرزخية) للدكتور محمود بن الشريف .

بالكفر) أي : حالهم شاهد عليهم بذلك . لا أنهم قائلون ذلك . وكذلك قوله تعالى : « وأنه على ذلك لشهيد » . كما أن السؤال تارة يكون بالمقال . وتارة يكون بالحال . كقوله : « وآتاكم من كل ما سألتموه » .

قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا . : أن جعل هذا الاشهاد حجة عليهم في الاشراك . فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال . لكان كل أحد يذكره . ليكون حجة عليه .

فإن قيل : ان إخبار الرسول ﷺ كاف فى وجوده فالجواب : ان المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل . من هذا وغيره . وهذا جُعل حجة مستقلة عليهم . فدل على : أنه الفطرة التى فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد . ولهذا قال : (أن تقولوا) أى : لئلا تقولوا يوم القيامة ان كنا عن هذا التوحيد غافلين)[1] .

وهذا التوجيه يؤيده قول الرسول ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة ...) .

وبالاجمال بان لنا من الآية الكريمة ما يأتى :

١ – لا وجود لهذا الذى يطلق عليه (عالم الذر) .

٢ – لا دليل فى الآية على وجود النفس قبل خلق البدن ولا دليل فيها على فطرية (المعرفة) .

٣ – ليس فى الآية ما يعضد التناسخية من : خلق النفوس دفعة واحدة . ثم (تهبط) حسب الشوق .

٤ – الاشهاد فى الآية هو (الفطرة) التى أودعت كل نفس بشرية تعاين ملكوت الله بعد مجيئها إلى هذه الحياة . حتى المشركين لا ينكرونها . (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) . وهذه الفطرة التى تستيقظ مع (عقل) البلوغ . هى : مناط التكليف فى الاسلام .

---

(١) راجع ص ٢٦٤ جـ ٢ من ك (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير طبعة حلب – سورية .

مبحث
التصوف الدخيل

وضحنا معنى (المعرفة الاشراقية) بمقارنتها بأنواع المعارف الأخرى .. توطئة لفهم معنى (الإشراق) عندما يصير منهجا فى (التصوف) .

ونحب ان ننبه على علاقة المعرفة الاشراقية بالاشراق الصوفى : فإنها علاقة — من حيث الشكل — ذات وشائج قوية .

لأننا نتصور : أنه لولا فكرة (الاشراق) .. لما أصّل عليها ذلك (بالعرفان) الصوفى . وأيضا : لولا ذلك (العرفان) الصوفى .

لما عاشت فكرة (المعرفة الاشراقية) . فكلاهما يغذى الآخر . وبه يستمد وجوده . وكما يقال : يدوران معا . وجودا وعدما ..

ومن يقل بالتصوف الاشراق : نجده لا يعتبر أى نوع آخر من أنواع المعارف الأخرى . ولا يلتفت إلى (نبع) لمعرفته سوى (نبع) صادر من (وجدانه) وملهم من (ذاته) هو شخصيا فحسب ..

فالاشراق الصوفى كما يوضحه مؤيدوه : لا يخضع لقرآن أو سنة . أو منهج اسلامى . وانما هو (تلفيق) بين العديد من التيارات والعقائد بصورة تدعو للدهشة والانزعاج من دخوله إلى المحيط الاسلامى . فهو لذلك (دخيل) على العقيدة الاسلامية . لم ينبت حول النصوص الاسلامية . أو (منهج) الوحى .

ان الاشراق عندهم منهج يرغبون فيه حتى يحصلوا على فكرة (الآله) فهو يقودهم إلى (التألية) . بطريق لا يرتبط بالحجج المنطقية . أو الأسانيد الفكرية . أو بالقول المقبول المؤصل .

التأليه الأشراق :

واذا كان الاشراقيون يرغبون فى (الآله) .. ؟ ..

فما هو (إله) المتصوف الاشراقى .. ؟ ..

إن آله الأشراقيين لا يثبت بالعقل أو النقل أو جهود العلماء المفكرين أو التأمل فى ملكوت السموات والأرض . وانما : (إله الاشراق) يتجلى فى نفوس المتصوفة عن طريق التجليات (الفردية) الخاصة بكل فرد على حده . فيشعر كل واحد من هؤلاء (الاشراقيين) وحده فقط فى داخل (روحانيته) الشخصية بذلك الوجود النورانى الباهر الذى يشع ويشرق من داخل النفس فيغمرها . فتحس بعد هذا (الغمر) الاشراق بوجود (الآله) داخل النفس عن طريق البصيرة .

وصف الآله الاشراقى :

يصف أحد الاشراقيين آله الاشراقيين هذا فيقول :

(ان آلههم هو « مطلق » الهنود . و « أحد » أفلوطين . و « بَهْر » الحلاج وابن عربى . و « شعور » بَاسْكَال » . القلبى)[1] .

واذا كان هذا هو (إله) الاشراقيين . وكما يظهر لنا أنه (آله) — فى النهاية — من صنع انسان .. والاشراق يرتضى هذا (الصنع) آلها . اما بطريق القناعة بأحد (الآلهة) .. وإما أنه يؤلف بينها فى (مزج) جديد ينتج منها (إلها) من نتاج بصيرة المتصوف نفسه هو (إله الاشراق) .

واذا أردنا أن نتعجل فى نقده . فاننا نقل :

هل لهذا الآله علاقة بالآله الذى عَرفنا به وحى الاسلام . وأُخْبِرْنَا به من محمد ﷺ والذى اخبرنا عنه أنه (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) . وأنه (ليس كمثله شيء) وأن كل ما خطر ببالك فالله سبحانه وتعالى بخلاف ذلك . وأن الانسان من (صنعه) هو سبحانه وتعالى وليس هو من (صنع) الانسان . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وأنه سبحانه وتعالى لو كان يُعرف — كما أراد أن يعرف — بغير طريق (الوحى) .. فلم أرسل الأنبياء والرسل يعرفون الناس به .. ؟ ..

---

(١) راجع ص ٢٠ من ك (التصوف المقارن) للدكتور محمد غلاب .

ان (الآله الاشراق على هذا النحو لا علاقة له : بالله سبحانه وتعالى كما صورته العقيدة الاسلامية فلو تلفظ الاشراقيون بأن لهم (آله) وكان هذا (الآله) على صورة لا تليق بكمال (الله) تعالى .. فإن الاسلام يعتبر هذا التلفظ فى منزلة الشرك والكفر .. فقد جاء القرآن الكريم يوضح أنه اعتبر عبدة الأوثان من المشركين الكافرين لأنعم الله تعالى .. بالرغم من أن القرآن قرر أنهم يعترفون بوجود الله تعالى وأنه خلق السموات والأرض . حيث قال : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ..) .

منهج الوصول الاشراقى :

يوضح الاشراقيون كيف يَصِلُون إلى هذا (الآله الاشراق) فيبادرون باعلان ان هذا النوع من (التأليه) لا يمكن أن يدلل بأحد وسائل المعرفة الانسانية .. وحتى المعرفة التى تكون خارج قدرة الانسان وهى (المعرفة الوحيية) لا يعولون عليها الكثير لأنهم يقرنون بالمعرفة التى لا تخضع لقواعد وقوانين المعارف الانسانية .. ويقصرونها على ما يأتيهم من (داخل) فقط فالاشراق إلهام داخلى ذاتى . يحصل عليه كل واحد منهم . فهو طريقه للمعرفة فقط .. وبذلك يكون لكل (اشراق) معرفته الخاصة . ولا نكاد نقول : نبوته الخاصة ...[1] والذى نريد توضيحه : أن الاشراقيين يقبلون الالهام الذى يرد اليهم بواسطتهم هم . ومن داخل انفسهم هم وليس إلهامهم هذا محصور بحاصر عقلى . أعنى : أنه يمكن احاطته بسور كلى شامل بحيث يصبح قاعدة عامة كما نراه فى (وحى الأنبياء) . حيث يبرز منهج (الرسل) على هيئة تجعله صالحا لكل الناس ..

وبعد هذه المبادرة يذكرون (المنهج) الذى يصلون به الى الآله . فيسوقون [illegible] [illegible] [illegible] . التى هى فى الواقع : منهج التعبير عند كل من

---

(١) يلاحظ أن المتصوفة الاشراقيين كانوا يرون نفسهم فى منزلة تفوق منزلة الأنبياء) . ولذلك نلاحظ مبحث يقول : أيهما أفضل : الأنبياء ام الأولياء ... ؟ .. وهذا كان نتاجاً لدعواهم .. أى : رد فعل لدعواهم عند علماء الكلام ..

(تاهت) عنده الحقيقة . ويحاول ان ينبث بدعوى يخلع عليها ثوب الحقيقة .. فالغموض والإلغاز ... يظهر فى المذاهب والآراء .. عندما يشيع الباطل . وتتوه الحقائق .. والوضوح والافصاح يشخص فى المذاهب والعقائد عندما يكون الحق هو الثابت .. وعلى ذلك نفهم وصف الله تعالى للقرآن الكريم أنه نزل : (بلسان عربى مبين) . والابانة والبيان .. علاقتهما بالوضوح وثيقة .

يقولون : ان الراغب فى (الآله) الاشراقى . لابد أن يطلبه بمنهج (ذل النفس) والتحرر من الشهوات وعبودية الرغبة ...[١]

وبجانب هذا : (أن تتعلق النفس بالملأ الأعلى . وأن تشتاق الى الاندماج فى النور الأقدس[٢] الذى هو على أثر ذلك كفيل بكشف ماوراء الحجب السميكة وأجتياز مابعد الحواجز الصفيقة واضاءة مافى داخل البرازخ الكثيفة من أرواح علوية هبطت[٣] الى تلك الأجسام فغشاها الظلام . وأحاط بها القتام مع مصدرها . فاذا تمت لها هذه البغُية : أصبحت جديرة بتلقى مخاطبة الحق الأعلى يقوله : (وفى إنفسكم أفلا تبصرون)[٤] بعين البصيرة النورانية أو اللطيفة الربانية التى ليست فى حاجة الى الحس لترى . ولا الى الكواكب

---

(١) يلاحظ وضوح فكرة التنسك الهندى المبنى القائم على الزهد والتقشف وهجرة الحياة .. والاسلام برىء من الزهد الذى يرفض الحياة ..

(٢) يلاحظ سيطرة فكرة (النور) على هذا المنهج .. وهو مأخوذ من عقيدة الثنوية التى جعلت للعالم إلهين : آله النور – وآله الظلمة والأول : هو الخير . والثانى هو الشر . وهما فى عراك وصراع ... الى آخر هذه الوثنية ..

(٣) يلاحظ وضوح عقيدة قدم الأرواح وتناسخها . وأنها (هبطت) من عليائها بجوار النفس الكلية .. فتلطخت .. ولذلك فهى تسعى للصعود والفناء مع ماكانت معه وهو (الآله) . وهذه هى عقيدة (تناسخ الأرواح) .

(٤) يلاحظ كيف يحاولون جذب النصوص القرآنية . بطريقة لاتقبل بمعايير الاستشهاد حتى يصورون للعامة أنهم ينهجون النهج القرآنى .. وكيف نصدقهم وقد هجروا (المعرفة الوحيية) .؟ ...

وأفلاكها ومحاورها للتفكر . ولا الى فعل الأسباب[1] لتتدبر ولا الى المنطق لتعقل . ولا الى الفلسفة لتهتدى ولا الى العلم لتسترشد . وانما هى تنغمس فى (بحار) الانوار . وتنغمر فى لجج الابهار .

وهذا المنهج يرفض كل المناهج التى ارتضاها الله سبحانه وتعالى للانسان حتى يعرفه .. فلا يعتمد على التوجيه القرآنى فى قوله تعالى : (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) لأنه يرفض فكرة التفكر فى الملكوت .. وفى مثل قوله تعالى : (أخلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) . وقوله : (أفمن يخلق كمن لا يخلق) لانه يرفض فكرة تدبر (لسببية) وأثرها .

كما يرفض التفكير الإنسانى السليم . وهو ما اصطلح عليه باسم (المنطق) وهو قوام العقل الذى هو مناط (التكليف) . فهم يرفضون بلا (عقل) رغم ان (الله) يحب أن يعرف من (العقلاء) . أما (المجنون) فقد رفع الله عنه (التكليف) . اذ العقل والتكليف : تشريف وتكريم من الله تعالى للانسانية ....

وبالجملة : فالإله الاشراقى ومنهج الوصول اليه .. لا يمكن ان يقبل من : العقل أو النقل الوارد عن (الوحى) المنزل على سيدنا محمد ﷺ .

ولخطورة هذا (المنهج الاشراقى) . وجدنا بعض الاسلاميين يبادرون الى (التصوف الاشراقى) فيحاولون : رأب الصدع فى منهجه . بدعوى إمكان تأصيل التصوف الاشراقى على دعائم فلسفية عقلية ..

ومن هذا المنعطف إنقسم التصوف الدخيل من حيث اعتماده على (الاشراق الخالص) واعتماده على الاشراق المفلسف الى نوعين :

(أ) التصوف الاشراقى .

(ب) التصوف الفلسفى .

(١) راجع ص ٢١ من المرجع السابق .

أولا : **التصوف الاشراقى**

ينبغى أن ندرك أن التصوف فى جميع اتجاهاته التى نرضاها والتى لانرضاها ... لايفهم غرضه وغايته . ولا يتضح سياقه أو قضاياه . الا من خلال سلوك ومذهب ومنهج (فرد) .. فان المحيط الاسلامى . يفاجأ كل (حقبة) من الزمان . برجل يطلع عليه . بمذهب (صوفى) يحدده . ويدعو اليه . وينشىء عباراته ومصطلحاته ... الخ .. ويبدأ المسلمون يزنون هذا (المذهب) الوارد اليهم من خلال هذا (الرجل) . ليقبلوه أو يرفضوه . ومن هنا : فاننا لانستطيع ان نعرض معنى (التصوف) الا من خلال (الرجال)[1] . كصورة سلوكية تطبيقية عملية حتى التصوف الاسلامى . الذى أشرنا – قبلا – الى أنه محكوم بمعيار (الاحسان) المقنن فى عبارة (أن تعبد الله كأنك تراه ...) لا يمكننا أن ندرك مدى الالتزام بمعياره الا من خلال سلوك السالك ..

وكذلك فاننا سنحاول ان نختار بعض النماذج التى اشتهرت فى ميدان التصوف لندل بنوعية مذهبها على حقيقه عقيدتها .. ورائدنا فى ذلك : أن نعرف الرجال بالحق .. لا أن نعرف الحق بالرجال .. وهذه هى الأصالة فى المنهج العلمى الاسلامى ...

رجال التصوف الاشراق :

لن نستطيع فى هذه الدراسة . أن نعرض لكل الرجال . ولكننا سنشير الى (نماذج) . يفى عرضها بالغرض الذى نقف عنده .. متوخين فى العرض : الإكتفاء بالجوانب التى تعنينا فى هذا المضار . وبايجاز ...

(أ) الحسين بن منصور الحلاج :

من هو .. ؟ :

---

(١) لانقصد بالرجال هنا المعنى المتبادر المقابل (للمرأة) .. فإن (رابعة العدوية) امرأة . ويمكننا عرض مذهبها الصوفى لاستخلاص منهجها منه . ولكننا نقصد (الشخص) السالك عموما . رجلا كان أو امرأة .. ونعبر بالغالب الأعم ..

ولد أبو عبد الله الحسين بن منصور الحلاج[1] في (بيضا)[2] حوالى سنة ٢٤٤هـ . وقد تلقى العلم في بدء حياته على يد (سهل بن عبد الله التسترى) .. وقد (نفى) التسترى الى (البصرة) لآرائه التى صادمت الرأى العام . فتبعه (الحلاج) ولازمه حتى سنة (٢٦٢هـ) حيث رحل (الحلاج) الى (بغداد) فتتلمذ على (عمرو بن عثمان المكى) قرابة العامين .. وكان (المكى) يحس بآراء (الحلاج) التى تتعارض مع آرائه .. فافترقا .

وفى سنة ٢٦٤هـ . إلتقى الحلاج بالجنيد . فتأثر به وقلده في ملبسه . حيث ارتدى (البياض) طابع الصوفية آنذاك ..

ثم اتصل الحلاج بابن عطاء واخلص له كثيرا . حتى مات . ثم رحل الى (مكة) للحج . وعاد سنة ٢٨٢هـ . فخاصم (الجنيد) واكثر أعلام صوفية بغداد ..[3] . فتركها الى مدينة (تستر) وظل بها (سنتين) عانى (الحلاج) فيها مقاومة بلغت حد (القسوة) من (صوفية تستر) أيضا .

وقد اشتد النكيرآئين (الحلاج) وصوفية عصره . حتى أطلق عليه (الجنيد) اسم (المدّعى) واسم (رجل المطامع) . وواجه (الحلاج) هذا النزاع . بخلع ملابس الصوفية . وهجر التصوف تماما .. واختلط بالناس (أهل الدنيا .... !) .. حتى يمكنه ارشاد العامة الى مبادئه – على حد تعبير المؤرخين – فوجد الحلاج نفسه بذلك وسط الحياة الاجتماعية بما تزخر من أفكار وثقافة .

---

(١) ولقب بالحلاج – عند المفتونين به – لأنه جلس ذات يوم عند صاحب قطن كثير فقام لقضاء حاجة له . فلما عاد وجد القطن (محلوجا) .
راجع ص ١٠ من ك (أخبار الحلاج) . نشر مكتبة الجندى بمصر .

(٢) المراد هنا (بيضا) فارس .

(٣) يلاحظ أن أول الناقدين الذين رفضوا أراء الحلاج هم : الصوفية فى بغداد فدل هذا على مصادمة الحلاج لمنهج التصوف من خلال نظرة متصوفى بغداد .
راجع ص ١٢٠ من ك (التنسك الاسلامى) للدكتور محمد غلاب .

وبرز هذا فى حياة (الحلاج) : فدرس الفلسفة الاغريقية . وأحب منطق (أرسطو) .. وارتبط بأشهر (ملحد) عرفته الثقافة فى القرون الأسلامية . وهو : الرازى الطبيب . فكانت بينهما روابط قوية .

ورحل (الحلاج) الى (خراسان) و (الأهواز) متنقلا فى رافدهما .. لدعوة الجماهير التى التفت حوله . وأحبته لحديثه عن (الندم) و (الزهد) ... وظل هكذا (خمس سنوات) انتهت برحيله الى (مكة) ثانية . للحج الذى عاد منه الى (بغداد) سنة ٢٩١هـ .

فوجد التصوف فيها يطارده . فرحل الى (خراسان) وبعد وصوله الى (خراسان) .. قرر أن يترك أرض (الاسلام) ويذهب الى أرض (الوثنية) فسافر الى (الهند) . ومنها الى (التركستان) .. وظل يرتحل فيها حتى فيها حتى وصل الى حدود (الصين) . وقد أُحسن استقباله فى هذه البلاد .. حتى لقب فيها : بالشفيع والمطعم ..

. وعاد الحلاج للمرة الثالثة الى مكة .. فأقام بها (سنتين) ثم تركها الى (بغداد) فى سنة ٢٩٦هـ . واستقر (الحلاج) منذ هذا التاريخ فى بغداد نهائيا التى ركز فيها على إعلانه مذهبه (النهائى) على العامة والخاصة . والذى كان يصادم عقيدة المسلمين .. فصدر الأمر باعتقاله . ولكنه (فرّ) من بغداد حتى تمكنت الشرطة من اعتقاله فى مدينة (سوس) سنة ٣٠١هـ . وأرسل الى بغداد . وظل بالاعتقال (ثمانية) أعوام وسبعة أشهر . وفى السجن كان يصرح بأقواله التى وضح منها مخالفتها لما علم من الدين بالضرورة ، فقرر فقهاء المسلمين اصدار (الفتوى) باعدامه باعتباره : مرتدا عن الاسلام . وتنفذ الحكم فى (ذى القعدة سنة ٣٠٩هـ) .

علاقة الحلاج بالتيارات المعادية للاسلام :

لا أعتقد أنه من طبيعة الباحث فى الفكر الاسلامى أن يفتش عن (مثالب) الذين تناولوه .. ولكنى اعتقد بالضرورة أنه : من واجبه أن (يبحث) عن الجوانب الفكرية من أصالتها أو (تهافتها) وأن يحرص على نسبتها .. وهل

(نقلت) بطريق (العمد) .. أم كان المجتمع فى حاجة اليها . فاستجلبها ..

ونؤكد هنا أن من يروج لمذهب ليصادم به مجتمعه . لايترك الدليل الصريح على جنايته . وهذا يلقى العبء على (ملتمس) الحقيقة فلم يرولنا التاريخ أن هؤلاء : افتتحوا (معهدا) كتب عليه (هنا نعلم العقائد التى تصادم الاسلام) .. وانما كانوا (يستترون) ويبالغون فى الاختفاء .. ولم يسفروا عن نواياهم الا بعد أن تمكنت أساليبهم فى النفوس التى (قصدوها) والتى غالبا ماتختار (بذكاء) لتكون ميدانا لغرس هذه العقائد[1]

ولهذا يُلْفت نظرنا أنه بالرغم من أن التصوف يقوم على فكرة التجربة (الفردية) فإننا نجد بعض رجال المتصوفة يخرجون (فجأة) الى دور جديد . لا يتصل بالتصوف من قريب أو بعيد . ويقرر أحد الباحثين هذه الحقيقة . فيقول :

(نادراً ماانقطع أى زاهد – يقصد متصوف – من هؤلاء الى حياة الرهبنة – يقصد العزلة والزهد – الدائمة)[2] . والحلاج أحد هؤلاء المتصوفة الذين ينطبق عليهم هذا الاتجاه ..

١ – الحلاج والهند :

نعلم علاقة الهند بوحدة الوجود والتناسخ والفناء والحلول .. الخ .. هذه العقائد الباطلة . ولذلك : ندهش من أن نجد الحلاج يبدأ رحلاته خارج الديار الاسلامية . بزيارة الهند . وقد أعلن أنه سيذهب لدعوة (الهنود) الى الاسلام . وكان يمكننا أن (نصدقه) . بل كنا (نتمنى) ذلك .. لولا أن أفكاره تحتوى على الكثير من (المساواة) بين جميع الأديان . بلا تفرقة

---

(١) وهذا الأسلوب مازال سمة العصر الحديث فى نشر العقائد والآراء المذهبية .

(٢) راجع ص ٦٠ من ك (الفكر العربى ومركزه فى التاريخ) تأليف/ دى . لاس . أوليرى . ترجمة/ اسماعيل البيطار نشر دار الكاتب العربى ببيروت سنة ١٩٧٢م .

أو تمييز . اذ هو يدعو الى مايسمى (بالدين العالمي) [1] والذى يرتكز على : أن العلاقة بين الله والانسان . لاتحتاج الى واسطة (نبى أو رسول) . ويمكن ان يعبد كل انسان ويعرف ربه بالطريقة التى تروق له . فلا نبوة ولا رسالات ولا كتب ... وانما (إله) .. يُعرف بالطريقة التى تتيسر ..

والذى يعنينا هنا أن (الحلاج) إنما قصد من زيارته للهند هو تعلم (السحر والشعبذة) ليستعين بهما على (فتنة) السذج والبسطاء .. وقد تعلم بالفعل فى (الهند) السحر الهندى [2] . وهذا السحر يفسر لنا الكثير من التصرفات التى كانت تنسب الى (الحلاج) ويظنها (العامة) كرامة وَلِى .. ويعجب بها بعض الباحثين المعاصرين .. [3]

٢ - الحلاج وفارس :

وقد زار الحلاج (فارس) . وهى موطن (الثنوية) والتناسخ والبحر المتلاطم بالعقائد والتيارات المتناقضة . وقد وقف (الحلاج) على الثقافة الفارسية . وأعجبت بآراء وأفكار (زرادشت) حتى أن البعض عندما عَنَّ له أن ينسب (مذهبه) فلم يجده الا منسوبا الى (زرادشت) . فيقول : (والحلاج ذو أصل زرادشتى) [4].

---

(١) راجع ص ٢٥٧ من ك (فى الفلسفة الاسلامية) للدكتور محمود قاسم .

(٢) راجع ص ٧٠ جـ ٢ من ك (ظهر الاسلام) للدكتور احمد أمين .

(٣) يقول فى نسبة الحلاج الى عجيب الفعل معجبا الدكتور محمد غلاب : (.. هو الأول من نوعه فى البلاد الاسلامية ... كان يؤيد مذهبه بالخوارق العامة التى كانت حتى عهده مقصورة على الرسل عليهم الصلاة والسلام) .

ولو أن (أستاذنا) تلمس طبائع الأمور .. وأن مما يبدو أمام رؤية العين خارقا . فيه السحر والشعبذة .. والخارق بالاطلاق هو (معجزة) .. وانتهت بخاتم النبوة محمد ﷺ والخارق المقيد . هو (الكرامة) .. ولها شروط .. وتكون (لولى الله) تعالى . والحلاج لاتنطبق عليه هذه (الولاية) من وجهة نظر الاسلام نفسه .

(٤) راجع ص ٦٥ من ك (الفكر العربى) لأوليرى . بيروت .

ثم زار مركز (الامامة) الشيعية بمدينة (قُمْ) وادعى أنه (وكيل الامام)[1] ودعواه الشيعية تلك والتى ان صدقت[2] لفسرت لنا الكثير من تصرفات الحلاج وعلى كل : فهى توضح لنا مكانه من (الطموح) والغاية التى كان يسعى اليها . وأن من وصفه بأنه (رجل المطامع) كان صادقا .

٣ - الحلاج والقرامطة :

اتصل (الحلاج) بالقرامطة . الذين نعتبر أن مجرد الاتصال بهم (سُبَّة) فى حد ذاته . لانهم يمثلون حلقة بالغة الشناعة فى معنى (الارتداد) عن الاسلام . ومحاربته بهدف : تقويض دعائمة والاعتداء على حرماته ومقدساته وأصوله ..

ولذلك حاول البعض أن يخلّص الحلاج من تهمة (الاتصال) بالقرامطة وهؤلاء يمثلون وجهة نظر (المستشرقين) .. إذ (الاستشراق) معجب جداً بالحلاج ..

وينبغى أن نعلم أن بعض المواقف (الاعتزالية) التى تشددت فيها بمناهج العقل . انما كان منهم بمثابة (ردّ فعل) لما يعاصرونه من مذاهب (العرفان) الغنوصىّ . والذى يمثله فى المحيط الاسلامى (التصوف الاشراقى) الذى وُجد عند الحلاج كما يذكر لنا الدكتور محمود قاسم . وهو ينقل الينا : أن (الجبائى) المعتزلى الذى كان معاصراً للحلاج . هو الذى ذكر أن الحلاج كان من (دعاة) القرامطة ..

كما أن القاضى عبد الجبار فى كتابه (النبوات والمعجزات) قد كشف عن (حِيَل) الحلاج فى استدراج السذج من الناس الى مذهبه .

ونجده يدهش من محاولة (الاستشراق) نفى (الاتصال القرمطى) عن

---

(١) راجع ص ٧٥ جـ ٢ من ك (ظهر الاسلام) د/ احمد أمين .

(٢) يؤكد الدكتور احمد أمين أنه قد ثبت أن الحلاج كان وكيلا للامام فى (قُمْ) . راجع ص ٧٥ جـ٢ من ك (ظهر الاسلام) الطبعة الثانية سنة ١٩٥٧ .

الحلاج . خاصة المستشرق (لويس ماسينيون)

ولعله دهشته تزول عندما يجد أن المستشرق (أوليرى) يورد رأيه صراحة في هذه الصلة فيقول :

(وكان الحلاج – على صلة قوية بالقرامطة)[٢]

واذا كان التاريخ يذكر لنا أنه من أسباب قتل الحلاج اتهامه بالاتصال بالقرامطة . وأنه كان (قرمطيا)[٣] فاننا نسأل هنا من هم القرامطة .. ؟ ..

القرامطة : تنسب هذه الفرقة الى (حمدان بن قُرمط) . وهى تناسخية باطنية . ويقول البغدادى وهو يعرض مذهب (الباطنية) التى تعمل على هدم الاسلام . ذاكراً مؤسسها (ميمون بن ديصان) المعروف باسم (القداح) :

(ثم ظهر فى دعوته الى دين الباطنية رجل يقال له : حمدان قرمط ... واليه تنسب القرامطة ..)[٤] .

ويتابع البغدادى تعريفنا بهذا النوع من الفرق التى تحاول الكيد للاسلام . فيبين أصولها التاريخية : وأن الباطنية من أبناء (المجوس) الذين يحلمون بعودة الدولة المجوسية . ويعتقدون ان يخرج – إنسان يعيد هذه الدولة . وكانوا ينتظرونه وكان (القرامطة) يتواعدون فيما بينهم على (ظهور المنتظر) .

وقد حارب القرامطة الاسلام . وتعرضوا لحجاج بيت الله الحرام وقتلوهم باسراف . حتى (طُرح القتلى فى بئر زمزم) وانتزعوا (الحجر الاسود) من الكعبة . واستولوا عليه . ونقلوه الى مدينتهم (هجر) وظل (الحجر) بها . مدة ثلاثين عاما .. حتى استيعد سنة : ٣٩٩ هـ .

---

(١) راجع ص ١٢ من ك (فى الفلسفة الاسلامية) د/ محمود قاسم .

(٢) راجع ص ١٦٥ من ك (الفكر العربى) . لأوليرى .

(٣) راجع ص ٧٦ ومابعدها جـ ٢ من ك (ظهر الاسلام) د/ احمد امين .

(٤) راجع ص ٢٨٢ من ك (الفرق بين الفرق) للبغدادى . تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد .

ويقول مُعَلِّم القرامطة (القيرواني) : (اني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والانجيل . وبدعوتهم الى إبطال الشرائع وإلى إبطال المعاد . والنشور من القبور . وإبطال الملائكة في السماء . وابطال الجن في الأرض . وأوصيك أن تدعوهم الى القول : بأنه كان قبل (آدم) بشر كثير فإن في ذلك : عون لنا على القول : بقدم العالم)[1]

ويذهب (القرامطة) بجانب ذلك الى : الدعوة الى فكرة (المهدى المنتظر) وفكرة (الامام المنتظر) ويستحلون دم المخالف .

وقد زار الرحالة الفارسي (ناصر خسرو) عاصمة القرامطة (الاحساء) سنة ٤٤٣هـ . فوجدهم (يُسْرِجُون) فرساً . لايغادر مكانه ليلا ونهارا على باب (قبر) حمدان بن قرمط . ليركبه عندما يرجع ويظهر لانه عندهم (المهدى المنتظر)[2] .

ونجد من يؤكد تعميمه الذاهب الى أن وراء قول القرامطة (دائما) قول بالحلول ..[3]

ويؤكد (ابن حزم) أن القرامطة قالوا : بألوهية البشر ... ![4]

وهكذا يبرز لنا من هم القرامطة وأن الحلاج كان (متصلا) بهم . وهذا كله يدل بقوة على (نوعية) الانتماء الفكرى للحلاج .

يقول (نيكولسون) في سبب مقتل الحلاج وأنه قتل بعد (اتهامه بأنه كان يدعو سرا الى مذهب القرامطة . الذين أغاروا على مكة ونهبوها بعد موت

---

(١) راجع ص ٢٩٦ من ك (الفَرْق بين الفِرق) للبغدادي .

(٢) راجع تاريخ القرامطة بتوسع ص ١٣٢ جـ ٤ من ك (ظهر الاسلام) للدكتور احمد أمين .

(٣) راجع هامش ص ٤ ، ٥ جـ٢ من ك (كشف المحجوب) للجهويرى ترجمة الدكتورة اسعاد عبد الهادى قنديل . نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

(٤) راجع تفصيل ذلك في ك (الفصل في الأهواء) الطبعة الأولى سنة ١٣١٧هـ .

الحلاج بتسع سنوات . ونهبوا الحجر الاسود منها)[1]

الحلاج والافلاطونية المحدثة (المسيحية) :

عكف الحلاج فترة خلعه رداء المتصوفة على دراسة الفلسفة الاغريقية . وتلقاها من المنبع المترجم من اليونانية الى العربية والذى غلب عليه فى الجانب الآلهى الاتجاه الأفلاطونى . والذى اتخذه (رهبان) المدارس المسيحية فى المشرق الاسلامى . محورا لتطوير العقيدة المسيحية على أساس تصوف روحى .. والذى تجعل من الانسان (مساويا) للآله .. بطريق (الخلاص) و(الفناء) ...

ويعرض لنا (نيكولسون) مذهب الحلاج فى (خلق العالم) فيقول : (وهكذا يتخذ الحلاج من العبارة القديمة المأثورة فى اليهودية والمسيحية وهى قولهم : ان الله خلق آدم على صورته .. أساسا لنظريته فى : خلق العالم . ولنظرية مكملة لها فى (تأليه) الانسان .

وإن فى مذهب الحلاج إشارة الى المذهب القائل : (بثنائية) الطبيعية (الآلهية) : اللاهوت والناسوت . وهما اصطلاحان أخذهما الحلاج عن المسيحيين (السريان) الذين استعملوهما للدلالة على طبيعتى (المسيح) .. أضف الى ذلك الى أن الحلاج يصف (اتحاد) اللاهوت بالناسوت . أو الروح الآلهى بالروح الانسانى . بأنه : حلول) ..[2]

ويجدر بنا أن نلاحظ (صدمة) نيكولسون المسيحى فى الحلاج عندما ما يراه يأتى بما يخل بالبنيان المسيحى الذى يشيع فى عقيدة الحلاج حسبما يذكر نيكولسون . فيقول :

(ومن الغريب حقا ان الحلاج الذى يتخذ من (المسيح) مثالا أعلى للولاية . والخلافة الآلهية . يتخذ من ابليس وفرعون مثالا أعلى للفتوة

---

(١) راجع ص ١٣١ من ك (فى التصوف الاسلامى وتاريخه) ترجمة الدكتور ابو العلا عفيفى .

(٢) راجع ص ١٣٣ من ك (التصوف الاسلامى وتاريخه) ترجمة الدكتور ابو العلا عفيفى .

الصوفية ...)[1]

منهج الوصول عند الحلاج :

١ - يبدأ الحلاج بالدعوه الى : الزهد والتقشف . ورياضة البدن بالأفعال الدينية . وشغل القلب بالتقوى والحرمان من الرغبات والحيلولة بين النفس وبين شهوتها . وتنقية الطبيعة من كل ما هو (جسدانى) .

٢ - عندما يبلغ الانسان هذه المرتبة : (تحل) فيه (روح القدس) . ولهذه المرتبة عنده ثلاث درجات :

(أ) درجة المريد : وهى درجة الرياضة والزهد والكبح .

(ب) درجة المراد :[2] وهى درجة **الاضطرار والبلاء والاستهلاك** الناسوتية . والخلاء والفناء عن الأوصاف البشرية .

(جـ) درجة رفع الأنية[3] وهى عليا الدرجات التى تحقق فيها (الاتحاد التام) . بين (الانسان) وبين (الله) .

وغاية الجانب الآلهى عند الحلاج هو (توطيد الاتحاد الحقيقأ الأبدى بين الانسان وربه)[4] .

عقائد باطلة عند الحلاج :

عندما نستعرض (الحلاج) وهو يحاول ان ينشر مذهبه نجده يُرَوّج لبعض العقائد التى تصادم الاسلام ومن أهم هذه العقائد :

١ - **التناسخ** : وجدت عقيدة التناسخ فى مذهب (الحلاج) وقد حاول الباحثون أن يعقدوا الصلة بين : التصوف والتشيع ودراسة الفلسفة . فلم

(١) راجع ص ١٣٥ من المرجع السابق . وراجع ص ٩٥ من ك (الطواسين للحلاج (طس الأزل) .

(٢) ويطلق عليها اسم (درجة وحدة الذات) أيضا .

(٣) ويطلق عليها أيضا : (حياة الاتحاد) و (عين المجمع) .

راجع ص ٩٨ من ك (التصوف المقارن) للدكتور محمد غلاب والذى يفصح عن إعجابه بالحلاج ويدافع عنه بتأويلات نرفضها . وانما نقصد اننا ننقل عَنْ مَنْ لايتهم بالتجنّى على الحلاج . (وهذه عبارته عنه) .

(٤) راجع ص ٩٩ من المرجع السابق .

يجدوا سوى شخص (الحلاج) (مثالا) هذه العلاقة .

فيذكر أوليري في تعليل اهتمام الشيعة بدراسة الفلسفة . انها كانت منهم لتأصيل الآراء البدائية . ولذلك (كرسوا انفسهم لدراسات الفلسفية في المقام الأول . واعتناق عدد من النظريات الدينية التى تعود تاريخها الى ماقبل الاسلام مثل : تناسخ الأوراح وغيرها .. مما كان مضرا بالبحث العلمى . وكانت الافلاطونية الحديثة . تميل منذ عهد مبكر الى اشباع هذه الاتجاهات .. ونتيجة لذلك : مال الشيعة بالنظريات الصوفية)[1] .

ويقول عن الحلاج :

(ويبدو .. اعتنق هذه الآراء التى ترتبط عادة بغلاة الشيعة كتناسخ الارواح والحلول وغيرها)[2] .

وبذلك يظهر علاقة (الحلاج) بعقيدة التناسخ . التى سبق بيان موقف الأسلام منها .

٢ – وحدة الوجود : الحلاج من القائلين بوحدة الوجود ونجد من يقول فى هذا : (فأما وحدة الوجود فحامل لواءها الحلاج)[3] ويعترف الحلاج نفسه بمذهبه فى (وحدة الوجود) فيقول فى (طاسين الصفاء) : (... دع الخليقة لتكون أنت هو . أو هو أنت . من حيث : الحقيقة ..)[4] .

ويعلن الحلاج عن (وحدته الوجودية) . فيقول : (لكنى ليس يستترعنى – يقصد الله سبحانه وتعالى – لحظة . فأستريح . حتى استهلكت ناسوتيتى فى لاهوتيته . وتلاشى جسمى فى أنوار ذاته . فلاعين لى ولا أثر) .

ويعقب (محقق الطواسين) على قول الحلاج (فلاعين لى ولا أثر) فيقول هذا (تأكيد لما ذهب اليه من وحدة الوجود)[5] .

---

(١) راجع ص ١٥٤ من ك (الفكر العربى) لأوليرى .

(٢) راجع ص ٣١٥ من المرجع السابق .

(٣) راجع ص ٧٨ جـ ٢ من ك (ظهر الاسلام) للدكتور احمد امين .

(٤) راجع ص ٨٧ من ك (الطواسين) للحلاج نشر مكتبة الجندى .

(٥) راجع ص ٣٢ من المرجع السابق .

وقد تضافرت (نصوص) الحلاج نفسه على تأكيد قوله : بوحدة الوجود على النحو التى وجدت عند (الهنود) ..

ولذلك لانحفل بمحاولة (نيكولسون) وهو (ينفى) عن الحلاج القول بوحدة الوجود . حيث لم تستقم لـه هذه المحاولة من خلال عرضه[1] .

ولكننا ندهش حقيقة من (وصف) أستاذنا الدكتور محمد غلاب للذين يذكرون أن : الحلاج يقول بوحدة الوجود : (بالسطحية) بالرغم من أنه ارتضى هو وصفه (بالحلول)[2]

ومعقد الدهشة : أن هذا الوصف . لم نلمحه عند غيره من أنصار الحلاج المعاصرين .

٣ - الحلاج وعقيدة الحلول : جميع الباحثين ينسبون الى الحلاج القول (بالحلول)[3]

بل نجد منهم من يثبت للحلاج (أولية) القول بنظرية (الحلول) تلك . فيقول : (وعلى يد الحلاج نشأت نظرية الحلول)[4] .

وقد ذكر (ابن خلدون) أن : الحلاج قد صرح بالحلول . وهو فى كامل وعيه (وحاضر حسه . ولم يملكه الحال .... ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر الصوفية - الحقيقية - بقتل الحلاج . لأنه تكلم فى حضور وهو مالك

---

(١) راجع صفحة (ق) من مقدمة الدكتور ابو العلا عفيفى على كتاب نيكولسون (فى التصوف الاسلامى وتاريخه) .

(٢) راجع ص ١٢٧ ومابعدها من ك (التنسك الاسلامى) .

(٣) راجع التفصيل فى اثبات الحلول عند الحلاج . ص ٢١٢ جـ من ك (نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام) د/ على النشار . وص . ٧٠ جـ ٢ من ك (ظهر الاسلام) د/ احمد أمين . وص ٦٦ من ك (دروس فى تاريخ الفلسفة) د/مدكور . وص ١٦٥ من ك (الفكر العربى) لأوليرى .

(٤) راجع ص ٤٠٩ من ك (أسس الفلسفة) للدكتور توفيق الطويل الطبعة الثانية .

لحاله ....)[1]

يقول الحلاج مقررا مذهبه فى الحلول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فـاذا أبصرتنـى أبصرتـه وان أبصرته أبصرتنا[2]

ونحن نعلم : موقف الاسلام من معتقد عقيدة (الحلول) .

الحلاج وعقيدة الاتحاد :

مع ملاحظة أننا نذهب الى تلاقى الاتحاد والحلول ووحدة الوجود فى إطار واحد . وأن التخالف بينهما يكون : بالاضافة والاعتبار . فاننا حاولنا هنا (التقسيم) حتى يكون الأمر واضحا . لمن لايذهب معنا ..

والذى يعنينا هنا : اثبات علاقة (الحلاج) بالاتحاد .. ونجد من تتبع تاريخ (عقيدة الاتحاد) ونقلها الى المحيط الاسلامى بعدما نسب الى (البسطامى) الفارسى[3] – متصوف – أنه (أول) قال بعقيدة (الاتحاد) فى المحيط الاسلامى . نجده يقول :

(ويغلب على الظن أنه استمدها من التعاليم الهندية التى كانت سائدة فى بلاد الفرس مسقط رأسه) . ثم يوضح الصلة بين (الحلاج) وبين (عقيدة الاتحاد) فيقول : (... وما أن ظهرت هذه الفكرة – الاتحاد – فى العالم الاسلامى . حتى أخذ الصوفية – المتصوفة – وخاصة الحلاج . يؤيدونها ويوضحونها نثراً ونظماً ..)[4] .

وبالجملة : فان الباحثين متفقون على نسبة (عقيدة الحلول) الى الحلاج .

---

(١) راجع ص ٤٤٨ من ك (مقدمة ابن خلدون) طبعة دار الشعب .

(٢) راجع ص ١٣٤ من ك (فى التصوف الاسلامى وتاريخه) ترجمة الدكتور ابو العلا عفيفى .

(٣) اختلف فى تاريخ وفاته هل توفى سنة ٢٦١ هـ . أم كانت الوفاة ٢٦٤ هـ .

(٤) راجع ص ٦٩ من ك (دروس فى تاريخ الفلسفة) للدكتور/ ابراهيم بيومى مدكور ويوسف كرم .

وان اختلفوا فى مصدرها عنده . ومن أين استقاها .. ؟ [١]

ولا يخفى علينا : موقف الاسلام من معتقدى (الاتحاد)

الحلاج وفكرة النور المحمدى :

ان الحلاج يقول بفكرة (النور المحمدى) التى وجدت عند بعض المتصوفة . ولكن على نحو أكثر (شذوذا) ....

يقول نيكولسون معجبا بالحلاج :

(والحلاج يقول بقدم النور المحمدى . الذى انبعث منه جميع انوار النبوة . ولكنه – أى الحلاج – يجد فى عيسى – عليه السلام – لا فى محمد – ﷺ – المثال الكامل . الذى وصل الى مقام القربى . فحل فيه روح الله ..... ويرى الحلاج أن عيسى خليفة الله الذى كان شاهدا على وجوده . والمجلى الذى تجلى الله فيه . وفيه كان وجوده)[٢] .

ويصف المستشرق (نيكولسون) فكرة (الحلاج) على (المسيح) بأنها : نظرية (فريدة) من نوعها . من ناحية صدورها من (مسلم) .

ولعله يتضح لنا الآن : لم شغل نيكولسون نفسه بالدفاع عن (الحلاج) حتى يحسّن (صورته) عند المسلمين المعاصرين .

وقد علمنا – آنفا – موقف الاسلام من فكرة قدم الأرواح . وقيمة فكرة (النور المحمدى) فى العقيدة الاسلامية .

تقييم :

لا نحتاج بعد هذا الايراد أن نوضح أين يقف (الحلاج) من تعاليم الاسلام .. ؟ ..

---

(١) راجع التفصيل ص ٤٦ وص ١٢٨ من ك (التنسك الاسلامى) د/ غلاب . وص ١٣٤ من ك (فى التصوف الاسلامى وتاريخه) لنيكولسون وص ١٩٦ جـ ٤ من ك (ظهر الاسلام د/ احمد أمين . وص ١٧١ وما بعدها من ك (الفكر العربى) لأوليرى .

(٢) راجع ص ١٣٤ من ك (فى التصوف الاسلامى وتاريخه) ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى .

وما كنا بالراغبين فى هذا الايراد .. لولا أن هذه التيارات (الحلاجيّة) وجدت عند البعض رواجاً .. ولذلك : نحن نخشى أن تجد عن البعض أنسا أو عطفا أو رواجا[1] .

ولذلك : فاننا نورد بعض (أشعار) أحد المتصوفة . التى تأثرت بعقيدة (الحلاج) .. وهو (جلال الرومى) .

(ب) جلال الدين الرومى :

من مدينة بلخ جاء الفارسى (جلال الدين الرومى ٦٧٢ هـ) ليكمل حلقة التصوف الدخيل . فألف كتابه (المثنوى) وأسس (جماعات) من المسلمين فى صورة (تنظيم) عرفت باسم (الدراويش)[2] .

وهنا لا نريد أن نعرض إلا لقصيدة واحدة من شعر جلال الدين لتظهرنا على عقيدة الصوفية .

يقول الرومى فى ديوانه :

نفسى إلى أيها النور .. لا تنء عنى ..
لا تنء عنى ..!.. أيها المشهد المتألق .
لا تنء عنى .. لا تنء عنى ! ..
انظر إلى العمامة . أحكمتها فوق رأسى
بل انظر إلى (زنار) زراد شت حول خصرى
أحمل (الزنار) . وأحمل (المخلاة) ..

---

(١) لعله وضح لنا أن مَنْ يتباكى على (مقتل الحلاج) مخطىء وان صاغ هذا البكاء شعرا أو نثرا .. مثلما فعل شاعر معاصر هو/صلاح عبد الصبور . هذه النغمة فى مسرحيته الشعرية (مأساة الحلاج) .. والحقيقة : أن (المأساة) هى مأساة الاسلام الذى يُحارَب بعنف وضراوة من جميع الاتجاهات . وأبناؤه فى غفلة عن هذه الحرب الشرسة .. ولعل المسلمين قد اطمأنوا إلى وعد الله تعالى حيث يقول (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) .

(٢) لاحظ نشأة فكرة (الطرق الصوفية) الجماعية .. ونشأة اصطلاح (الدرويش ... [illegible] أويش) .

بـــل أحمل النـــور .. فلاتـــنء عنـــى

مسلم أنا .. ولكنى نصرانى . وبرهمى . وزرادشتى

توكلت عليك أيها الحق الأعلى .. فلا تنء عنى

ليس لى معبد واحد : مسجد أو كنيسة أو بيت اصنام

ووجهك الكريم فيه غاية نعمتى .. فلا تنء عنى ..

لا تنء عنى ...

علاقة الرومى بفكر الحلاج :

يعتنق (الرومى) عقائد الحلاج – ويدافع عنها وقد حاول أن يؤكد فكرة (الحلول) عند الحلاج حتى بعد مقتله فيورد قصيدة يعترف فيها بالتناسخ والحلول وفكرة قدم الروح :

يقول جلال الدين الرومى فى هذه القصيدة :

يظهر الجمال الخاطف كل لحظة فى صورة فيحمل القلب ويختفى . فى كل (نفس) يظهر ذلك (الصديق) فى ثوب جديد .. فشيخا تراه تارة .. وشابا تارة أخرى ... ذلك الروح الغواص على المعانى ... انظر اليه . وقد خرج من (طينة) الفخار .. ظهر بصورة (نوح) . وأغرق الدنيا بدعاء منه .. وظهر بصورة (ابراهيم) فى قلب النار ... وظهر بصورة (عيسى) الذى صعد .. فهو هو الذى يأتى ويذهب فى كل كون تشاهده ... وفى نهاية المطاف ظهر بصورة (العربى) ... ودان له ملك العالم .. ماذلك الذى يتغير ... ؟ وما معنى التناسخ ؟ ذلك الفتى الجميل . فتان القلوب قد ظهر .. بصورة فى « كف » علىّ .. وأصبح التيار فى زمانه لا .. لا .. بل هو الذى ظهر فى صورة انسان . وصاح : أنا الحق .. ليس (المنصور) هو الذى (صلب) على الدار ..

وهكذا يؤكد الرومى أن (الآله) هو الذى حَلَّ بالحلاج الذى قتل (مصلوبا) . وان ما وقع عليه شيء من القتل .. ويعترف بالتناسخ وألوهية (علىّ) رضى الله عنه .. وأن الأنبياء صور الحلول الآلهى وهذا كله قول واضح البطلان والفساد .

وننبه هنا : أن جلال الدين الرومى .. يحاول البعض تصويره على أنه من كبار المتصوفة . ويُعْلى من شأنه بالرغم من وجوده هذه العقائد فى نسيج مذهبه[1] .

ونحب أن نشير إلى أن هناك (نماذج) أخرى من هذا القبيل مثل شهاب الدين (السهروردى) المقتول سنة ٥٨٧ هـ ولكننا أضربنا عن ذكرها لداعى الاختصار ..

ومما تجدر ملاحظته هنا أن مؤرخى التصوف قد التفتوا فى (نشأة التصوف) الدخيل . إلى الأمور التالية : –

١ – ان معظم المتصوفة . من أصل غير عربى . وأغلبهم من دولة (فارس) التى قهر الاسلامُ (المجوسيةَ) فيها .

٢ – ان التصوف – الاشراق والفلسفى – قد ظهر أولاً وانتشر بخراسان .

٣ – ان (تركستان) كانت قبل الاسلام مركزا للأديان والثقافات الشرقية والغربية . فلما دخل أهلها فى الاسلام . حاولوا صبغه بصبغتهم الصوفية القديمة .

٤ – ان المسيحية شجعت عند المسلمين هذا النوع من (التصوف) حتى وجدنا أن أول (خانقاه) اسست لمتصوفة المسلمين كانت « بالرملة » فى فلسطين قبل نهاية المائة الثامنة الميلادية على ما يظهر ... وأن مؤسسها كان « راهبا » مسيحيا)[2] .

وبذلك يتضح لنا بجلاء :

مكان التصوف .الاشراق فى العقيدة الاسلامية من خلال : رجاله . وقضاياه .. وموقف الاسلام من هذه العقائد .. وأنه مكان : الأجنبى الدخيل ...

---

(١) راجع بحث عن (جلال الدين الرومى) وتصوفه . للدكتور عناية الله ابلاغ الأفغانى وهو مخطوط بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة .

(٢) راجع صفحة (ص) من مقدمة الدكتور ابو العلا عفيفى على كونيكولسون .

مبحث
التصوف الفلسفي

ألمعنا فى مجال التصوف الدخيل إلى (التصوف الاشراقى) الذى يعتمد مباشرة على (العرفان) دون التمحل بالفلسفة .

وهنا نحاول أن نشير إلى هذا التصوف (الإشراقى) وهو يحاول أن يدفع عن نفسه (تهمة) البعد عن (العقل) .. فيقدم (الاشراق) فى ثوب (الفلسفة) حتى يدرك (المتلقى) . أنها مؤصلة على (العقل) فيقبل (العقلاء) التصوف الاشراقى الدخيل فى ثوب خادع يقوم بدمج العقل – الفلسفة – فى اللا عقل – الاشراق – وهذا هو (المزج) بين الشىء ونقيضه بلغة العقل الواعى ....

ولذلك نحب الاشارة إلى أن أول من قام بمحاولة تقديم (التصوف) على ركائز فلسفية فى المحيط الاسلامى هو (أبو نصر الفارابى . ت ٣٣٩ هـ) وقد أخذها عنه تلميذه (ابن سينا) . فأعاد الصياغة وفصّل الغامض وشرح الناهد ..

وللدواعى التركيز سننظر إلى : (الفارابى) من خلال ابن سينا الذى سنرتضيه هنا (نموذجا) على محاولة : تقديم الاشراق فى ثوب فلسفى .

وبادىء ذى بدء : نقرر أن منهج المزج هذا لا يمكن أن يحقق نجاحا فى هذا المضمار .. لأن المزج بين النقيضين . ضد طبائع الأمور . فمنهج ابن سينا – هنا – مرفوض بمحاكم العقل .

(تصوف ابن سينا)

من هو ابن سينا .. ؟ :

الشيخ الرئيس ابن سينا . هو : أبو على بن عبد الله بن سينا الفارسى الأصل . ولد سنة ٣٧٠ هـ وتوفى ٤٢٨ هـ .

وكانت حياته قوية ثرية الجوانب . حتى ليكاد يكون شخصية مستقلة قوية . من أيّ ناحية أتيته : فالذين عكفوا على علمه أعجبوا به . والذين شافهوا جوانبه الفلسفية اعتبروه فيلسوفا . ومن تابع تصانيفه في (التصوف) اعتقده متصوفا . وبجانب هذا نجد من قارنه بمنهج السلف وأهل السنة اعتبره (مارقا) .

ولقد اختلفت النظرة إلى سيرة ابن سينا : فعامة المسلمين لهم فيه رأى . وخاصتهم لهم فيه رأى .. والعامة لم يخالفوا الخاصة ... ولكن العامة اختلفت فيه كما اختلف فيه الخاصة .. ودارت احكام – العامة والخاصة – بين التوقير والتحقير . والتثقيل والتقليل .

فابن سينا إما (ولىّ) من أولياء الله . أو (شيطان) من شياطين الانس عند العامة .

وابن سينا – عند الخاصة – (أرسطى) عند قوم و (افلاطونى) أو (افلوطينى) أو (فارابى) عند أقوام آخرين .. ويعلق أحد الباحثين على هذا التضارب في الرأى حول ابن سينا . فيقول : (... ومن الغريب أنك إذا درست حياة ابن سينا وآرائه . وجدت لكل (دعوى) من دعاوى الخاصة والعامة سنداً وتأييداً ..)[1] .

ويحكى المؤرخون مثل هذا التضارب عن (أخلاقه) وكيف كان (يتناقض) سلوكه الخُلُقى .. ! ..

فقد نقلوا عنه : انه كان اذا اعتاصت عليه مسألة علمية (هرع) إلى (المسجد) يصلى . ويضرع إلى الله تعالى . أن يدله على (حلها) . فاذا عكف على العلم عكوفه الطويل . وضعف جسمه شرب (الخمر) ليتقوى به كما يدّعى – على المطالعة والدرس[2] .

---

(١) راجع ص ٣٨٢ من ك (التفكير الفلسفى فى الاسم) للدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) راجع ص ٢٥ من بحث (النفس عند ابن سينا) للدكتور احمد عبد الخالق رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين – بالقاهرة .

ويعتبره بعض الباحثين : أنه أعظم متصوفة عصره . لقدرته على المناقشة والجدل والتفاهم مع المتصوفة .. ناهجاً : لغة العقل والبصيرة . موفقا بين الفريقين .. حتى حقق – فيما يرون – التوافق بين : الفلسفة العقلية الخالصة والتصوف الاشراقى النقى .. وقد أفصح عن هذا التوافق (حوار) بين ابن سينا . وابن ابى الخير الصوفى . (إذ سئل الصوفى عن رأيه فى الفيلسوف فاجاب بقوله : ما أراه يعرفه ..

وسئل الفيلسوف عن رأيه فى الصوفى فقال : ما أعرفه يراه ..)[1] .

علاقة ابن سينا بالتيارات الاجنبية :

يعترف ابن سينا بأنه نشأ فى بيت شيعى (إسماعيلى) وأنه تلقى تعليمه فى بكور حياته على (الناتلى) داعية المذهب الاسماعيلى .

وعن (بيت) ابن سينا هذا .. يذكر المؤرخون : أنه كانت تسوده تقاليد الحضارة الفارسية . وأنه كان يحتوى على معارضة للاسلام . فلم يكن (الولاء) للعقيدة الاسلامية فى هذا البيت : سائدا[2] .

فاذا علمنا بعد ذلك : أنه اتصل بالثقافة الفارسية . حيث كان يجيد (اللغة الفارسية)[3] . وأنه شيعى العقيدة اسماعيلى النزعة ومعلوم ان (الاسماعيلية) كانت تقوم على (عقيدة التناسخ) الباطلة[4] .

كما عُيّن ابن سينا (وزيراً) لبنى بويه . وهم (شيعة) .

وكذلك اتصل ابن سينا بالحضارة الاغريقية عن طريق معرفته الجيدة (باللغة الاغريقية) التى مكنته من الوقوف على الجوانب الفلسفية الاجنبية

---

(١) راجع ص ١٣٧ من ك (التنسك الاسلامى) للدكتور محمد غلاب .

(٢) راجع ص ١٩٦ ، ص ٢١٩ من ك (تاريخ الفلسفة فى الاسلام) لديبور ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة . وص ٢١٧ من ك (فى الفلسفة الاسلامية) للدكتور عوض الله حجازى .

(٣) راجع ص ١٩٤ من ك (ديبور) .

(٤) راجع فى تناسخيه الاسماعيلية ص ٧ من ك (الدولة الفاطمية فى مصر) للدكتور جمال سرور .

عن الاسلام (فقد كان ابن سينا يجيد اللغة اليونانية) .

وينبغى ان نعلم هنا : ان الشيعة ارتبطت بالفلسفة الاغريقية . وقد وضح هذا الارتباط الاغريقى فى جانبه (الاشراقى) فى الدعوة الاسماعيلية . وكان (دعاة) الاسماعيلية (يعلمون) اللغة اليونانية والفلسفة الاغريقية .. ومن هنا : اخذ ابن سينا علمه عن (النائلى)[1] .

وقد عاصر ابن سينا وتقابل مع (ابن مسكويه) الذى انتقده .. كما عاصر ابن سينا مؤرخ الهند (البيرونى) وكانت بينهما (جفوة) بعد (التقارب) والتراسل ..[2]

ونجد من يذهب إلى ان سينا ذو نزعة شيعية حقيقية مستدلا على ذلك : بما وجده عند ابن سينا فى التفسير بمنهج (الرمزية) . ورغبته فى جعل آرائه الفلسفية (سرية) بطريق (التقية)[3] .

وعن أثر الفكر (الدخيل) فى تكوين ابن سينا الثقافى يحدثنا الباحثون عن اثر البعثة الشيعية التبشيرية التى وفدت على (بُخَارى) وتعلم منها ابن سينا ما أرادوا ان يعلموه له . فتأثر بهذه النزعة حتى لوحظ عنده منهج الترويج (السرىّ) حتى أنه أوصى أن يدعوا الدعاة إلى عقائدهم على اعتبار أنها (سر الاسرار) . ليسهّل لهم هذا نقل آرائهم وعقائدهم[4] .

هذا : وقد عُدَّ ابن سينا من بعض مؤرخى الغرب والشرق ضمن الفلاسفة الآخذين بمذهب أرسطو – العقلى – متأثرا بالافلاطونية الحديثة – الاشراقية – فى الشرق وأن ابن سينا : قد استعان ببعض الآراء الفيثاغورية . المنسوبة إلى الاغريقى (فيثاغورس) الذى اشتهر بنزعته الاشراقية وقال :[بأن العالم : عدد ونغم] كما أستعان بالافلاطونية المحدَثة فى تفسير

---

(١) راجع ص ١٤٧ من ك (الفكر العربى) لأوليرى .

(٢) راجع ص ٢٠٨ و ص ٢٢٢ من ك (ديبور) .

(٣) راجع ص ٢١ من ك (ابن سينا) للدكتور احمد فؤاد الأهوانى نشر الحلبى . سنة ١٩٥٢م .

(٤) راجع ص ٢٠٣ من ك (فى الفلسفة الاسلامية) للدكتور محمود قاسم .

مذهبه الفلسفى[1] .

مذهب ابن سينا فى التصوف :

إعتبَر ابن سينا فى مذهبه الصوفى فكرة (المعرفة الآلهية) ويقصد بها : أن المنهج التصوفى الحقيقى هو الذى ينتهى بصاحبه إلى : معرفة الله عز وجل . ولكن هذه المعرفة . لا يمكن أن تأتى صاحبها عن طريق (العقل) . أو (الأقيسة المنطقية) بل : تأتيه عن طريق النور – الاشراق – الذى ينعكس فى مرآة النفس .

علاقة الانسان بهذه المعرفة عند ابن سينا :

إبنُ سينا يرى ان الاصول العقلية الفلسفية : تعتبر موطئة ومهدة للمعرفة الصوفية الاشراقية . بل إنه يذهب إلى أن المعرفة الفلسفية . لا تكمل الا ببلوغها مرحلة (البصيرة) . ويعتبر هذه المرحلة الاشراقية هى (تاج) كمال المعرفة الانسانية بالاطلاق .

تصوير المعرفة السينوية :

نقصد بالمعرفة (السينوية) هنا : هذا المزج بين الاتجاه الفلسفى والاتجاه الاشراقى فى (المعرفة) .. عند ابن سينا .

يرى ابن سينا : ان العقل الانسانى عبارة عن : قوة قابلة منفعلة . يتلقى المعرفة من سواه وهو غير قادر على تحصيل المعرفة المجردة . وإنما يتلقى المساعدة والعون الضرورى – البدهى – من لدن : العقل المضىء . أو (العقل الفعّال) . وهذا العقل الفعّال هو : (واحد) بالقياس إلى جميع النفوس البشرية .

والنفس البشرية وهى فى حالة المعرفة العقلية . تكون على اتصال بذلك (العقل الفعال) .

---

(١) راجع ص ١٣٨ من ك (ديبور) وص ٢٠٥ من ك (فى الفلسفة الاسلامية) د/ محمود قاسم .

ولكن هذا الاتصال : يكون (ناقصا) لتعلق النفس بالمادة وغواشيها . والنفس إذا أرادت لهذا الاتصال (كمالاً) وتماماً . فلابد : ان تتخلص من أوجه هذا (النقص) .. فإن (نجحت) فى هذا التخلص (تعلقت) فى (العالم العقلى) وكشف [illegible] وأستاره . فتحيا النفس بذلك : حياة العالم العقلى النقى .. وهنا تتلقى (إشعاع النور) .. وذلك (الاشعاع) هو الذى (منح) كل (نور) وجوده وهو قد صدر عن الموجود الأول – الله – الذى هو الكامل من كل وجه .

وهذه هى (المعرفة العليا) .. أو كما يسميها (المعرفة الإلهية) أو عرفان الحق . عند ابن سينا .

ولعله وضح لنا بجلاء : انه لا يوجد عند ابن سينا فرقا جوهريا بين : أسس المعرفة الفلسفية وبين أسس المعرفة الاشراقية . وان النفس الانسانية فى الحالتين : متصلة ومنفعلة وهى تتلقى : أنوار العالم العقلى .

واذا كان هناك من (ثَمة) فرق فانه يبرز فى : أن التلقى فى حالة (التصوف) يكون : أكمل وأتم فى حالة (التأمل الفلسفى) . ولكن كيف (يصل العقل) إلى هذا الكمال .. ؟ ..

منهج الوصول عند ابن سينا :

لكى يصل الصوفى إلى غايته عند (ابن سينا) والتى هو (المعرفة العليا) . لابد أن يسلك فى منهجه مراحل صاعدة منظمة تسلم كل (مرحلة) إلى الأخرى .

مراحل الوصول :

١ – **مرحلة الإرادة** : وفيها يشرع (المُريد) فى اتجاهة بارادته الشخصية . وهذه الارادة إما ان تنبع من العقيدة الدينية أو من المعرفة الفلسفية . فَهُما – عنده – مصدر الارادة . ولا يقصد أنهما لابد أن يقترنا .. بل يعتبر أحدهما كافيا فى تحريك هذه (الارادة) . !! .

٢ – **مرحلة الرياضة** : وهذه المرحلة تهدف إلى غايات ثلاث :

(ا) غاية تخليص النفس من علائق الشهوات والرغبات وكل ما يُشغل عن الله تعالى . وتحقق هذه الغاية : بالزهد .

(ب) غاية تطويع النفس الأمارة . للنفس المطمئنة . وتحقيق باتباع أوامر الدين واحترام شعائره من الكتاب والسنة . حتى يتحقق فى الانسان معنى (العابد) .

(جـ) غاية تصفية الجانب الباطنى من النفس . وتحقيق هذه الغاية بالتأمل والطهر والعفاف[1] .

٣ – **مرحلة الحدّ** : وفيها تؤهل النفس لاستقبال طلائع الأنوار الآلهية التى (تشرق) بمثابة (وَمَضات) لا تلبث ان تختفى . ثم يتلاشى الظلام بعودتها ثانية . وهكذا .. والنفس تستفيد بالومضات ولكنها تزداد شوقا إلى النور الدائم .

٤ – **مرحلة السكينة** : وفيها تبلغ النفس (مرفأ) الأمان وشاطىء الاستقرار . ويتحول قلقها إلى (هدوء) ، وجوهر هذه المرحلة : أن يتبدل العذاب إلى راحة . والشقاوة إلى سعادة . ولكن هذه الراحة والسعادة تكون عارية عن صفه (الدوام) إذ الانقطاع يهددها .. لأن النفس فى هذه (السعادة) تكون (سلبية) التلقى ..

٥ – **مرحلة المَلكة** : وفيها تتصل النفس بالملاء الاعلى أو بالعقل الفعال . وهذا الاتصال هو أول درجات الاتصال (الايجابى) .. وهذه (الايجابية) تصعد النفس إلى مراتب أعلى وأرقى ..

٦ – **مرحلة الدوام** : وفيها تصبح النفس (مرآة) مصقولة متجهة نحو غايتها النهائية . وهى مانحة كل حق وجوده .. وهذه المرحلة هى قمة (الوصول)

---

(١) لاحظ أحد الباحثين أن ابن سينا متأثر فى هاتين المرحلتين بالمعانى الاسلامية وبمن سبقه من الصوفية وبتاسوعات أفلوطين .

راجع ص ١٤٤ من ك (التنسك الاسلامى) د/ محمد غلاب .

وكماله . وهى على مرتبتين : —

المرتبة الأولى : أن يكون المتصوف ناظراً إما إلى :

(ا) نفسه وهى (المرأة) المصقولة .

(ب) أو إلى انعكاس النور الآلهى على هذه (المرآة) .

المرتبة الثانية : وفيها ينصرف المتصوف عن كل شيء . حتى عن نفسه . فلا ينظر الا إلى انعكاس أنوار الجلال الآلهى . وهذا هو مختتم منهج الوصول وأسمى غايات السعادة للعرفان الصوفى .

نقد :

١ – لاحظنا فى منهج ابن سينا أنه استغل الفكرة الاغريقية التى تعرف بنظرية (الفيض) أو (العقول العشرة) . واستغلها بطريقة عكسية . فبينما نجد (الفيض) فكرة (هابطة) نجد منهج الوصول السينوى . فكره (صاعدة) حتى تتصل بآخر العقول العشرة . وهى (العقل الفعال) والذى يسميه أحيانا (جبريل) أو (الروح القدس) .

٢ – جعل ابن سينا (الطاعة) نوعا من (العشق) والاستغراق فى (الذات الآلهية) . واعتبر هذا العشق بديلا لما أمر به الاسلام من العبادة والعمل . وهذا يوحى (بإسقاط التكاليف) .

٣ – اعتبر ابن سينا الاتصال به تعالى . أو الاتحاد به مغنيا عن (الثواب والعقاب) . والذى لا يكون عندما ينجح المتصوف فى بلوغ درجة العرفان ويتصف بالصفات الآلهية . وهذا ضرب من (تأليه البشر) . وُجد فى المذاهب الباطنية .

ويقول أحد الباحثين :

(فالوصول عند ابن سينا يشبه ان يكون (اتحاد بالله) أو (فناء) فيه . بل هو بعبارة أخرى : انكار للألوهية . مادام كل (واصل) له أن يدعى الألوهية لنفسه .... ويصطلح فلاسفة الاشراق وعلى رأسهم ابن سينا على

تسمية الاستغراق فى الذات مع تجرد النفس حتى تدرك ذاتها : بالفناء)[1] .

٤ – يرى ابن سينا أن (العارف) متى بلغ درجة (الاتحاد) فانه يستطيع القيام (بخوارق العادات) وهو يشير إلى مذهب المتصوفة فى تفضيل (الولى) على (النبى) ويغمز (تميز) الرسل والأنبياء بالمعجزات . عندما يصرح بأن (الخوارق) معجزات أو كرامات يمكن أن (تكتسب) بطريق التقشف والزهد .. فلا يعول على (الاصطفاء) التى ورد فى القرآن الكريم .

٥ – ابن سينا يقول باسقاط التكاليف والفرائض صراحة فى حالة (الجذب) فيقول : (فالعارف ربما ذهل فيما يصار به إليه . وغفل عن كل شيء . وهو فى حكم من لا يكلف . وكيف .. ؟ .. والتكليف لمن يعقل التكليف)[2] . فالعارف – عنده – إن اتصل بالملأ الأعلى وذهل عن الدنيا . فلا شيء عليه من إثم إن أسقط التكاليف الشرعية . فهو – عنده – فى مرتبة النائم والصبى وليس من العصاة المذنبين .

عقائد عند ابن سينا يرفضها الاسلام :

اذا اخذنا فى الاعتبار بصورة عامة ما نبّه عليه الباحثون من : بداية ظهور ملامح (فلسفة باطنية) فى العالم الاسلامى فى القرنين الأولين الهجريين . مستهدفة تقويض : العقيدة السنية فى النفوس . وأن هذه الفلسفة الباطنية وجدت عند بعض المتصوفة والمتفلسفة ومنهم ابن سينا . فانه يمكننا ان نلتقط القضايا الآتية والتى وجدت فى فكر ابن سينا . وتتسم برفض الاسلام لها . لمصادمتها لعقيدته السليمة .

١ – وحدة الوجود عند ابن سينا :

يذكر لنا الباحثون أن ابن سينا قال بفكرة (الفيض) فى (النمط الثامن) من (الاشارات والتنبيهات) .

(١) راجع ص ١٩٦ من ك (فى الفلسفة الاسلامية) للدكتور محمود قاسم .

(٢) راجع ص ٤٣٤ من ك (التفكير الفلسفى فى الاسلام) للدكتور عبد الحليم محمود . الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٨ .

وتكتمل فكرة الفيض عن ابن سينا بفكرة (وحدة الوجود) التي أخذها من (أفلوطين) . فقد سوّى بين الله والعالم حين ذهب إلى إمكان تجلي الآله أو اتحاده بكل مخلوق من مخلوقاته .

٢ – ابن سينا وفكرة الفناء (النرفانا) :

ظهر في معرض (مراحل الوصول) لمعارج السالكين : أن الوصول عند ابن سينا يشبه فكرة (الكارما) . أي الخلاص . كما تطلق عليها المسيحية . بل أنه يصرح مع غيره من الاشراقيين بهذا الاصطلاح .

٣ – ابن سينا والتناسخ :

ينبغي ان لا نخدع بفكرة (العقلانية) في فكر ابن سينا فنعتبرها اتجاها منظما لمنهج فكره .. فقد اشتهر عنه أنه كان يأتلف (المذهب ونقيضه) يعبر عن رأيه في وجه . وعن عقيدته في (التقية) بالوجه الآخر ..

وقد وضح التناسخ عند ابن سينا فيما نقل عنه في (مذهبه في النفس الانسانية) فهي عنده : جوهر بسيط مجرد عن المادة (هبط) إلى الجسم من العالم العلوي وهي في (حلولها) في البدن تشعر بغربتها وسجنها في الجسم المظلم فتحاول التخلص لاستعادة سعادتها .

والنفس عنده (قديمة) وآتية من عالم غير هذا العالم . وهذا (شبيه برأي أفلاطون – تناسخي – ممتزجا بالافلاطونية الحديثة – تناسخية – ومشروحا بها)[1] يقول ابن سينا في مطلع قصيدته (العينية) التي صرح فيها بمذهبه في النفس :

هبطت اليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك. وربما ... كرهت فراقك . وهي ذات تفجع
أنفت وما ألفت فلما وصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت شهوداً بالحمى ... ومنازلا بفراقها لمتقنع[2]

(١) راجع ص ٢٣٢ من ك (في الفلسفة الاسلامية) للدكتور عوض الله حجازي .

(٢) راجع في صحة نسبة هذه القصيدة الى ابن سيناء هامش ص ١٩٤ للدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة . في تعليقه على ك (تاريخ الفلسفة الاسلامية) لديبور .

الحلول عند ابن سينا :

يرى ابن سينا أن المتصوف متى بلغ مرحلة (الاتحاد) فانه يستطيع القيام بأعمال خارقة . لاتحاده مع الذات .

ومعنى خلود النفس عند ابن سينا هو (الاتحاد ثانية بالمصدر .... بواسطة الفيض المتعاقب ...)[1] .

وبذلك يظهر لنا الجانب الاشراقى الدخيل المؤسس على الفلسفة عند ابن سينا . وكيف أنه يبعد عن الاسلام لأنه أدار ظهره لمنابع التصوف الحقيقية وهو القرآن الكريم والسنة النبوية . وتعبّد السلف الصالح التى ما كان يعرف ظاهرا ولا باطنا .. ولكنه (الاسلام) الكامل ..

تقييم عام :

لعلنا وقفنا على بعض التصورات للاتجاه الصوفى الدخيل . حتى يمكننا التنبه لما هو من نسيج الاسلام وما هو (أجنبى) عنه .

وينبغى أن نعلم أنه ما أن أشرف القرن الثالث الهجرى حتى أصبح التصوف الاسلامى (ملجأ) للآراء الهدامة بفعل الأجانب . أبناء الحضارات المغلوبة الذين حاولوا نقل (الأساطير) إلى العقيدة الاسلامية[2] .

ورغم أن الكثير من الباحثين يتخذ (إسلامية نشأة التصوف) منهجا الا أنهم لم يستطيعوا إهمال دور (النقلة) الأجانب ..

وما نظنهم رأوا اسلامية التصوف بإطلاق .. الا بسبب (الخلط) بين معنى الزهد ومعنى التصوف . وبين التصوف الاسلامى وبين التصوف الدخيل (إشراقيا . أو فلسفيا) .

يقول أحدهم معترفا بالدخيل فى التصوف :-

(أنا لا أنكر ان التصوف فى دوره الفلسفى . أخذ يتلمس تدعيم آرائه ونظرياته من مختلف الثقافات مسيحية . ويهودية . وغنوصية ويونانية وهندية

---

(١) راجع ص ١٥٤ من ك (الفكر العربى) لأوليرى .

(٢) راجع ص ٩٣ ومابعدها بتصرف من ك (فجر الاسلام) للدكتور احمد أمين .

وفارسية ....) [١]

ملاحظات عامة :

وقد لاحظنا أن (النَّقَلة) الذين أرادوا الكيد للاسلام أسهموا بالنقل في (جميع) العلوم الاسلامية . حتى نمت كل العلوم وهي تحتوي على تيارين : —

(أ) تيار إسلامي اصيل .

(ب) تيار دخيل (منقول) بعيد عن الاسلام .

ويمكن رؤية ذلك في (علم الحديث) وكيف وجد (تيار الوضع) فيه . و (التفسير) و (تيار الاسرائيليات) . والشيعة و (تيار الغلاة) والتصوف و (تيار الحلولية ...) .. الخ .. فليس التصوف بدخيله (بدعا) بين العلوم الاسلامية[٢] .

ونستطيع القول باطمئنان : ان التيار الاسلامي هو التيار الذى ظل عالي (الجَرْس) دافق الوجود . ونحن حين نعرض للتيار (الدخيل) الذى داخَلَ المحيط الاسلامي في المجال العقائدي . فان دورنا هو : التنبيه على أمرين :

(أ) خطورة التيار الدخيل . وتمكّنه أن يصبح (عقيدة) تُعتقد في المحيط الاسلامي . مهما كانت (قلة المعتقدين) .

(ب) صفاء العقيدة الاسلامية وتماسكها وطردها لكل دخيل . بعيداً عن الاسلام . بما يؤصل في عمق معنى (التفاؤل) الواثق في انتصار العقيدة الاسلامية على كل ما يرصد لها من تيارات .

---

(١) راجع ص ٤٤ /جـ٣ من ك (نشأة الفكر الفلسفي) للدكتور علي سامي النشار . الطبعة السابعة .

(٢) بالرغم من ان علماء العلوم الاسلامية يعترفون بالدخيل ويعملون على (تنقيته) حتى ان قسم (التفسير) في كلية أصول الدين بالقاهرة . ناقش رسالة علمية عن « الدخيل » في التفسير فاننا نجد المشتغلين بالتصوف يرفضون فكرة (الدخيل) في التصوف . ويقفون ممن يقول بوجود (الدخيل) موقفا عدائيا . يمكن ان يوصف بانه : موقف ليس صوفيا . اعني : انه لايصدر عن خلق الصوفي الحقيقي من السماحة والوداعة وحب الانسانية والخير ..

مبحث
التصوف الإسلامي

حاولنا ان نوضح العلاقة بين (التصوف الدخيل) وبين التيارات الاجنبية عن الاسلام .. مبرزين أن الحكم بالدخيل يدور حول محتوى الاتجاه الصوفى . فالقضايا التى يدين بها (التصوف) . وطريق السلوك .. والدعاوى المعلنة . وغير ذلك .. بما ينطقونه قولا وينهجونه عملا .. هو الحكم الفصل فى حكمنا على هذا الاتجاه الصوفى من ناحية وثاقته بالاسلام ... فيكون (إسلاميا) أو تباعده عن الاسلام .. فيكون (دخيلا) أجنبيا ....

ميزان المنبع الاسلامى :

والميزان الذى يجب ان يكون معنا . حتى لانشتط فى الحكم على هاتيك النزعات الروحية التى تمتص جذور (المادية) من اعماق البشر . وتسمو بالانسان الى درجة سامية كريمة . تتسق مع تكريم الله لهذه الانسانية كما ورد فى القرآن الكريم (ولقد كرمنا بنى آدم) .

أقول : يجب أن يكون هذا الميزان (نابعا) من القوانين المأخوذ من المصادر الآتية :-

١ - القرآن الكريم .

٢ - السنة النبوية المطهرة .

٣ - الأثر الوارد من السلف الصالح . والدائر فى دائرة القرآن الكريم والسنة النبوية .

٤ - مأثر عن النبى ﷺ . من عمل وعبادة .

٥ - مأثر عن سلوك وعبادة الصحابة رضوان الله عليهم .

٦ - مأثرعن سلوك وعبادة رجال السلف .

ونتبه إلى أن المصدر الاساسى لينبوع التصوف هو (القرآن الكريم - السنة النبوية) . وبقية هذه المصادر إنما هي (موضّحة) لطريق العمل والسلوك لهذا المنبع الاصلى الذى بطريق (الوحى) .. فلابد ان تدور وتلف حول هذا الاصل .

وبذلك : يكون (الوحى) هو الأصل الأصيل فى عقيدة الصوفى : من الوحى يبدأ .. وبه يهتدى وينهج .. وبالوحى يرقى فى روحانيته . درجة بعد درجة .. حيث الطمأنينة من الزلل والجذب والسكر .. الخ .. لأنه - حيئنذ - فى رعاية (الوحى الآلهى) الذى اتخذه (دليلا) - إن صح هذا التعبير - يرشده الى مواطن عبادة (ألمُحْسنين) .. والتى تقوم على قاعدة (ان تعبد الله كأنك تراه .. فان لم تكن تراه فهو يراك .) .

غاية التصوف الاسلامى :-

فدرجة (الاحسان) هى (غاية) الصوفى الحقيقى .. وهذه الدرجة (إسلامية) خالصة . فالذى سأل رسول الله ﷺ هو أمين الوحى جبريل عليه السلام . عندما أقبل فيما يرويه البخارى عن عبادة بن الصامت - والصحابة جلوس حول رسول الله ﷺ . رجل شديد بياض الوجه شديد بياض الثياب . فلما دنوه على الرسول الكريم . سأله عن الاسلام . والايمان . والاحسان . وسأله : متى الساعة .. ؟ .. فأجابه رسول الله ﷺ .. ثم انصرف (الرجل) فطلب رسول الله ﷺ من الصحابة أن يتلمسوا الرجل فخرجوا يتلمسونه .. فلم يجدوه .. فعادوا آسفين فقال رسول الله ﷺ للصحابة . (هذا أخى جبريل . جاء يعلمكم أمور دينكم) .

وهذه العبارة الشريفة . توضح بجلاء . أن درجة (الاحسان) اسلامية . بل وتعتبر درجة (راقية) من الدين الذى يجب أن يعلمه المسلم . فإن يسره الله لهذه الدرجة سلكها . إذ السلوك (طاقة) . ومن هنا كان (التكليف) معبرا عن الحد الادنى (للطاقة) المتاحة لاغلب الناس (فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها) .

الإحسان مصطلح اسلامى :

وهذه العناية من (الوحى) فى تبيين معنى (الاحسان) يجعل إغفال الاسم والمسمى فى جانب (العلم) إغفالا لما جاء به (الوحى) واهتم ببيانه ...

وهذا النص يعطينا أن مصطلح (الاحسان) لم يكن معروفاً لدى الصحابة آنذاك . فكان السؤال . وكان الجواب .. تعبيرا عن سَوْقِ العليم بهذا الاصطلاح لهؤلاء المسلمين ومَنْ بعدهم .

لِمَ نهجر مصطلح (الاحسان) ؟ ..

ولذلك فنحن ندهش من (العدول) عن مصطلح (الاحسان) الى مصطلح (التصوف) .. ولايُذْهِب دهشتى ماأعلمه من أنه قد تقرر عن العقلاء : أنه لامشاحة فى الاصطلاح .. لسبب هام . وهو : ان العدول عن (مصطلح) جاء به (الوحى) .. هو فى الحقيقة (عدول) عن السنة النبوية . وهجر منهج النبوة .. الى مناهج البشر .. ولذلك ؟ فانا نتمنى أن تخرج (صيْحة) فى (ميدان التصوف) تدعو الى العودة الى (المصطلحات) الاسلامية وخاصة ماتكفل الوحى بوضعها او الموافقة عليها بلانكير .

مظهر التصوف الاسلامى :

والتصوف الاسلامى ، له مظهر فريد يختلف عن مظهر التصوف الدخيل ونستطيع أن نورده فى (المقارنة) الآتية :-

١ – التصوف الاسلامى يقوم على السلوك الاخلاق والانخراط فى العبادة حسبما ورد فى منابع الوحى .. ويدور حول الالتزام بكل الأوامر والنواحى .. بينما التصوف الدخيل يقوم على نبذ التكليف وإسقاطه وترك مفهوم الامر والنهى .. وغير ذلك ...

٢ – يحرص من يحاول بلوغ مرتبة (الاحسان) ان يتكتم محاولته فلا يعلنها للناس . فمنهج (الإحسان) منهج يقوم على عدم (الإعلان) .

وإنما هو (خاص) بالمسلم . ينشده ويسعى اليه حثيثا بجهده البشرى . وصفائه الروحى بالاكثار من الصلاة والصوم والعبادة وقراءة القرآن الكريم

والالتزام بالمبادىء الأخلاقية المثالية . التى عرفها المُسلم باسم (الوَرَع)
وهو : ترك بعض الخلال خشية الوقوع فى الحرام أو ملامسة المتشابه ..

بينما : التصوف فى الدخيل .. يرتدى ثيابا (معينة) ويرفع شارات وبيارق ملونة (للناس) كأنه يرقب منهم (الثواب) إن أحسنّا به الظن . أو كأنه : (ينافق العامة) إن أسأنا به الظن .. ويصرح بمنهج فى الوصول يتعارض مع مبادىء الاسلام وقواعده ونظرته لطبائع الامور من حيث العلاقة بين التوبة والخالق والمخلوق . وغير ذلك ..

٣ – إن المؤمنين الأوائل فى صدر الاسلام . لم يؤثر عنهم أنهم تركوا توجيها من توجيهات (الوحى) إلا واتخذوه (منهجا) يسيرون عليه . ويطوعون (حياتهم) وطرائق معاشهم لهذا التوجيه الكريم . وقد ورد أنهم ما كانوا (مستقبلين) هذه التوجيهات فحسب .. بل إنهم من فرط (تلذذهم) بالتكليف : كانوا يتلمسون هذه التوجيهات ويسعون اليها .. حتى أنهم كان (الواحد) منهم الذى شغل فى عمل نهاره يطوف بالمساء .. على من حضر مجلس رسول الله ﷺ يسأل عن (التوجيهات) الجديدة التى وردت من (الوحى) فى الوقت التى حصره عنه (الضرب فى الارض وطلب القوت) ..

ولذلك : فإنه لايمكننا أن نتصور أن هؤلاء يمكن أن يغفلوا عن منهج (الاحسان) .. ولهذا : فإنه بالتالى : لايمكننا ان نقول ان منهج الاحسان لم يكن مطبقا من صحابة رسول الله ﷺ . والتابعين . والسلف ... واذا كانوا يعلمون معنى (الاحسان) علما وتوجيها .. ويسلك من (شفت) روحه . (وصفت) نفسه . واستعدت لهذا الكمال الروحى .. (الاحسان) منهجا .. فانه – عندئذ – يجب ان نأخذ فى الاعتبار : اننا لم نشهد لهؤلاء المحسنين (مظهرا) اختلف عن (عامة) المسلمين) .. وانما كان (المحسن) – الصوفى – يعيش عيشة (عادية) يصلى فى المسجد ويتجر فى السوق . ويتزوج وينسل . وعندما يخلو الى نفسه وفى (عقر داره) كان

(يجتهد) لله تعالى . ضارعا اليه . فإن لم يجد فى (بيته) مايعينه على هذا (التهجد) .. فتح الشرع الاسلامى . له نافذة بديلة . هى (الاعتكاف) فى المسجد – (وباب الاعتكاف فى الفقه الاسلامى) واضح واصيل وهو منهج الاسلامى فى السلوك لبلوغ درجة الاحسان ....

والذى نقصده من هذا الإيراد : أن نشير الى أن (الفردية) كانت هى (المحرك) فى هذا المنهج .. فقد وجدنا أن (الفرد) المسلم هو الذى يسعى إلى (الاحسان) بنفسه . متخذا توجيه الوحى (دليلا) لبلوغ هذه المرتبة . فإنه بالرغم من وضوح فكرة (الجماعة) . وامتدادها فى مجال (العبادة) . مثل : صلاة الجماعة . والصوم المنظم فى رمضان حيث تقوم به (الجماعة) فى وقت واحد .. ومناسك الحج . وغير ذلك أكثر من أن يحصى فى العقيدة الاسلامية .. ناهيك عن معنى (الجمعة) والتعاون فى المجال (الاجتماعى) و (الاقتصادى) فى الاسلام .

أقول :

بالرغم من وضوح (الجمعيةّ) .. فان مرتبة الاحسان لكونها غاية (خاصة) للمخلوق فى تجاه الخالق سبحانه وتعالى : اتسمت بمظهر (الفردية) ومحاولة صاحبها أن يخفيها عن أعين الناس إعلاء لها عن مظنة (الرياء) . حتى الرسول ﷺ : ماوصلنا عن (عبادته) التهجدية الكثير .. وكان من طريق (أمهات المؤمنين) . وهذه (دلالة) على أن الرسول ﷺ . كان يؤثر فى عبادته لله تعالى (الاعتكاف) فى بيته . والانفراد عن الناس فى هذا السلوك ..

ويؤيدنا فى هذا من يظن أنه يعارضنا عندما يورد : أن النبى ﷺ . كان يخفى (النافلة) خشية (الافاتراض) ومظنة الوجوب عند المسلمين . وخوف (التقليد) من المسلمين كما فعلوا فى (صوم الوصال) .. فان هذا كله يجلىّ معنى (الفردية) فى مناهج العبادة التى توصل الى مرتبة : (الاحسان) التى يرضى عنها الاسلام .

بينا : نجد التصوف الدخيل . يسلمى اصحابه الى الناس يبثون فيهم (عقائدهم) . وكان المتصوف منهم يذهب الى المساجد والى مواطن (تجمع) الناس كالاسواق ويظل يصرخ بأعلى صوته حتى يتجمع عليه الناس فينطلق لهم بما يريده من عقيدة حلولية دخيلة . وكأن الناس هم (غايته)[1] .

وكانوا (يتفرغون) للناس فيجمعونهم حولهم . ويطعمونهم ويتكفلون بمعاشهم فى سبيل الانخراط فى (التصوف) كما يصورونه . حتى لقب الحلاج (بالمُطْعِم) . وقد صار ذلك معترفا به فى منهج التصوف الدخيل . حتى وجدنا (جلال الدين الرومى) يقوم بتكوين (نظام) عام يجمع المتصوفة فى (تشكيل) الجماعة وعرفت جماعاته تلك باسم (الدراويش) ... فالتصوف الدخيل (غايته) تكوين (نظام) بشرى مندمجين فى إطار واحد .. يسعى لتحقيق : أهداف .. مانعلم عنها سوى بُعْدِها عن مرتبة (الاحسان) . اذ الاسلام يرفض (استثمار) التصوف فى دعاوى (الولاية) بغرض التأثير على الناس .

٥ – الاسلام الذى يحُض على التصوف الحقيقى (الاحسان) قدم لنا مفهومه عن (الزاهد) .. فالزهادة – كما ذكر رسول الله ﷺ – ليست بتحريم الحلال – وانما الزهادة بترك الحرام .. فترك ميادين الحياة الدنيوية بالاطلاق باسم (الزهد) مفهوم خاطىء من خلال وجهة نظر الاسلام .. ولكن المطلوب : ترك (المناشط) التى حرمها الله تعالى فى هذه الحياة الدنيا . فالتجارة حلال . فلا زهد فى تركها .. و(منشط) الربا فى التجارة (حرام) وتركه (زهادة) ..

بينما : الزهد فى التصوف الدخيل .. يقوم على نبذ الحياة والعمل . والدعوة الى الكسل . وتعطيل سنن الله الكونية والفطرية التى أرادها عندما خلق الانسان ليعمر الكون . ويؤدى فيه رسالته حيث يدعو الى التخلص من الحياة المادية ويعتبر هذا التخلص هو قمة (السعادة) .

---

(١) راجع ص ٣٤ من ك (اخبار الحلاج) نشر الجندى القاهرة .

هل الاعتكاف عزلة اجتماعية .. ؟ ..

لايعتبر (الاعتكاف) فى المفهوم الاسلامى (عزلة اجتماعية) فسواء أكان فى (البيت) . أو فى (المسجد) فوقته (محدود) . واتصال (المعتكف) بالحياة الاجتماعية جائز .. وليس ممنوعا . على معنى : ان المعتكف فى المسجد يدخل عليه الناس ويخرجون . ويسلمون عليه ويردون السلام . ويحضر مجالس العلم .. بل أن البعض : أباح للمعتكف ان يقف على باب المسجد . فيشترى لبيته الشيء الضرورى . ويرسله لأولاده ... وهذا لايقطع معنى (الاعتكاف) .

وبذلك يظهر ان فكرة العزلة عن الناس :ليست إسلامية . وانما هى (هندية) تسربت الى (المسيحية) فأشاعت فيها (الرهبنة) ...

شبهة فى العزلة :

يحاول البعض من أنصار (العزلة) : أن يستدل على جوازها فى الاسلام (بتحنث) رسول الله ﷺ فى غار (حراء) قبيل البعثة فقد ورد انه كان يخرج من بيته الى (الجبل) فيمكث فى (الغار) فترة امتدت الى (الشهر) كل عام (يعتزل) فيها الناس ويتأمل فى ملكوت السموات والارض .. متخذا صفاء عقيدة سيدنا ابراهيم عليه السلام .. زادا لعزلته فى الغار .

ويخلص من هذا الى : ان الرسول ﷺ .. قد (اعتزل) الناس بقصد (العبادة) .. فيكون الاعتزال هو منهج العبادة السامية .. وعليه : فالعزلة فكرة : اسلامية .

الرد على هذه الشبهة :

١ – نحن نتفق فى أن الرسول ﷺ . قد (تحنث) فى غار حراء . بقصد (التأمل) . فى صورة (اعتزالية) ...

٢ – نحن نخالف فى أن (اعتزال) رسول الله ﷺ كان (هجراً) للحياة وانما هو كان لمدة (محدودة) لاتؤثر على حياته الاجتماعية . من : التجارة والزواج والضرب فى الأرض حيث كان يعود اليها بعد عودته من (الغار) .

٣ - ان هذا التحنث : لايخالفنا أحد فى أن الرسول ﷺ لم يتحنّث بغار حراء بعد البعثة . وأن (آخر) عهد الرسول الكريم بغار (حراء) كان بعد (بدء الوحى) . ونزول جبريل عليه السلام بقوله تعالى (إقرأ) وهذا يعطى الدلالة الآتية :

(ا) أن منهج الرسول ﷺ بعد نزول الوحى عليه . قد صار مرتبطا بالوحى . بعدما كان مرتبطاً (بتشوفه) الشخصىّ نحو الملأ الأعلى .. ومن هنا أسلم (محمد) ﷺ . منهجه للوحى لير شده ويدله . وترك اجتهاداته قبل البعثة .. فَتَرْكُ العزلة فى (حراء) بعد (إقرأ) انما هو : ترك لاجتهاده قبيل النبوة .. حيث : لاوحى .. ولا انتظار لهذا الوحى ..

(ب) بعد (النبوة) لم يتحنث الرسول الكريم فى (الغار) فدّل ذلك على أنه : لم يؤمر بهذا المنهج الاعتزالى من الوحى وبالتالى : فإن (العزلة) ليست من الاسلام .

(جـ) لماذا لايعطينا ترك النبى محمد ﷺ للتعبد فى غار (حراء) بعد النبوة : أن (العزلة) مرفوضة من (الوحى) على هذا النهج .. ؟ ...

(د) إن مايمكننا أن نفهمه من سلوك النبى ﷺ . قبل النبوة فى (العزلة) المؤقتة : أنه انخراط فيها باجتهاده كمنهج إنسانى .. فلما جاء (الوحى) .. ترك منهجه .. إلى منهج الله تعالى .. وحيث كانت الضرورة تلجىء (محمداً) ﷺ ان يتعبد بصفائه عن (مناخ) الوثنية الفاسدة . فاجتهد بهذا الابتعاد .. ولكن بعدما نزل (المنهج) الآلهى .. وتحقق وجوده بالنبوة الاسلامية .. كَمُلَ المنهج .. ووضح الطريق وتم التوجيه الآلهى للبشر جميعاً .. فلا حاجة اذن الى تلمس العبادة فى غير الطريق الذى رسمه (الوحى) .

فتمام المنهج الآلهى فى الاسلام .. هو الذى جعل الرسول ﷺ ، يترك غار (حراء) .. سلوكا .. ويتركه توجيها - فليس فى (الوحى) مايطلب من الناس هذا السلوك الاعتزالى فى الجبال والصحراء .

الاجتماعية :

وهكذا : وجدنا أن (تحنث) رسول الله ﷺ قد أوضح للمسلمين : أن هذا العمل .. كان قبل (النبوة) .. فلما نزلت وكمل المنهج .. لم يعمل هذا التحنث الاعتزالى .. فصار دليلا : على عدم جواز (العزلة) .. ولم يعط الاستدلال التى استهدفه دعاة (العزلة) فى التصوف .. باستشهادهم بهذا السلوك النبوى الشريف . فان محمدا الرسول . لم يتحنّث ولم يعتزل . بالجبال والصحراء بعد النبوة ..

التصوف الاسلامى والتطبيق :

ألمعنا الى أن صحابة رسول الله ﷺ قد عرفوا (الاحسان) علماً عاماً . ومسلكا لخاصتهم .. وقد كانوا - كما اعتقد - كلهم من (الخاصة) المحسنين .

وهذا يعطينا الدلالة على : صلاحية المنهج الروحى الاسلامى للتطبيق الانسانى فى الحياة الاجتماعية .

وظل التصوف الاسلامى الحقيقى (الاحسان) .. هو سلوك المسلمين .. يحكم حركتهم فى العبادة . والمراقبة لله تعالى فى التجارة والحرب والجهاد . والخصومة .. الخ : نابعا من صفاء العقيدة الاسلامية . متخذاً نصوص الوحى . دعامة لمنبعه ..

فلما تُرجمت (الفلسفة) فى عصر (المأمون) ودخل الفكر الدخيل . وبدأت موجات التيارات المعادية للاسلام تجتاح المحيط الاسلامى بقوة وشراسة دخل (الصراع) الفلسفى والعقائدى . مع : العقيدة الاسلامية وصفاء الفطرة .

وَهُو جِمتْ مرتبة (الاحسان) فى هذه الهجمة الضارية فاستُلِب منها الاسم الذى وضعه لها (الوحى) .. وتماوج بنظريات أجنبية . جعلت الكثير من علماء الاسلام . يتصدرون لتنقية التصوف الاسلامى من (اختلاطه) بالتصوف الدخيل والفلسفة الاغريقية ..

نجاح تجريد التصوف من الدخيل :

هل نجح هؤلاء العلماء فى تنقية التصوف .. ؟ ..

ونبادر فنقول : نعم .. فقد تم تجريد التصوف من الفكر الدخيل .. واستطاع بعض كبار الصوفية المسلمين ان يضربوا المثل على : إمكان التطبيق السلوكى للتصوف الاسلامى . كما فهموه من توجيهات (الوحى) .

وخرجت مظاهر صوفية . وُثِّقت فى (كتب) صوفية توضح الطريق لمن يريد ان يسلك الطريق الى مرتبة (الاحسان) وابتعد عن إدراك هذا المعنى .

وَوُجِدَت (شخصيات صوفية) اتخذت (التصوف الاسلامى) منهجا وطَريقا .. إذ تخضع كل افكارهم فيه إلى : القرآن الكريم والسنة النبوية .

الغزالى الصوفى

عندما نتحدث عن (التصوف الاسلامى) القائم على منابع القرآن الكريم والسنة ، فاننا نعتبر عصر الرسول ﷺ وعصر الصحابة رضوان الله عليهم ، وعصر التابعين . عصورا فهمت معنى (التصوف) . وذاقت حلاوته وعاشت عاطفته الرقيقة الدافئة .

وجوهر الاسلام لم يعرف التفرقة بين الفقه فى الدين وبين : التصوف (الاحسان) .

فالاسلام كان يأمر بالاعمال الظاهرة التعبدية ، وبجانب ذلك كان يحبذ إصلاح الباطن الانسانى . وأن يراقب العابد الله تعالى فى عبادته حتى تنبل .. قال الله تعالى : (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) . ففى هذه الآية طلب : للصلاة . بجانب طلب : الخشوع النفسى .

وهذا النهج فهمه (القرن الأول) من الصحابة والتابعين فكانوا يؤدون الشعائر الدينية ويراقبون ربهم .

وأحس المسلمون جمال العبادة . فزادوا فيها خشوع القائمين حتى وجدنا بعضهم : ينتحى نحو (الزهد) فى الدنيا . هربا من شهواتها ، والنجاء لنفسه من زخرفها .

والملفت فى (زهد) المسلمين أنه كان منهم امتثالا لما أحسوه من مرامى القرآن الكريم . فقد وجدنا من حرم على نفسه نعيم الدنيا تمسكا بقول الله تعالى (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير وأبقى) فزهدوا فى الأكل والنوم ومعاشرة الناس والملبس على حد وصف (القشيرى) : (من كان له رداء واحد خير عند الله ممن له رداءان) .

وكان : زهاد المسلمين يتبتلون ويصبرون حتى عن : الحلال الذى يكون فى متناول : الغنى والفقير وهو : شرب الماء البارد فقد فسروا قول الله تعالى : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) بأن المراد بالنعيم : شرب الماء البارد . فتركوه : خشية السؤال يوم لاينفع مال ولابنون .

وهكذا سرت المعانى الروحية فى المسلمين حتى جاء عصر الفتوحات الاسلامية وفتحت فارس والعراق فدخل الاسلام من كان : مجوسيا أو نصرانيا أو يهوديا أو هنديا . ثم جاء عصر (الترجمة) من (اليونانية) فوجد تيار فلسفى بجانب (التيارات) الأخرى فى المحيط الاسلامى .

وتضامّ كل هذه العناصر وتكونت عقلية جديدة حاولت المزج بين هذه التيارات محاولة الخروج بشىء وليد من هذه المحاولة . فكانت حركة (التوفيق) بين الدين والفلسفة .

وفى هذا الخضم تأثر (التصوف الاسلامى) فقد حاول البعض من هذه التيارات أن تنهج منهجا فى التصوف يناسب ويقارب ماألفته من سابق عهدها أو مايناسب (ثقافتها) التى بها انبهرت .

ولعل المشكلة : أن هذا البعض قد اندفع فى هذا الاتجاه بحسن نية . لأنه قد يكون تصور خطأ ان الاسلام (خِلْوٌ) من هذا الاتجاه الروحى (التصوفى) فحاول أن ينقله الى الاسلام .

وساد الجو الاسلامى : جوا غريبا على جوهر الاسلام وهو محاولة (صبغ) الكثير من قواعده وأصوله وفروعه . بتيارات غريبة عن الاسلام وقد ظهر ذلك عند (أبى يزيد البسطامى) الفارسى الاصل الذى أدخل على التصوف

الاسلامى فكرة (الفناء) وغيرها تأثراً من فارسيته . أما (معروف الكرخى) فقد كان من أصل (مسيحى) فألقى فى التصوف أقوالا غير مألوفة مثل (إن محبة الله شيء لايكتسب بالتعلم وانما هى هبة من الله وفضل) وينسب اليه أنه قال لتلميذه — (السرى السقطى) : (إذا كانت لك عند الله حاجة فاقسم عليه بى)[1] .

ربّ ضارة نافعة :—

وماهى إلاعشية أوضحاها : حتى صار التصوف الاسلامى : مرتكزا على : الفلسفة الاغريقية ووضح ذلك فى تصوف الفلاسفة الاسلاميين كالفارابى وابن سينا . او مرتكزاً على الاشراق : كما وجدنا ذلك عند باقى المتصوفة على اختلاف درجاتهم والتزامهم او شطحاتهم وسكرهم حتى ترددوا فى الحلول ووحدة الوجود .. وهؤلاء كثير .

وهؤلاء الاشراقيون التى ندت منهم (عبارات) تخالف روح الاسلام . وان تأولناها الآن : كانوا السبب فى ايقاظ الروح الاسلامية لمقاومة هذه التيارات أو محاربة التصوف عموما .

ولعل هذا يفسر لنا : الحرب الضروس التى قامت بين : الفقهاء والمتصوفة .

وفى هذا الضباب : وجدنا بعض العلماء الذين أحسوا أن العداء بين : علوم الدين والتصوف : إنما هو يدور فى فلك : الإفراط والتفريط . وصوت العقل يقتضى ان يحكم لكل اتجاه بما يجب له من أصالة تظلله بقربه من منابع الوحى الاسلامى .

وقد نبغ فى الجو الاسلامى الكثير من العلماء . ولكننا سنلقى الضوء على أشهرهم وهو (الغزالى) لانه كتب بنفسه (معاناته) فى ارساء قواعد الحق واليقين فى هذا المضمار .

---

(١) راجع تفصيل ذلك ص ٥٦ ومابعدها جـ ٢ من ك ظهر الاسلام لاحمد أمين . ط الثانية ١٩٥٧م .

حياة الغزالي وعصره

حياته :

ولد الامام : أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي عام (٤٥٠ هـ) - (١٠٥٩ م) في مدينة (طوس)[1] بولاية خراسان ، والغزالي من أصل فارسي . وكان أبوه رجلا عابدا يعمل (غزالا) للصوف ويغشى مجالس العلماء . وكان يبكي عندما يستمع الى العلم . ومرة تضرع الى الله تعالى ان يرزقه ولدا ويجعله (فقيها) ومرة أخرى أعجب بواعظ يؤثر وعظه في القلوب حتى تدمع الاعين فدعا ربه أن يرزق بولد يكون (واعظا) .

واستجاب الله سبحانه وتعالى لهذا الدعاء . فرزق بولدين هما : صاحبنا (محمد) واخوه (أحمد) الذي هيأه الله (للوعظ) ..

وقد وصف (ابن خلكان) : احمد الغزالي شقيق صاحبنا بانه كان صاحب (كرامات واشارات) غير أنه مال إلى (الوعظ) فغلب عليه .

ويذهب المستشرق (ماكدولاند) الى أن الالماني (ويستون فيلد) ذكر في كتابه عن (الشافعية) • أنه بجانب أسرة الغزالي المتدينة فقد كانت توجد (عائلته) الواسعة التي نبغ بها عدد [illegible] في العلم والدين وقد ذكر (عمًّا) للغزالي وابن عم له [illegible] ويرجع عدم شهرة هذه ([illegible] الغزالية الى سبب : شهرة الغزالي نفسه التي حجبت الشهرة عن بني قومه .

ولكننا نجد من المؤرخين المسلمين من ينكر وجود هذه الطبقة الغزالية بالاطلاق . مثل : السبكي وابن الذهبي[2] .

يُتْم الغزالي :—

وفي بداية العمر للفتى الصغير : أحس والد الغزالي بدنو أجله فدفع بولديه (محمد وأحمد) الى (صديق) له من (الصوفية) وأوصاه برعايتهما والسهر

---

(١) مدينة طوس : هدمت وهي الآن ضاحية من مدينة (مشهد) المعروفة .

(٢) راجع ص٤٨ ج١ من ك (الغزالي) للدكتور أحمد فريد رفاعي نشر عيسى البابي بمصر .

على تعليمهما . وأن يوجهها الى (طلب العلم)[1]

وقد أورد (المقريزى) نص وصية أبى الغزالى الى صديقه والتى فيها [illegible] أباه يقول : (ماكنت لاتأسف على شيء من الدنيا كأسفى على الخط[2] . وكيف لم يكن لى من معلمين وقد استدركت بعض مافاتنى فى نفسى من ذلك . وأحب منك ان تتم لهما ماعليهما ولاعليك الا يقع لهما شيء بعد تعلمهما) .

فلما مات ابو الغزالى نفذ الوصى (الصوفى) الوصية . فطفق يعلمهما وينفق عليهما مما ترك لهما أبوهما . ولكن المال اليسير فنى بعد مدة وجيزة وقبل أن يُتم (اليتيمان) التعليم . وأنتاب الوصى القلق على هذين الغلامين . فقد فنى (المال) قبل أن يُنفذ بالتمام (وصية) صديقه الذى قضى نحبه . وأعان الله هذا الوصى الامين على الوديعة . فألهمه أن يدخل (الغلامين) مدرسة (داخلية) تطعم وتكسى وتؤوى طلابها . وتفرغ طلابها لطلب العلم فقط دون سعى او اضطراب لكسب القوت .

وبالفعل : حدّث الوصى الغلامين قائلا : (إعلما أننى قد أنفقت عليكما ماكان لكما . وأما أنا فرجل من الفقر والتجريد بحيث لامال لى أواسيكما به وأصلح حالكما .. فهل لك ما أن تلجأ الى المدرسة طلب الفقه[3] .

الغزالى طالب النظامية :

ودخل الغزالى [illegible] (المدرسة النظامية) وعكفا على طلب العلم وتحققت [illegible] الاب الصالح .

وقد لخص الغزالى فى قوة . توجيه الله تعالى له ولأخيه بقوله : (طلبنا العلم لغير الله – يقصد رغبة فى الإيواء والإعاشة – فأبى الله إلا أن يكون له .) .

---

(١) ولعل هذه البداية (المتصوفة) هى التى تكون قد لفتت نظر الغزالى الى حياة ومنهج الصوفية .

(٢) يقصد عدم تعلمه القراءة والكتابة .

(٣) يروى السيوطى عن ابن السبكى قوله : ان نظام الملك لم يكن أول من أنشأ هذا النوع من المدارس .

تعلمه :

وقد أخذ الغزالى طرفا من الفقه فى صباه بمدينة (طوس) على الامام (أحمد الزادكانى) . ثم قدم (نيسابور) مختلفا الى درس (إمام الحرمين) مصاحبا طائفة من أقرانه الذين وفدوا معه من (طوس) .

وقد لفت الغزالى الأنظار إليه بجده واجتهاده حتى تخرج فى مدة وجيزة . وقدبزّ كل الاقران وحمل القرآن الكريم . وصار أعلم اقرانه فى ايام (إمام الحرمين)[1] حتى لقد روى عنه : أن زملاءه الطلاب كانوا يستفيدون منه . وانه كان يرشدهم .. بل ورد انه بدأ فى (التصنيف) والتأليف فى مرحلته الطلابية تلك . وقد درس على (امام الحرمين) علم الكلام .

وقد أورد بعض الكاتبين : أن أستاذه (امام الحرمين) كان لايصفى نظره – لايرتاح – الى الغزالى بسبب نبوغه وذكائه وسمو عبارته وقوته فى المنطق والكلام (وهذا لايخفى من طبع البشر)[2] .

وخرج الغزالى من (نيسابور) بعد وفاة استاذه (إمام الحرمين) ووصل الى مدينة (العسكر) واستقبله بها الوزير (نظام الملك) وأنزله منزلة رفيعة لمكانته العلمية وعلوهمته ودرجته وحسن مناظرته .

وكان مجلس (نظام الملك) محط العلماء ومرتاد (الأئمة ومحضر الفصحاء والبلغاء .

وفى هذا (المجلس) احتك الغزالى بالعلماء فناظر وناقش ونقد .. فظهر اسمه فى الآفاق حتى سارت بذكره الركبان .

وعقد الغزالى العزم على ترك (نيسابور) والذهاب الى (بغداد) للتدريس فى المدرسة (الميمونة) فذهب اليها ، وأعجب الكل بتدريسه حتى صار (إماما) فى بغداد . كما كان (إماما) فى خراسان[3] .

---

(١) هو عبد الملك الجوينى (ت ٤٧٨هـ) .

(٢) راجع ص١٠٢ من ك (المنقذ من الضلال) تحقيق د / عبد الحليم محمود .

(٣) كان إسناد التدريس له ببغداد سنة ٤٨٤هـ .

وفى أثناء وجوده فى بغداد : اشتغل بالفلسفة يحاول أن يتعمق فيها . ولم تكن دراسته لها من منطلق شغفه العلمى . بل يرى بعض الباحثين أنه (شوق قلبه الذى كان يريد المخرج من الشكوك التى كان يثيرها عقله . ولم يكن يحاول الوصول الى معرفة تكشف له أسرار ظواهر الكون) . (ولاكان يرمى الى تسديد تفكيره بل كان ينشد طمأنينة القلب وتذوق الحقيقة العليا .

وقد درس – الغزالى – مصنفات الفلاسفة ولاسيما الفارابى وابن سينا . ودراسة وافية . وقد ألف مختصراً جامعاً فى الفلسفة ..)[1] .

وقد تلقى (الغزالى) العلم عن بعض علماء الشريعة فوقف على مبادئها وأصولها . فقد (رحل الى جرجان فدرس على ابى نصر الاسماعيلى)[2] .

ثم نظر فى علم (الاصول) فصنف فيه تصانيف عدة . أشهرها « المستصفى » ونبغ فى الاستنباط الفقهى . فألف فى الفقه كتبا وصار الغزالى معقد (الفُتْيا) فى عصره فى (بغداد) عاصمة الدولة الاسلامية الكبرى . وكان يعامل بالتقدير والتكريم فى دار الخلافة أكثر مما يعامل به الأمراء وأكابر القوم .

ويصف الغزالى بنفسه هذه المرحلة من حياته فى كتابه (المنقذ من الضلال) والذى عقده لبيان (تجربته) النفسية الذاتية فيقول :

(ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل العشرين الى الآن . وقد أناف السن على الخمسين . أقتحم لجة هذا البحر العميق . وأخوض غمراته خوض الجسور لأخوض الجبان الحذور . وأتوغل فى كل مظلمة واتهجم على كل مشكلة . واقتحم كل ورطة واتفحص عقيدة كل فرقة . واستكشف أسرار مذهب كل طائفة . لأميز بين محق ومبطل . ومتسنن ومبتدع لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على – بطانته ولاظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل

---

(١) راجع ص٢٤٨ من ك (تاريخ الفلسفة فى الاسلام) لديبور ترجمة ابو ريدة ط . الثالثة سنة ١٩٥٤م .

(٢) راجع ص٢٧٥ من ك (فى الفلسفة الاسلامية) د : عوض الله حجازى .

ظهارته . ولافلسفيا ولامتكلما إلا واجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته . ولاصوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته . ولامتبعداً الا وأترصد مايرجع اليه حاصل عبادته . ولازنديقا معطلا الا وأتحسس وراءه للتنبيه لاسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش الى إدراك حقائق الامور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله سبحانه وتعالى وضعها فى جبلتى لاباختيارى وحيلتى حتى انحلت عنى رابطة[1] التقليد وانكسرت عنى **العقائد** الموروثة على قرب عهد بسنى الصبا) .

الغزالى حجة الاسلام :

وهكذا رأينا كيف تكوّن الغزالى علمياً .. وكيف استطاع ان يطرق جميع جنبات العلم الذى عاصره . ولم يكن يقنع بالتحصيل وانما كان يدير عقله فى كل مايحصله حتى يصير له (ناقداً) فيزيد – فيما يعلم ويُنْقص ، كل هذا بين اعجاب الاساتذة وبَهْت الطلاب . حتى نَفَس عليه بعض القوم هذه المنزلة بل لقد ورد أن بعضهم (نفث) سمّ هذا الحسد عند السلطان .

وهذا التكامل العلمى ، والأفق الواسع المدرك صار معقد الفتيا ، وصار كل المسلمين يعتقدون فى علمه ، ويحتجون بقوله ، وفتاويه حتى أطلق عليه لقب (حجة الاسلام) .

والذى يعنينا من هذا كله ونحن بصدد دراسة جانب (التصوف) فقط عند الغزالى هو : القول بأن الغزالى عند ما يترك هذا كله ويلجأ إلى (التصوف) فانما ذلك منه بمثابة (فتوى) بأن (التصوف) منهج إسلامى وإن المسلمين عامة والعلماء بصفة خاصة يجب ان يجعلوا له نصيبا فى حياتهم .

وكأن الاتجاه الى التصوف من (حجة الاسلام) كان دعوة صريحة الى كل : من كثر علمه وزاد قلقه والتاعت نفسه شوقا الى مزيد من المعارف التى تقصر لها معارف الانسانية .

---

(١) راجع ص١٠٩ ومابعدها من ك (المنقد من الضلال) تحقيق/ د عبد الحليم محمود .

يأتى الغزالى فيدعو هؤلاء الى الولوج فى (دائرة) التصوف ليذوقوا معنى العلم وليدركوا مالا يمكن ان يدركوه بالتحصيل .

فالتصوف – من هذا المنطلق – لم يكن هروبا أو فرارا كما يحاول البعض أن يصوره ، وانما التجربة الصوفية عنده : كانت استكمالا لعلمه وتتويجا لمعارفة وكأنه اراد ان يقول لنا :

اننى أنفقت طوال حياتى : أحصل العلم من العلماء . فلأدخرن منها بعض سنى عمرى لتحصيل مالأعلم من التصوف .

وقد حصّل الغزالى من هذا الباب الكثير من العلوم والمعارف منها ماذكر هنا ومنها مارفض ذكرها وعبر عنها بقوله :

فكان ما كان مما لست اذكره

فظن خيرا ولاتسأل عن الخبر

عصره :

عاش الغزالى فى العصر العباسى الذى انتشرت فيه الحركة الفكرية . ووجدت الأفكار والعقائد التى وفدت على المحيط الاسلامى العناية والتفهم من المسلمين . فزادوا فى (روافدها) .

وماهى الا فترة حتى وجدنا أعداء الاسلام قد استغلوا سماحة العقيدة الاسلامية فى تقبل الفكر العقلى الذى تمثل فى (الترجمة اليونانية) فى عصر (المأمون) والترجمة الفارسية والتناظر والتجادل بين أصحاب العقائد التى هزمها الاسلام .

وصور للناس بطريقة خادعة أن (التحرر) من (الإلف) واتباع الجديد هو التحرر الفكرى .

وقد عنوا (بالإلف) : التراث الاسلامى ودعوا الناس الى التعلق ببضاعتهم وللأسف وجدنا بعض الناس يصدقون هذه الدعاوى باسم التحلل من القيود والخروج على التقليد .

وقد انقلبت السماحة الفكرية التى دعى اليها الاسلام الى فوضى مسرفة ،

حتى لقد انتصر (المأمون) للمعتزلة فى (خلق القرآن) .

وكان نتيجة هذا : التحول الخطير فى الاتجاه الفكرى واعنى به : ان الاسلام منح مخالفيه (حرية) الفكر والمناقشة . فلما ملكوا هم لم يمنحوا الاسلام ولاعلماءه ماسبق أن منحه لهم الاسلام .

وبذلك تكاثرت (الملل والنحل) الفاسدة وصارت تحمل فى طياتها كلاما لايمكن ان يصدر من عاقل . وصار كل من يتعرض لنقده من العلماء يهاجم ويعاقب بل وينفى من الارض .

وبردت العاطفة الدينية بعد دخول (الفلسفة) فى جوانح طلاب العلم . اذ صورت لهم الكثير من المشكلات العقلية على (هيئة) تبدو كأنها (الصدق) فى ضوء : الانبهار بالاغريق .

وقام (الفارابى) و (ابن سينا) بالاستحواذ على عقول طالبى العلم وصار التصور الفكرى يخلط علوم الدين بفلسفة الاغريق .

ونتج عن ذلك : كثرة الخلاف بين المسلمين واتساع حركة (التأويل) فى النصوص الدينية ليتم التوفيق بين ماظنوه الحق فى الفلسفة الاغريقية . وبين مااعتقدوا أحقيته فى القرآن الكريم . وطفح على السطح حركة علمية عرفت فيما بعد باسم (التوفيق بين الدين والفلسفة) .

وقامت المعارك الضارية بين الفلاسفة والفقهاء والمحدِّثين واهل الفرق والأهواء واختلط الحابل بالنابل . حتى أدلس الامر على الناظر .. فلم يُعْرف لِمَ يتقاتلون خاصة عندما وجدنا (الاحناف) يتقاتلون مع (الشافعية) و(المحدِّثون) مع (الفقهاء) ... الخ هذه الأمور التى أضرت المسلمين .. وأعاقت البحث العلمى والتقدم السياسى والاقتصادى .

وهذه سمة كل العصور الاسلامية فاننا وجدنا أن أعداء المسلمين لم يستطيعوا ان ينالوا منهم شيئا وهم يستظلون بالوحدة والاعتصام بالله حتى ولو كانوا قلّة .

وانما يأتيهم عدوهم ويهزمهم – ولو كانوا كثرة – يوم أن يكون بأسهم بينهم ويتناحروا ويختلفوا على أنفسهم وينقسموا الى فرق وشيع وجماعات .

والأمر العجيب حقا : أنهم يفعلون ذلك فى ظل العقيدة الاسلامية التى يُقر لها الجميع : أنها تدعو الى الوَحْدة والاعتصام بحبل الله .

ولم يقتصر الأمر على المشرق الاسلامى بل امتد إلى (المغرب) الاسلامى (الأندلس) .

والتاريخ حافل بصور الخصومات : بين الأشاعرة والمعتزلة وغيرهما فى علم الكلام .. وكل هؤلاء – بجانب أهل البدع – يتخذ من الفلسفة سنداً لرأيه او استدلاله ويستعين بها فى تخطيىء الخصم حتى صارت الفلسفة (النهر) الذى يعترف منه كل الذين يتجادلون ويتناحرون .

والخلاصة :

أنه وسط هذا الجو العلمى وُجد الغزالى فنشأ وحوله هذه المعارك العلمية الطاحنة وماكان مثل الغزالى بالذى يستطيع أن يغمض عينيه عما يجرى حوله دون ان يزنه ويقيسه بمقاييس الاسلام . حتى انه حارب كل مارآه باطلا وخص الفلاسفة بكتابه الذى قضى على الفلسفة فى الشرق وهو (تهافت الفلاسفة) .

مرضه المفاجىء :

بينما الغزالى على رأس (المدرسة) العلمية فى (بغداد) ويعيش عيشة راضية ويحيا فى دعة وطمأنينة تحفه السكينة . ويطربه الانس بالطلاب التى شدوا اليه الرحال من كل صوب لينهلوا من علمه ويتزودوا من نهره .

بينما هو كذلك : إذ ألَمَّ به مرض مفاجىء وداهمته (علة) مجهولة غير معروفة آنذاك ، وذلك بأنه قد وجد لسانه قد (اعتقل) منطقه . فعجز الغزالى عن الكلام وتابع ذلك كراهيته للطعام فجافاه بعد أن فقد تذوقه . واحتار (الاطباء) فى أمره . ولما دب اليأس من شفائه عندهم قالوا له : (هذا أمر ينزل فى القلب مالا رجاء فى حياته . اذا لم يتغلب على مشاغل نفسه ولم يخفف من وطأة إجهاد ذهنه او على حد تعبيره فى اعترافاته – المنقذ من الضلال – إذا لم يتروح السر عن الهم الملم)[1] .

---

(1) ص١١١ من ك (الغزالى) .

عزلته :

عندما مرض الغزالى وعقل لسانه غادر (بغداد) معلنا أنه قاصداً (الحج) بعد أن اناب اخاه (احمد) عنه فى (المدرسة النظامية) .

وكتب (الغزالى) وصية أوقف فيها كل مايملكه على ورثته على أعقابهم . فاذا زال (العقب) الوارث فيؤول (ربع) الوقف الى :

١ – المُسبِّحة : وهم قوم يعبدون الله تعالى ويملأون مابين الصلاتين بتسبيح الله تعالى . وهم لايفترون عن هذا التسبيح . حتى لقبوا (بالمسبّحة) وهؤلاء لم يخوضوا فى الفِرَق والمذاهب أو العقائد . أو حتى طرائق التصوّف إنما فقط كان : يسبحون الله تعالى :

ويبدو من وصية (الغزالى) مدى اعجابه بهذا اللون من العبادة التى لاتلبسَ ثوبا غير ثوب الاسلام .

٢ – المدرسة النظامية فى بغداد : ويعدّ هذا من الغزالى إقرار بفضل هذا النوع من المدارس عليه . فأراد أن يرد بعض هذا الجميل .

وقد تعجب الفقهاء والعلماء من عَزلته المفاجئة عن الحياة الاجتماعية خاصة : وقد بلغ الغزالى منزلة رفيعة من أهل العلم والسلطان حتى وجدنا بعضهم يقول بعدما عجز عن تلمس السبب (هذا أمر سماوى وليس له من سبب غير عين أصابت الاسلام فيه – حجة الاسلام)(١) .

وقد اتسمت (عزلة) الغزالى المفاجئة بزهده فى الحياة والمناصب والشهرة .

وقد أفصح الغزالى عن السبب الحقيقى لعزلته وهو أنه شعر بضغط نفسى عليه حتى حمله هذا الأمر النفسى على اعتقاد : أن لامطمع له فى سعادة الآخرة الابالتقوى وكف النفس عن الهوى . وأنه لاسبيل الى هذا كله سوى : قطع علائق القلب عن الدنيا .. وهذا لايتم إلا بالاعراض عن الجاه والمال والسلطان والهرب من الشواغل والمشكلات الدنيوية .

يقول الغزالى فى (المنقذ من الضلال) :

---

(١) راجع ص١٠٩ من ك (الغزالى) د/ احمد رفاعى .

(ثم تفكرت فى نيتى للتدريس فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أنى على « شفا جرف هار » وأنى قد أشفيت على النار إن لم اشتغل بتلافى الاحوال . فلم أزل اتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما . وأهل العزم يوما . واقدم فيه رجلا . وأؤخر عنه اخرى لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة .. إلا ويحمل عليها جند الشهوة : حملة فتفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام . ومنادى الايمان ينادى : الرحيل الرحيل .. فلم يبق من العمر الا القليل وبين يديك السفر الطويل . وجميع ماأنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل . فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وان لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة إياك ان تطاوعها فانها سريعة الزوال . فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، وتركت : السلم الصافى عن منازعة الخصوم . ربما التفتت اليه نفسك ولايتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر أولها رجب سنة : ثمان وثمانين وأربعمائة وفى هذا الشهر : جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس فكنت اجاهد نفسى أن ادرس يوما واحدا تطبيباً للقلوب المختلفة إلىّ . فكان لاينطق لسانى بكلمة واحدة حتى أورثت هذه العقدة فى اللسان حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم ....)[1]

ويتابع الغزالى وصف حالته فيقول :

(ثم لما احسست بعجزى . وسقط بالكلية اختيارى التجأت الى الله تعالى : التجاء المضطر الذى لاحيلة له . فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه وسهل

---

(١) راجع ص١٧٣ من ك (المنقذ من الضلال) تحقيق د/ عبد الحليم محمود .

على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والاولاد والاصحاب)[1] .

منهج التصوف بعد اختبار :

لم يلق الغزالي نفسه في بحر التصوف . هكذا ابتداء بل إنه (اختبر) مناهج العلوم الاخرى فوجدها إما تحتوى على الباطل أو خلط فيها بين الحق والباطل أو بها (نقص) في المنهج والمسائل . وهي أن وَفَتْ بمقصود أصحابها . وأرضتهم عن قناعة . فهي لايكمن أن تفي بمقصود الغزالي او ترضى نفسه الكبيرة او تطفىء طموحاته وتطلعاته الكبرى .

الشك طريق الاختبار والاختيار :

إنتهى التلهف العلمي والبحث عن الحقائق وطلب الاستقصاء في الدراسة الذى عاشته عقلية الغزالي الفذة الناقدة . إنتهى هذا بالشك .. فقد (شك) الغزالي في كل ماسمع ومايسمع وكل ماقرأ ومايقرأ . بل أنه (شك) في كل مايقول ومايقال له . والأمر الخطير أنه شك فيما يعتقد .

وقد كان هذا (الشك) عنيفا حادا شاملاً عاماً – طيلة شهرين – هو فيهما – كما يقول الغزالي عن نفسه – على مذهب السفسطة بحكم الحال لابحكم النطق والمقال .)[2]

ولكن هذا الشك المطلق الشامل العام تبخر وزال لابنظم دليل وترتيب كلام (بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر) .

وبهذا (الشك) كان الغزالي (تائها) في صحراء الحقيقة وكان (طوق) النجاة هو ذلك النهر الذى قذفه الله تعالى في قلبه .

الالهام بداية التصوف :

وبذلك كان الالهام بداية لِنُشْدَانِ الحقيقة واستخلاص الحق الذى تاه عنه . وكأنه قد أفاق بعد غفوة واستبصر بعد عمى . واسترشد بعد ضلال .

---

(١) راجع ص١٧٥ من المرجع السابق .

(٢) راجع ص١١٥ من (المنقذ من الضلال) للغزالي .

وهذا (الشك) هو مايعبر عنه (نُقّاد) الفلسفة باصطلاح : الشك المنهجي[1] .

وبهذا النجاة من الشك لم تنته مشكلة الغزالي مع (الشك) بل حل محله (شك) من نوع جديد .

ويصف أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود هذا الشك الثاني بأنه : هين سهل ، ويقصد : بالنسبة الى الشك الاول .

ويقول : (وهذا الشك الثاني إنما هو : شك في طريق النجاة انه – الغزالي – الآن يؤمن بالله وبالرسالة وبالبعث . ولكن ماهي الكيفية التي يتكيف بها الايمان فيما يتعلق بهذه الجوانب الثلاثة[2] ؟

طريق النجاة :

طفق الغزالي بعد أن قسم (طلاب الحق) إلى أصناف وحصرهم حصراً علمياً . عكف على دراسة كل صنف وكل فرقة .. ولم تكن دراسة الغزالي لهؤلاء بصورة إجمالية تحصيلية فقط . بل كان يتوجه إلى كل صنف أو فرقة على حدة ، فينظر أصلها وعقيدتها ويتفحص اقوالها ويتصفح مالديها .

وقد انحصرت لدى الغزالي الفرق الى اربع هي :

١ – المتكلمون : وهم يدّعون انهم اهل الرأى والنظر .

وقد بدأ الغزالي بدراسته فوجده لايشفي غلته . فيكفي عيبا في علم الكلام – عند الغزالي – أن اكثر المشتغلين به يتمدون إلى (استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم وهذا قليل النفع في حق من لايسلم سوى الضروريات شيئا أصلا فلم يكن الكلام في حقي كافيا . ولادائي الذى أشكوه شافيا ..) وعاب الغزالي على المتكلمين خوضهم في البحث عن (الجواهر والاعراض) وأحكامها . حيث لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى

---

(١) هذا الشك المنهجي بداية (البناء) ودائما يوصل الى الحقيقة . أما شك غيره من أصحاب المذاهب الفاسدة فإنه شك دائم ولذلك فهو يهدم .

(٢) راجع ص٤٠ من ك (المنقذ من الضلال) .

(فلم يحصل منه مايمحو بالكلية ظلمات الحيرة فى اختلافات الخلق)[1] .

وينصف الغزالى فى براعة العلماء من يجد فى دراسة علم الكلام وفاء لمبتغاه وإرضاء لما يعتمل فى صدره حول العقيدة فيقول :- (والغرض الآن حكاية حالى لا الإنكار على من استشفى به فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء وكم من دواء ينتفع به ويستضر به آخر)[2] .

٢ - الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم اهل المنطق والبرهان .. وقد ظهر للغزالى أصناف (الفلاسفة) الثلاثة (الدهريون والطبيعيون والآلهيون) ووجد : زندقة الدهرية واضحة كما وصف (الطبيعيين) بالزندقة لكفرهم باليوم الآخر وإن آمنوا بالله تعالى وأما الفلاسفة (الآلهيون) فقد وجد لديهم من الآراء مايكفرون به ومنها مايبدعون به ومنها مالايكفرون به .

ووصل الغزالى بعد دراسة الفلسفة إلى أن لها (آفة) فى القبول وآفة فى الرد . وعلى العاقل أن يتناولها بحذر وهى مع ذلك لم تقنعه طريقا للنجاة . لأن العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ولاكاشفا للغطاء عن جميع المعضلات .

٣ - الباطنية : وهم يزعمون أنهم اصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

ووجد الغزالى هذا المذهب يدعو الى الحاجة الى التعليم والمعلم (وأنه لايصلح كل معلم بل لابد من معلم معصوم) .

وقد نقد الغزالى هذا الاتجاه وأنه يستدرج العوام وضعفاء العقول (فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم)[3] .

٤ - الصوفية : وهم (يدّعون) انهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة .

---

(١) راجع ص١٢٤ من ك (المنقذ من الضلال) .
(٢) راجع ص١٢٥ من المرجع السابق .
(٣) راجع ص١٦٩ من ك (المنقذ من الضلال) .

ونلاحظ أن (الغزالى) وصف الاصناف المرفوضة عنده بأنهم (يزعمون) وعند حديثه عن (التصوف) وجدناه يقول : (يدعون) فدل ذلك على : تنسم البداهة المذهبية له وأنه اختار (التصوف) ورجحه على بقية العلوم الاخرى التى خبرها . ومع رفضه (للكلام) فانه لم يحكم ببطلانه .

بداية الطريق الصوفى للغزالى :

عندما استقام لدى الغزالى أن (التصوف) هو طريق (النجاة) عزم على أن يسلك طريقه .

ونكاد نلمح أول خصائص التصوف كما فهمه الغزالى من تصرفه .. وأعنى به : الفردية والكتمان .. فإننا نجد أن الغزالى عندما أزمع (العزلة) وبدء المجاهدة لنفسه لم يعلن ذلك للناس . وإنما كما يقول من نثق فى تقريره : (تلطف الغزالى بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد مظهرا عزم الخروج إلى مكة .. وهو يدبر فى نفسه : السفر إلى الشام .. وسار يحدوه الأمل العذب فى المعرفة ويغمر قلبه الرجاء القوى فى الفتح .. يتفضل الله به عليه . كما تفضل على من سلف من الأولياء والعارفين)[1] .

وهكذا : ندرك البداية التى اختارها (الغزالى) لتصوفه عزلة .. وفردية .. وتخف عن الناس .. فهذا الطريق يقصد به الله تعالى وحده .. واشراك الناس فى تقريره أو تقديره : ينقص منهجه ان لم يلغه ..

وما أن تحصن (الغزالى) بالاستهلال الاسلامى للتصوف حتى دخل فى منهجه والذى قام على : –

١ – العزلة والخلوة .

٢ – الرياضة والمجاهدة .

ولا شغل له سوى : العمل على تزكية النفس والارتقاء بالأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى .

---

(١) راجع ص ٤ من مقدمة ك (المنقذ من الضلال) للدكتور / عبد الحليم محمود .

ولعلنا نجد فى منهج (العزلة والخلوة) بداية للتجربة الصوفية ، وهذه التجربة الصوفية تعبر فى حقيقتها عما اعتمل فى صدر (الغزالى) من معان روحية .. فقد وجد نفسه مشغولا فى الحياة منغمسا فى علائق المادة .. فما زاده هذا الا اضطرابا وقلقا ..

ولما كان يريد ان ينتقل من حال (القلق) إلى حال الهدوء والاستقرار ...

كان لابد – فى نظرنا – ان يبدل حاله إلى (الضد) ان كان يروم نجاح تجربته .

ومن هنا : كان اجتهاد (الغزالى) فى العزلة والخلوة .

وهى وان لم تكن (اسلامية) خالصة .. إلا أنها كانت منه بمثابة : رد فعل .. لما كان يجتاح نفسه من عوامل وتيارات جعلته يحس بتلاطم أمواجها داخل وجدانه

ولذلك ؛ فإنه عندما أراد الفرار من هذه (الدنيا) لم يجد أمامه – خاصة بعد ما طبقت شهرته الافاق – سوى طريق : العزلة والخلوة .

مئذنة دمشق :

واتخذ الغزالى لعزلته وخلوته مئذنة مسجد دمشق فكان يجلس فيها طوال النهار ويغلق بابها عليه[1] .

ويظهر لنا : ان الغزالى : حتى فى عزلته لم يشأ أن يكون فى حالة ابتعاد كامل عن المجتمع بل كان يقصد : الجامع الكبير بدمشق العامرة بالسكان وإنما كل الذى فعله هو خلوه إلى نفسه فى (مئذنة) هذا المسجد .

ولعلنا لا نغالى اذا قلنا : إن عزلة الغزالى تلك وخلوته أشبه ما تكون (بالاعتكاف) المقرر فى الشريعة الاسلامية . فلم يفزع (الغزالى) إلى

---

(١) وسنجد ان الغزالى بعد فترة من الزمن سيرفض هذه العزلة ويغادر (خلوته) ويعود مرة أخرى الى الحياة الاسلامية الاجتماعية يعمرها ويعبد ربه .. ويدافع عن الاسلام .

(جبل) أو (كهف) أو (مغارة) أو (مفازة) معلنا عن هجرته للناس ودنياهم تاركا الحياة .. التى هي (هبة) الله تعالى للانسانية جمعاء ولذلك لا يمكن ان يكون الغزالى هو الذى يرد (هدية) الله عليه .

ثمرة الخلوة والمجاهدة :

نقل (الشعرانى) فى كتابه (الأجوبة المرضية) عن الحسن الاكبر وصف الغزالى لنفسه حال : الخلوة . وكيف أثمرت فيه (علوما) لم يكن له بها عهد . فقد كان الغزالى يقول : كلما أردت أن أنخرط فى سلك القوم . وأشرب من شرابهم نظرت إلى نفسى فرأيت كثرة حجبها – ولم يكن له شيخ آنذاك[1] . فدخلت الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما . فانقدح لى من العلم ما لم يكن عندى أصفى وأرق منه مما كنت أعرفه فنظرت فيه فاذا فيه قوة فقهية . فرجعت إلى الخلوة واشتغلت بالمجاهدة والرياضة أربعين يوماً . فانقدح لى علم آخر . أرق وأصفى ما حصل عندى أولاً . ففرحت بذلك ثم نظرت فيه فاذا فيه قوة نظرية . فرجعت إلى الخلوة ثالثاً : أربعين يوماً فانقدح لى علم آخر هو أرق وأصفى . فنظرت فيه فاذا فيه قوة ممزوجة بعلم ولم ألحق بأهل العلوم اللدنية . فقلت : إن الكتابة على : (المحو) ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطهارة الاولى) .

ونجد من يعقب على هذا بقوله : (رحم الله أبا حامد ما كان أكثر انصافه وتحرزه عن الدعوى)[2] .

ولعل هذا التعقيب نابع من أن الغزالى لم تضمه خلوته ولم تشمشع عقيدة ببعض (الدعاوى) التى تأباها العقيدة الاسلامية .. فقد تحرز الغزالى عن دعوى مثل (ما فى الجبة الا الله) وغيرها من الدعاوى التى تحدث اضطرابا

---

(١) هذه جملة معترضة من الامام الشعرانى توضح رأيه فى موضوع (الشيخ والمريد) ولكن – عموما – كما لمحنا من الغزلى أنه يمكن أن يكون المسلم متصوفا بدون (شيخ) جاعلا شيخه : رسول الله ﷺ .

(٢) راجع ص ١٤٧ جـ ١ ومابعدها من ك (الغزالى) د/ احمد رفاعى .

فى نفس (نُقّاد) التصوف ودارسيه . حيث لم ولن تتح لهم الظروف أن يصلوا إلى أعماق قائلى هذه الدعاوى أو أن يسبُروا نيّاتهم - فهذه أمور قد خفيت . واختفت .. وتبقى أمامنا (الشروخ) التى أحدثتها هذه (الدعاوى) ..

ويصف المستشرق (ديبور) حال الغزالى فيقول : --

(والحق أن مطامح الغزالى كانت أوسع من هذه الدنيا وأعمق .. وفى أثناء مرض أصابه هتف به هاتف باطنى .. فاشتغل بالعزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة استعداداً للقيام بمهمته . وربما كان ينوى الظهور بمظهر دينى سياسى . وبينما كان الصليبيون يتأهبون فى الغرب لمهاجمة الاسلام . كان الغزالى يتهيأ لأن يكون مناضلا روحيا عن الدين الاسلامى ..)[1] .

ويجب علينا ان نأخذ بحذر (توصيف) المستشرقين للآراء والرواد الاسلاميين . وهنا لاحظنا أن (ديبور) يحاول أن يجعل من تصوف الغزالى : مجرد حركة (متعمدة) بهدف لفت الانظار اليه حتى يتمكن من زعامة روحية تهيىء له القيام بدور سياسى وهذا خطأ فى : التفسير والتوصيف .

ولا يجب أن نحسن الظن بأولئك الذين يريدون أن يستلبوا من (حجة الاسلام) صورته (المنهجية) التى أشاعت الرواء فى المحيط الاسلامى وأكدت أن التصوف الاسلامى طريق ومنهج . دون الاعتماد على دعاوى مزيفة أو الاتكاز على الإشراق الهندى أو الفلسفة الفارابية أو السينيوية .. .

متصوفة أثروا فى الغزالى :

يذكر الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) أنه قد أخذ العلم من مطالعة كتاب (قوت القلوب) لابى طالب المكى . ومن مطالعة كتب (الحارث المحاسبى) ومن تأثره وإدراكه لإشارات (الجنيد) و (الشبلى) و (أبى يزيد البسطامى) .

---

(١) راجع ص ٢٥٠ من ك (تاريخ الفلسفة فى الاسلام) ترجمة ابو ريدة .

وخرج الغزالي من هذه (المطالعة) بأن التصوف لا يمكن أن يقف عليه من قصده من مجرد المطالعة . والتعلم المجرد . بل لابد في تحصيل التصوف من (الذوق) .

وقد عرف الصوفية (الذوق) بأنه : (نور العرفان يقذفه الحق تبارك وتعالى في قلوب أوليائه فيحدث لهم الانجلاء الذي يفرقون به من الحق والباطل) .

وهذا علم لا يؤخذ من مطالعة الكتب . وإنما هو (حال) بظهور : صفات النفس البشرية للانسان .. ودوام هذا الحال على القلب وبقائه بحيث يصير (ملكة) لهذه النفس كأن هذا هو (المقام) .

وعلى ذلك : فالأحوال عند الصوفية مواهب والمقامات (مكاسب) والأحوال تأتي من (عين الجود) والمقامات تأتي (ببذل المجهود) . وبعدما اعترف الغزالي وعاش تجربة السابقين الصوفية . نجده يقول فيها (فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لاأصحاب أقوال وأن مايمكن تحصيله بطريق العلم قد حصلته ولم يبق الا مالا سبيل اليه بالسماع والتعليم . بل بالذوق والسلوك . وكان حصل معي من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية : إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر فهذه الأحوال الثلاثة من الإيمان . كانت رسخت في نفس لابدليل معين مجرد . بل بأسباب وقرائن وتجارب لاتدخل تحت الحصر تفاصيلها ..)

وبجانب ذيوع (التصوف) في موطن الغزالي (فارس) واستقراره في أسرته – كما أشرنا – وتمكنه من الرجل الذي كفله بعد (تَيَتّمه) فقد أثّر فيه أيضا بطريقة غير مباشرة أستاذه (امام الحرمين) .

وقد حدّث صديقٌ للغزالي هو (عبد الغافر بن اسماعيل الفارسي) عن (متصوف) أثر في الغزالي تأثيرا بليغا حتى أسماه عبد الغافر (معلمه الاكبر) .

وهذا الصوفى هو : الامام أبو على الفضل بن محمد بن على الفارمذى ، بطوس . وهذا الصوفى كان أستاذاً (للقشيرى) صاحب (الرسالة القشيرية) فى التصوف وكان معاصرا للغزالى وقد تقابل معه أكثر من مرة .

هل كان للغزالى شيخ ؟

فقد أورد السيد المرتضى فى (اتحاف السادة المتقين) قول الغزالى : (كنت فى بداية أمرى منكراً لأحوال الصالحين ومقامات العارفين[1] حتى صحبت شيخى[2] يوسف النساج فلم يزل يصقلنى بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات فرأيت الله فى المنام فقال لى : ياأبا حامد فقلت : أو الشيطان يكلمنى . قال : لا . بل أنا الله المحيط بجهاتك الست (!!!) ثم قال : ياأبا حامد : ذر مساطرك[3] وأصحب أقواما جعلتهم فى أرضى محل نظرى وهم الذين باعوا الدارين بحبى . قلت : بعزتك الا أذ قتنى بْرد حسن الظن بهم . قال : قد فعلت والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا فاخرج منها مختاراً قبل أن نخرج منها صاغراً فقد أفضت عليك أنواراً من جوار قدسى).. فاستيقظت فرحاً مسروراً وجئت إلى شيخى يوسف النساخ فقصصت عليه المنام . فتبسم وقال : ياأبا حامد هذه ألواحنا مسحناها فى البداية بأرجلنا بل إن صحبتى سيكحل بصر بصيرتك بإثمد التأييد حتى نرى العرش ومن حوله . ثم لاترضى بذلك حتى تشاهد مالاتدركه الابصار فتصفو من الأكدار طبيعتك . وترقى على طور عقلك وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى : إننى أنا الله رب العالمين) .

ونحن لانثق فى نسبة هذا (النص) الى الغزالى فبجانب أن روح الوضع تشيع فيه – لمخالفته لمنهج الغزالى ، فإننا نثبت فى هذا المجال مايأتى : –

(١) ونحن نشك فى هذا الكلام لانه وجد الصالحين فى اسرته ومجتمعه . وماثار عليهم أوشك فى صلاحهم . إذ لو كان لنُقِل .

(٢) نحن لانعتقد صحة هذه الرواية لاسباب منهجية فى التصوف الاسلامى وتصوف الغزالى وصورته الشاهدة بعد عصر السابقين .

(٣) الكتب المسطورة .

١ – لو كان هذا النص (حقيقة) لأثبته الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) وهو الكتاب الذى عقده لبيان تجربته الصوفية والإفصاح عن جميع مراحلها .

٢ – الحوار بين الله تعالى والغزالى طورٌ لم يدّعه الغزالى يوما (ما) .

والحوار يطلب ترك (العلم) مع أن أول آية نزلت من القرآن الكريم (إقرأ) .

والحوار فيه كلمات (غامضة) اذ فما معنى كلمة (باعوا الدارين بحبى) ؟ .

٣ – يفصح الحوار بين الغزالى والنساج عن (الوضع) لهذا الحوار فقد (مَنّى) النساجُ الغزالى برؤية (العرش)

٤ – مامعنى إدراك مالاتدركه الابصار ؟ . إن القرآن الكريم يورد هذا التعبير فى قوله تعالى تنزيها لجلاله عن الرؤية :

(لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) .

فالذى لاتدركه الابصار إذاً : هو الذات القدسية .. هو . الله سبحانه وتعالى .

ولنعد الى عبارة النساج الشاذة التى تقول (ثم لاترضى بذلك رؤية العرش – حتى تشاهد مالا تدركه الابصار ..

٥ – ومامعنى الأمل فى سماع خطاب الله تعالى كالذى حدث مع سيدنا موسى عليه السلام ..

ان موقف موسى – كان موقف : ميلاد نبوته .. ولم يتكرر لغيره من الأنبياء . أن كُلِّم من الله تعالى .. واذا كان : فلم يسجل هذا الكلام فى القرآن الكريم .. حتى نكون مكلفين بالايمان به .[1]

إنها صورة ماكانت لخاتم الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه فكيف يدعيها من هو أدنى مرتبة من رسول الله ﷺ .

---

(١) ورد فى السنة ان الله سبحانه وتعالى كلم سيدنا محمد ﷺ فى ليلة الاسراء والمعراج ، وان كان القرآن لم يسجل هذا الكلام . كما حدث لسيدنا موسى .

أثر هذه النصوص الضارة :

وهذه النصوص نُجل كبار الصوفية عن (التحديث) بها .. ولكننا نتصور أن هذا من وضع (المريدين) الذين أحبوا أساتذتهم فأضافوا على ذواتهم ماتصوروه أليق (وتحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم) .

وهذه النصوص : لاتصدر عن التصوف الحقيقى بل تلقى فى قلوب (المتحمسين) لصفاء العقيدة الاسلامية أن يفروا من هذا المجال بل لقد (غالى) بعضهم – بدافع حب العقيدة – فطفق يحارب التصوف – كل التصوف – فزاد وافترى . حتى وجدنا في المحيط الاسلامي من المسلمين الغيورين المخلصين من يرفض التصوف .

والمشكلة فى رفضه هذا : أنه ينبع من كيانه فى هيئة تخليص العقيدة الاسلامية من أمور لاتليق بها .

الغزالى يتحدث عن تجربته :

عشر سنوات انقطع الغزالى فيها للعبادة : ناهجا العزلة والخلوة متجردا عَنْ الشهوات والرغبات . عيشُه خشنٌ ، زاهدا فى الدنيا وعرضها الفانى .

وهنا نسأل : بماذا خرج الغزالى من هذه التجربة الطويلة الأمد .. ؟

يؤكد الغزالى أنه خرج ابتداء : بسلامة منهج الصوفية . بل انه المنهج الوحيد لسلوك الطريق الى الله تعالى .

ويصف الغزالى الصوفية فيقول :

(سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق . وأخلاقهم أزكى الاخلاق بل انه لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيّروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا ..)

محور التصوف الاسلامى :

ويلمس الغزالى فى وعى : (المحورَ) الذى يجب أن يقوم عليه (التصوف) الاسلامى ويؤكد (المنبع) الحقيقى لَمن أراد أن يكون متصوفا .

وان يخوض التجربة الصوفية .

يقول الغزالي في وضوح : (إن جميع حركاتهم - يقصد الصوفية الذين يعتبرهم - وسكناهم في ظاهرهم وباطنهم : مقبسة من نور مشكاة النبوة . وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به)[1]

وهكذا في جلاء يحصر الغزالي منبع التصوف في شيء واحد هو (مشكاة النبوة) .

ويؤكد الغزالي حَصْرَهُ لهذا المنبع فيقول : (وليس وراء النبوة على وجه الارض نور يستضاء به) .

وهكذا : لايعتبر الغزالي التصوف الا من خلال (نبوة) خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه .

مراحل التصوف عند الغزالي :

إعتبر الغزالي السالك لمنهج التصوف : متدرجا في ثلاث منازل :

١ - المنزلة الأولى للتصوف : هي تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ..

ويعنى الغزالي بهذه المرحلة أن يجرد الانسان الراغب في نهج التصوف نفسه من علائق المادة وشهوات المال والاهل ، والولد .. الخ . وينفرد تماما لمهمته الجديدة . فإن نجح في ذلك : يكون قد وضع أقدامه على بداية الطريق الموصل إلى مبتغاه .. وهذه مرحلة (التخلى) .

٢ - المنزلة الثانية للتصوف : هي استغراق القلب بالكلية بذكر الله تعالى .

ويعنى الغزالي بهذه الخطوة : أن لايفتر القلب عن ذكر الله تعالى وتذكره . والآيرد على القلب أى شيء سوى ذكر الله تعالى وتذكره . فلا يذكر هذا القلب جاهاً ولا سلطاناً ولا شهوة ، ويعتبر (الغزالي) هذه (المنزلة) في غاية الأهمية لسالك طريق التصوف . حتى أنه اعتبرها بمثابة (مفتاحها

---

(١) راجع ص ١٧٧ من ك (المنقذ من الضلال) .

الجارى مجرى التحريم من الصلاة)[1] وهذه مرحلة (التحلّى) .

٣ - المنزلة الثالثة للتصوف : هى الفناء بالكلية فى الله تعالى ويعنى الغزالى بالفناء فى الله : أن تموت الشهوات حقيقة فلا يحس بها (السالك) حقيقة .. وإنما فقط يشعر بلذة قربه من محبوبه .. فيحدُثُ (بقاء) مع (فناء) على معنى : أنْ تفنى الشهوة .. ويبقى (حب الله تعالى) .. أما معنى (الفناء) الذى يفضى الى التشبيه أو مشابهة الله تعالى للحوادث . كما قيل عنه يعصمه (فى) التى تعنى الظرفية . فهذا كلام ليس من الاسلام وهو فى جملته يشوه المعنى الجميل للتصوف الاسلامى الحقيقى الذى هو فى الحقيقة (الاحسان) الذى جاء فى حديث رسول الله ﷺ وهذه مرحلة (التجلّى) .

موقف الغزالى من الأقوال الحلولية :

يفضى لنا الغزالى برأيه فى (المتصوفة) الذين يعتقدون فى التصوف عقائد لايقرّها الاسلام .

وهذا يؤكد مانذهب اليه : من أن التصوف الاسلامى الحقيقى لايعرف : العبارات الغامضة ولا الإعلان بين الناس ولادعاوى صيرورة المنطوق خالقا .. أو الخالق مخلوقا .. والعياذ بالله .. والشطحات والسكر . والتى هى عبارات مهذبة يلفّ بها أصحاب النوايا الحسنة : كبوات أصحاب هذه الدعاوى .

يقول الغزالى بعد تقريره لمنبع (الوحى) كمصدر للتصوف : (ومن أول الطريق تبتدىء المكاشفات والمشاهدات حتى انهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم اصواتا ويقتبسون منهم فوائد[2] ثم

---

(١) ص ١٧٨ من ك (المنقذ من الضلال) .

(٢) نحن لاندهش لهذا . فكرامة الاولياء لها جانب جليل فى الاسلام ولكننا ندهش من نسبة شخص (ما) ذلك لنفسه وهنا ندرك ان الغزالى : تحدث عن ذلك بصيغة العموم ولم يتحدث عن نفسه لانه لو فعل ذلك لسقط فى تصوفه حيث يجب عليه الكتمان .

يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى : درجات يضيق عنها نطاق النطق فلا يحاول معبّر أن يعبّر عنها الا اشتمل لفظه على خطأ صريح لايمكنه الاحتراز عنه وعلى الجملة – مازال الكلام للغزالى – ينتهى الأمر الى قرب يتخيل منه :

(أ) طائفةٌ الحلول .

(ب) وطائفةٌ الاتحاد .

(جـ) وطائفةٌ الوصول .

وكل هذا (خطأ) .. بل الذى لابسته تلك الحالة لاينبغى أن يزيد على أن يقول :

فكان ماكان مما لست اذكره
فظن خيرا ولاتسأل عن الخبر[1]

الذوق مدخل التصوف :

يرى الغزالى أن (الذوق) وهو رقة الحس وسمو الفهم ونبالة [illegible] وحضور الملكة ، هو عطاء الله يرزقه [illegible] من يشاء ومن حرم هذا الذوق فمن حرم ملكة الشعر مثلا – لايستطيع أن يكون شاعراً مهما تثقف وأدرك الشعر .. وهذا المحروم من نعمة (الذوق) لايمكن ان يدرك حقائق الامور .. حتى أعظمها أثرا فى حياة الاسلام . وهى حقيقة النبوة . فليس يدرك حقيقتها على الوجه اللائق بها الا من وُهب نعمة (الذوق) (فمن لم يرزق منه شيء) بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم وكرامات الاولياء هى بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله ﷺ حيث تبتل حين أقبل الى جبل « حراء » حين كان يخلو فيه الى ربه ويتعبد . حتى قالت العرب : « إن محمداً عشق ربه » وهذه حالٌ يتحققها بالذوق من سلك سبيلها »[2] .

---

(١) راجع ص ١٧٨ من كتاب (المنقذ من الضلال) للغزالى . تحقيق د/ عبد الحليم محمود .

(٢) راجع ص ١٧٩ من المرجع السابق .

وبهذا المسلك ربط الغزالي التصوف الاسلامي بالنبوة بدءاً وسلوكا ..

ووصل الغزالي بهذا الى أنه (حَكَّم) النبوة في التصوف ولم يحكم (التصوف) في النبوة . ولنا أن نعتبر هذا معيارا : للتصوف الاسلامي .

تقسيم العلوم عند الغزالي :

يقسم الغزالي مايمكن أن يعلمه الانسان الى :

١- مايعلمه الانسان عن طريق المعارف العقلية المستدل عليها بالبراهين . والذى تنتج (علما) محققاً وهذا النوع من المعارف يطلق عليه الغزالي اسم (العلم) .

٢ - مايعمله الانسان عن طريق ملابسة حقائق الأمور فحيث يقف على (عيْن) المسائل العلمية بحقائقها . وهذا النوع من المعارف يطلق عليه الغزالي (ذَوْق) .

٣ - مايعمله الانسان عن طريق السمع والتجربة ويقبله من هذا الطريق بحسن الظن فيمن يسمع عنهم .. وهذا النوع من المعارف يسميه الغزالي (إيمان) .

وكأنه يشير الي : أن هذا التقسيم قد استوحاه من القرآن الكريم عندما يقول : (فهذه ثلاث درجات : « يرفع الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات والذين أوتو العلم درجات)[1] .

رأى الغزالي فيمن ينكر التصوف :

وجدنا الغزالي يؤصل بالكلمة والسلوك : طريق التصوف الاسلامي ويفتح باب التلاقى الحقيقى بين : النبوة والتصوف .

ومن هنا لاندهش عندما يأخذ الغزالي على من ينكر التصوف .. وكأن الغزالي في (شدته) على منكر التصوف إنما صدر عن مفهوم عقائدى .. حيث وجدنا عنده وثاقة العلاقة بين التصوف والنبوة .. وكأن المنكر يخلط في إنكاره بين السلوك والمنبع . ومن هنا كانت (جهارة) الغزالي بالنكير على منكر التصوف .

(١) راجع ص ١٨٠ من ك : (المنقذ من الضلال) .

يقول الغزالى : (ووراء هؤلاء - يقصد الصوفية - قوم جّهال هم المنكرون لاصل ذلك المتعجبون من هذا الكلام يستمعون ويسخرون ويقولون : العجب أنهم كيف أنهم كيف يهذون . وفيهم - أى هؤلاء الجهال المنكرين - قال الله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم فاصمّهم وأعمى أبصارهم .. » .

العلاقة بين الحقيقة والشريعة :

ظهر فى ميدان التصوف من يحاول أن يفرق بين : الحقيقة والشريعة . ويعنى بالحقيقة التصوف وبالشريعة : ملة الاسلام الظاهرة التى جاء بها الوحى من قرآن وسنة وماتفرع حولهما من علوم إسلامية كالفقه وغيره .

وأحيانا يعبر عن هذه القضية باسم : (بالظاهر والباطن) ويعنون بالظاهر : الاسلام المتمثل فى نصوص الوحى . ويعنون بالباطن : التصوف الذى (ينفلت) من أى قاعدة او قانون وإنما يطلق حسب قاعدة باطن كل (متصوف) وحسبما يحس به من (المواجيد) .

ويجب علينا أن نعلم : ان التصوف الحقيقى لايفرق بين : الحقيقة والشريعة ولم نعهد هذه التفرقة فى المحيط الاسلامى . إذ عقيدتنا : أن كل الشريعة حقائق ، فهى لذلك : الحقيقة الصادقة .

وكل ماتبادر إلينا من هذه التفرقة : إنما لحظناه عند (التصوف الدخيل) المشبوه . والذى وصلنا عن طريق من يريد (مَسْخ) الاسلام ونَسْخ نصوصه تحت مبدأ : التفرقة بين الظاهر والباطن أو : الحقيقة والشريعة .

فكل (تصوف) يفرق بين : الحقيقة والشريعة ويعطل النصوص (الشريعة) من أجل اعتباره لحقيقة بعيدة عن هذه النصوص ..

أقول : كل تصوف من هذا النوع هو تصوف برىء منه الاسلام ولايوصل الى شىء إلا إذا اعتبرنا الخروج : (وصولا ..) !!!

ويؤكد أحد الباحثين هذا فيقول :

(الشريعة هى أساس كل تصوف حقيقى ولايمكن لاى مارق عنها أن يصل الى أدنى درجات التصوف)

ثم ينتقد من يبتعد عن الشريعة فيقول : (إن بعض فسقة الجهلاء يسوغون فجورهم ومروقهم من الشريعة بقولهم : إننا متحققون لامتشرعون وقولهم : إننا سابحون في بحار الشطحات ثملون بخمرة الغيبية . ومن كان هذا شأنه لايسأل عن صلاة ولاصوم . لأن التكليف رفع عنه)[1] .

وإذا ذهبنا نتلمس رأى الغزالى فى هذه القضية الخطيرة وجدناه (يدمغ) من يقول بالتفرقة بين الحقيقة والشريعة . ويكاد يصمه بالكفر والعياذ بالله .

ونجده يهاجم المفرقين ويؤصل رأيه فى هذه القضية فيقول : من قال : إن الحقيقة تخالف الشريعة والباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب . وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصولة . فالشريعة جاءت بتكليف الخلق . والحقيقة إنباء من تصريف الحق)[2] .

وبذلك يثبت لنا أن التصوف من الاسلام وأنه إقرار بالوحى وتتبع لخطاه . وأى سالك لطريق التصوف يبتعد عن : الشريعة التى جاء بها الوحى المنزل على سيدنا محمد ﷺ .

وفى ذلك يقول أحدهم :

(لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى الهواء فلا تغتروا به ..حتى تنظروا كيف تجدونه عند الامر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة) .

ويقول بعضهم : (اصول طريقنا – التصوف – سبعة : التمسك بالكتاب – القرآن الكريم – والاقتداء بالسنة وأكل الحلال . وكف الأذى وتجنب المعاصى ولزوم التوبة وأداء الحقوق) .

ويقول القشيرى ناسباً قوله إلى (الجنيد) : (من لم يحفظ القرآن ولم

---

(١) راجع ص ٣٠٣ من ك (التنسك الاسلامى) د/ محمد غلاب نشر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

(٢) راجع ص ٢٠٣ من المرجع السابق .

يكتب الحديث لايقتدى به فى هذا الامر . لان علمنا هذا - يقصد التصوف - مقيد بأصول الكتاب والسنة) .

ويقول القشيرى (الطرق كلها مسدودة على الخلق الاعلى من اقتفى أثر الرسول ﷺ . واتبع سنتة ولزم طريقة)[1]

علامة الصوفى :

يقول الغزالى يدلى برأية فى هذه القضية كلما سنحت له الفرصة لتأصيل معنى : التصوف الاسلامى .

ونجد الغزالى : (واعلم ان سالك سبيل الله تعالى قليلٌ .. والمدّعِى فيه كثير .. ونحن نعرفك علامة له :

وذلك ان تكون جميع الافعال الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته ايراداً واصداراً واقداماً واحجاماً . اذ لايمكن سلوك هذا السبيل : الا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ولايصل فيه الا من واظب على جملة النوافل .. فكيف يصل اليه من أهمل الفرائض .. ؟)[2] .

وفى وثاقة الصلة بين (النبوة) وبين (التصوف) يقول أبو الحسن الشاذلى :

(اذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنّة . فدع الكشف وقل لنفسك : ان الله تعالى قد ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة . ولم يضمنها فى جانب الكشف ولا الالهام ولا المشاهدة الا بعد عرضها على : الكتاب والسنة .)

ويقول استاذنا الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله تعالى ..

(والصوفية يتبعون فى كل هذا - طرق الوصول - النصوص القرآنية والسنة القولية والعملية للرسول ﷺ . وهم يعلمون - لاشك - البديهات التاريخية من ان الرسول صلى الله عليه وسلم . كان المثل الاعلى فى أداء الشعائر الى آخر لحظة فى حياته الطاهرة) .

(١) يراجع فى نصوص الصوفية تلك ص ٢٨٦ ومابعدها من ك .. (المنقذ من الضلال) تحقيق د/ عبد الحليم محمود .

(٢) راجع ص ٢٧٦ من ك (المنقذ من الضلال) .

ثم يقول الدكتور عبد الحليم معقبا على هذه الآراء :

(.. هذا رأى القدماء . وخير مانختمه به إنما هو الحديث النبوى الكريم :

سئل النبى ﷺ عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الظن فى الله . فقال : كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل)[1] .

والحقيقة : أن فى القرآن الكريم إشارات الى أن من سلك طريق (الاحسان) أذاقه الله : نعمة (القرب) ووهبه جلال الوصول . فذاق حلاوة فى قلبة . وطمأنينة فى فؤاده . وصار من : أحاسن الناس أخلاقاً . الموطأون أكنافاً . الذين يألفون ويؤلفون .

١ – يقول الله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) .

٢ – ويقول سبحانه (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) .

٣ – ويقول جل شأنه (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) .

٤ – ويقول تبارك قدره (يأأيها الذين أمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) .

---

(١) راجع ص ٢٨٩ وماقبلها من ك (المنقذ من الضلال) تحقيق د/ عبد الحليم محمود .

خاتمة

وبعد فلسنا بهذه الإلمامة عن التصوف و(الغزالى) . نّدعى : أننا وفّينا كل الجانب (الصوفى) عند الغزالى . وغيره .

وهذا لم يكن مقصودنا فى هذه الدراسة .

وانما كل ماقصدناه أن نبرز مكانة التصرف فى الاسلام : وعند المسلمين .

واعتقد أننا استطعنا أن نفى بهذا القصد .

وعلى الله قصد السبيل ،

فلسـفـة الأخـــلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

خـــل :

سنحاول أن نقدم نبذة عن (فلسفة الأخلاق) توضح مـــدى قـــدرة قل الإنسانى عندما يتضلع فى رسم مناهج حياته وسلوكياته الاجتماعيـــة لأخلاقية.

وقدرة العقل الإنسانى فى أى أمر من الأمور ، إنما تقاس بدرجة مـــا قه من نجاح أو فشل ، فإذا استطاع العقل أن يحقق (إنجـــازا) طيبـــاً فى قل من الحقول الذى يستطيع ارتيادها .. كان ذلك منه نجاحاً ينطلق منـــه ى تحقيق فائدة للإنسانية.

أما إذا تعثرت خطوات العقل اضطربت خطواته فى مضمار ما يريـــد تياده فإن (مناهجه) عندئذ تأتى قاصرة ولا تحقق غاياتها .. حـــتى هـــاتيك غاية التى قصد إليها واضعها.. مهما يبدو من: تطواف حول قصده وغايته.

وحيثما تأتى إلى الجانب الأخلاقى) فى حياة الإنسانية ، فأننـــا نجـــد نفسنا أمام منبعين:

١-المنبع الأول: ما يأتينا من مبادئ ووصايا أخلاقية عن طريـــق الرســـل والأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى لهداية البشرية.

وهذا المنبع هو الذى يعتبر تعبيراً حقيقياً عما ينبغى أن يكـــون مـــن قوانين الخلاق التى يجب أن تسود كل المجتمعات . وكـــل حيـــاة الإنســـان الخاصة والعامة فى كل مكان وزمان.

٢-المنبع الثانى: ما يأتينا عن طريق (الفلاسفة) و(الحكماء) ومـــا ورد فى الأمثال ولدى الشعراء وأهل الخبرة.. وهذا المنبع يمكننا أن نل منـــه فى

قانون واحد هو (انه كل ما نبع عن ذاتية صاحبه. ونشأ من نتاج عقلـه ومن ارتباط بوحى أو اتباع لنبى أو رسول.)

وهذا المنبع هو ما نطلق عليه اليوم فى التقسيمات العلمية أسم (علـم الأخلاق) أو (فلسفة الأخلاق) وقد عقدنا هذا البحث لعرضه فى العصـــور المختلفة وغايتنا أن تبرز : أن العقل الإنسانى مهما كان عبقرياً ومهما نجـح فى جوانب العلوم الرياضية والطبيعية ومهما شهدنا دوره الرائع فى إنجازاته مـــن خلالها.. فإن ـهذا العقل – لا ٍمكن أن يكون (هو هو) فى مجـــال العلـــوم الإنسانية التى تستهدف الجانب الروحى والوجدانى والأخلاقى والعقـــائدى لدى الإنسان.

ومن هنا لا يجدر بنا – ابتداء – أن ننتظر من هذا العقل ان ينجـــح عندما يتولى إقامة مناهج خاصة فى ميادين الدين والأخلاق والنفس ... الخ.

ولذلك : يجب علينا أن يكون تناولنا لهذه الجوانـــب عنـــد كبـــار الفلاسفة والحكماء بحذر شديد وان لا نتصور أن إنتاجهم فى المجال المـــادى والصناعى وفى المخترعات وغيرها .. دليل على أن هـــذا العقـــل النـــابض والصناعى وفى المخترعات وغيرها.. دليل على أن هذا العقل النابض الذكى. يستطيع أن يلج ميادين الوجدان والروح بنفس القوة والريادة.

ويكفى أن نرى فى عالمنا اليوم مجتمعا من المجتمعات مثـــل (اليابـــان) التى انبهر لها العالم المعاصر فى مجال الصناعة والمخترعات العبقرية . ومع هـــذا فهى فى المجال العقائدى (وثنية)تعبد الشمس من دون الله وتقدس البشـــــر والحجر.. وكذلك (الغرب) فمع تقدمه العلمى . نشاهد تخلفه الأخلاقـــــى المزرى.

ومن هنا كان ضرورياً لكل قارىء فلسفة أو مطلـــع علـــى فكـــر فليسوف أن يكون حريصاً من هذا (الانبهار) خاصة ما تكسبه –أحيانـــا –

أجهزة الأعلام المعاصرة على إحدى الشخصيات التى تقيم فكــــراً نرفضــه لاعتبارات عقائدية .

وهذا الحذر هو اليقظة الإسلامية التى يطلبها الله سبحانه وتعالى منـــا فى كل ما نأتى ونذر . فليست (سذاجة) النية من الإسلام وإنما الذى مـــن الإسلام هو (حسن النية) والفرق: أن تكون نيتى فى (المنبـــع، حســـنة وأن تكون (نيتى) وهى تستقبل (حا رة).

وهذا الحذر ليس مقصوراً على الجانب الأخلاقى فقط بل نجـــده فى العبادات . ويكاد يلمح دليله فى مثل قوله ﷺ: (العين وكاء الســاهى)إذ أن (الغفلة) وحدها كافية فى (مقص الوضوء)

وأبلغ دليل على هذه اليقظة هى قوله تعالى : (خـــذوا حذركـــم) وقوله (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى نتبع ملتهم).

من اجل هذا سنعرض محاولات للفلاسفة والحكمـــاء فى الجـــانب الأخلاقى . والذى نريد أن ننبه إليه : أن هذه المحاولات تمت بعيداً وبمعـــزل عن توجيهات الوحى. لندرك من خلال هذا العرض مدى: قصـــور هـــذه المحاولات .. وليتأكد للمسلمين أم منهج الله وحده هو الذى جاء بـــالهدى والخير وأن الله سبحانه وتعالى بعلم ما يصلح الإنسان فأمره به . وعلم مـــا يضره فأمره بالابتعاد عنه. لأن منهجه ـسبحانه ـهو : الحق...

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).

(ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها).

وعندما تتم (المقارنة) بين الأخلاق فى المنـــهج الأخلاقـــى، وبـــين الأخلاقى عند الفلاسفة .. سيظهر أن (أخلاق الوحى) هى الرائدة بمقياس : الفلسفة والعقل . بجانب مقياس : الحق والعقيدة.

و المسلم عندما تتقرر لديه هذه الحقيقة بالبحث العلمـــى . غنمــا ينساب فى أعماق نفسه نور الإيمان الصادق . الذى يملأ جوانحه ويأخذ عليه لبابه . وكأنما هذه (المقارنة) (دليل) أيمانى بث فى قلبــه (الطمأنينــة) إلى سلامة منهج الإسلام.

نبذة عن أخلاق الإسلام :

قبل أن نعرض للأخلاق عند الفلاسفة نريد هنا أن نذكر (نبذة) عــن الأخلاق فى الإسلام . نستأنس بها بين موضعنـــا هـــذا وتكــون بمثابــة : الاستهلال بما هو خير . حيث أننا قد دمغنا الجهود الفلســفية فى الجــانب الأخلاقى بالقصور.

وعندما نقول: الخلاق فى الإسلام فأننا يجب على الفــور أن نذكــر مصادر هذه الأخلاق وهى:

١-القرآن الكريم.

٢-السنة النبوية المطهرة.

٣-حياة الرسول ﷺ .

٤-حياة وسلوك الصحابة رضى الله عليهم.

ولاشك أن القرآن الكريم هو الأصل فى ميدان التربية الأخلاقية وان حياة الرسولﷺ إنما كان تصدر عن هـــذا الأصـــل فـــإذا أردنـــا قوانـــين الأخلاق.(مسطورة) فأننا نجدها فى سلوك سيدنا محمدﷺ .. ومن هنا يجـــب علينا أن نفهم معنى قول السيدة عائشة ﷺ عندما سئلت عن أخلاق رســول اللهﷺ قالت (كان خلقه القرآن).

أهم سمة فى أخلاق رسول الله:

تميزت أخلاق الإسلام التى وجدت فى حياة الرسول ﷺ بأنها أعطت (المثل) لكل الناس أن أخلاق (القرآن الكريم يستطيع كل الناس أن يتخذها (سلوكاً) فليست الأخلاق فى الإسلام ، ضربا من المستحيل .. ومنازعة للنفس السوية، أو طلب أمر تأباه فطرة الوجود. أو هى من أنواع الشطط والخيال التى لوحظت فى الفلسفات والعقائد التى دعت إلى (خلقيات) لا يستطيع إنسان أن يقوم بها لشدها على النفس الإنسانية . أودعت إلى أخلاق لا تستطيع النفس البشرية أن تقوم بها: لدعوتها الصريحة إلى أمر تأباها الفطرة الإنسانية السليمة.

ولذلك كانت (الأخلاق) فى الإسلام : أخلاقا واقعية وكانت شاخصة فى سلوك المسلمين . وشاعت وذاعت فكانت هى التى تحكم كل العلاقات فى المجتمع الإسلامى الأخلاقى ولحت هذه الأخلاق فى المسجد والسوق والبيت ولحت فى الحضور والسفر. ولحت فى الغنى والفقر الصحة والمرض. وصارت الأخرق الإسلامية: واقعاً حقيقياً ملموساً يسوس ويسود العلاقات كلها . وكما قال عنها الباحثون:

(كان الناس يتنفسون إسلاما فى إسلام) [1]

وبذلك: كانت عظمة الخلاق فى الإسلام أنها صورة تقية من الأخلاق التى يريدها منا الله سبحانه وتعالى . وإنها (صالحة للتطبيق) فى حياة كل الناس فى كل المجتمعات وكل الأزمنة..

وقد صارت هذه المعانى كلها ظاهرة بين (بردة) رسولﷺ ، حتى وصف من –الله تعالى –فى الجانب– الأخلاقى بوصف يوضح مدى (حيازة)

---

(١) مجر الإسلام: احمد امين.

للمعانى القرآنية فى القرآن حيث وصفه القرآن الكريم بقوة الأخلاق . قـــال الله تعالى: (وأنك لعلى خلق عظيم).

وقد كان رسول الله ﷺ فاضل الأخلاق عفيف القلب واللسان رائـع السجايا وقد تبدت أخلاقه ﷺ قبل بعثته ونبوته . مما جعلنا نعد حياته النقيـة الطاهرة التى لم تتدنس بشائبة من شوائب الأخلاق الجاهلية والـــتى كـــانت سائدة آنذاك– والتى تحاول أن تعود إلينا الآن بهجرنا للقرآن وأخلاقه –إنهـــا : حياة نبى. واعتبر العلماء هذا الجـــانب الأخلاقـــى مـــن (أرهاصـــات) [1] النبوة.

وقد سلك رسول الله ﷺ المعانى الأخلاقية بعد البعثة : انطلاقا مـــن توجيهات القرآن الكريم.

صفات من أخلاق الرسول:

١–أشتهر رسول الله ﷺ بالجود والكرم . فكان جوادا وهو يدعـــو إلى– الله تعالى– حتى انه أنفق كل المال الذى ورثه عن خديجة ﷺ على : الدعـــوة إلى –الله تعالى– لدرجة انه عندما دنتا ساعة رحيله إلى الرفيق العلـــى . لم يكن لديه شيء يورث وقال ﷺ قوله لورثته تعبر عن نبوته وعظمتـــــه .. (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة).

وكان ﷺ جواداً فى النفس ومصدر جوده كان يعم كل المســـلمين . فلم ينقطع (رفده) عن أحد من المسلمين .

عن ابن عباس ﷺ انه قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخـــير. وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان حين يلقاه جبريل–عليــــه الســـلام– فيدارسه القرآن وكان ﷺ : أجود بالخير من الريح المرسلة).

---

(١) الارهاص: العلامة.

٢-وكان رسول الله ﷺ قمة التطبيق الخلقى فى الحلم والعفو والصبر على تحمل المشاق. فقد روى البخارى من جابر ﷺ انه قال (غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد. فأدركنا رسول الله ﷺ فى واد كثير العضاء. فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه من أغصانها.. وتفرق الناس فى الوادى يستطلعون بالشجر.. فأخبرنا- رسول الله-ﷺ أن رجلاً أتانى وأنا نائم فأخذ السيف . استيقظت وهم قائم على رأسى. فلم أشعر إلا وأنسي مصلتا فى يده فقال لى : من يمنعك منى - قال رسول الله - قلت: الله. فسقط السيف من يد الرجل فوثبت عليه فأخذته ثم قلت للرجل: ما يمنعك منى الآن فقال الرجل : كن خير آخذ .. فعفوت عن الرجل).

٣-وكان رسول الله ﷺ شفوقا على كل الناس. وقد امتدت شفقته ورحمته بالناس لدرجة أن القرآن الكريم قد استشعر أن هذه الشفقة والحدب والعاطفة غالباً ما تكون مصدر (ألم) لرسول الله ﷺ. فإن شفقته ﷺ كانت تحتاج نفسه حتى كانت تضم (الكافرين) فقد كان يخشى عليهم أن يظلوا على (عنادهم) ولا يؤمنوا بالله تعالى ولذلك نجد القرآن الكريم يصور لنا ما يعتمل فى وجدان الرسول ﷺ فيوجه له الحديث قائلاً: (لعلك باخع نفسك إلا يكونوا مؤمنين)[1].

وقال تعالى ﴿وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾

وقد كانت شفقته بالمسلمين مضرب المثل حتى لحناها فى (العبادات).

أ-نهى رسول الله ﷺ من (الوصال) فى الصوم عندما قلده المسلمون وقال لهم: (أنما يطعمنى ربى ويسقينى).

---

(١) النحع هو : الهلاك.

ب-نهى رسول الله عن الإطالة فى صلاة الجماعة وحدث أبو هريرة فقال: أن رسول الله ﷺ قال: (إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير وذا الحاجة. وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء).

جـ-وكان رسول الله يستر عبادته من المسلمين شفقة عليهم ورحمة بهم من أن يقلدوه وقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت: (كان النبى ﷺ يدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم).

د-وكان (اللين) فى الأخلاق والسماحة فى التعامل هى (قوام) دعوة نبوة الإسلام، وقد برز هذا من خلال قول الله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وقد لخص القرآن الكريم وظيفة (النبوة) جمعاء فى عبارة ضمت كل الجوانب العقائدية والتعبدية والأخلاقية فقال ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وقال تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

هـ-وكان رسول الله ﷺ مثالاً لكل القادة والرؤساء وأولياء الأمر فى : التواضع وخفض الجناح للرعية فقد كان أقرب الناس إلى الضعفاء والمساكين واشتهرت عنه أثر يقول: (اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا وأحشرني فى زمرة المساكين).

وقد روى عن أنس ﷺ : أنه قال (خدمت رسول ﷺ : عشر سنين . فما قال لى : أفقط ولا لشئ صنعته لم صنعته ولا لشئ لم أصنعه لم لم تصنعه).

وروى البيهقى عن أنسى ﷺ أن رسول الله ﷺ : دخل مكـــة يـــوم الفتح و (ذقنه) على راحلته (متخشعاً).

سمة الأخلاق الإسلامية:

نحن هنا لا ندعى أن الأخلاق كانت أول قطراها فى (وحى الإسلام) بل أننا نقرر الحق عندما نقول أن الأخلاق هى صنو (النبوات) عموماً فى كل زمان ومكان وأنه ما من (نبوة) من لدن (آدم) عليه السلام حتى خاتم النبيين (محمد) ﷺ إلا وكانت ترتكز على : الأخـــلاق بجـــانب ركـــيزة العقيـــدة والوحدانية.

والأنصاف – أيضاً– يقتضينا أن نقول: أن هناك (لمسات) أخلاقيـــة لحت فى المحيط الأخلاقى على ألسنة بعض الناس وهى (موروثة) من بقايـــــا الفطرة السليمة فكانت تدعو الناس إلى الأخلاق الطيبة.

ولقد لك فقد وجدنا (التغنى) بالأخلاق فى كثـــير مـــن المجتمعـــات وتمجيد الأخلاق . وإن لم تكون (سلوكاً) وواقعاً تطبيقياً لهذه – المجتمعات.

فقد (سرت) فى نفوس (الشعراء) فى العصر الجاهلى ما أحسنه مـــن بعض (حكماء) العرب من الدعوة إلى التمســـك بالفضـــائل.. فتســـاوقت أشعارهم ـــ أحياناً ـــ مع هذه المعانى.

ومن هنا : حفظ لنا سجل الشعر العربى القديم ما يشـــعر بحـــب : الفضيلة والصدق والعفة والشجاعة والكرم والجود.. الخ.

وينبغى أن ندرك فى وعى : أن وضوح هذه المعانى الأخلاقية عنـــد العصر الجاهلى.. كان حقيقة وكان الضرر – فى الفصل بين العلم والتطبيـــق.

ويكفيني فى الاستدلال على إدراكهم الأخلاقى أن أقول : أن هؤلاء — العصر الجاهلى — هو الذين وصفوا رسول الله ﷺ قبل بعثته بوصف : الصادق الأمين.

وهذا الوصف إنما (فجره) حقيقة:

١)أخلاق الرسول ﷺ التى شاهدوها مجتمعه عليه قبل بعثته.
٢)معرفة (الواصفين) بالمعانى الأخلاقية وأن هذا (الوصف) لهذه (الصفة).

ولعلنا الآن ندرك فى (حيدة) علمية أن الجانب الأخلاقى لمح فى العقائد والحضارات والمجتمعات قبل مجئ الإسلام.

ونستطيع أن نضم إلى هذا منهج الإسلام فى الأخلاق . فقد اعتبر كل خلق كريم فى الجاهلية ولم يناهضه أو يلغه. وهذا الاعتبار اتخذ شكل (التوجيه العام) والذى وجد فى مثل قول رسول الله ﷺ (خياركم فى الجاهلية، خياركم فى الإسلام. إذا فقهوا.).

وهنا نأتى إلى سؤال هام:

ما هى أبرز سمة فى المجال الأخلاقى تميز أخلاق نبوة الإسلام..

الجواب : أن ما تجدر ملاحظته أن (الأخلاق) فى الإسلام تميزت بميزة فريدة جعلت من السلوك الاجتماعى الأخلاقى طوراً من أطوار (عبادة الله) تعالى.

الخلق عبادة فى الإسلام:

كان القدماء تصدر أخلاقهم عن انطباع اجتماعى فقد كان الإنسان الذى يريد أن يوصف بالخلق الحميد كان يسير حسبما يطلب منه مجتمعه وفى عصر من عصور (الإغريق) ومجدت الشجاعة ولو كانت (شجاعة

اللصوص) وأن (السارق) إذا استطاع (السرقة) دون أن (يضبط) فإن هـــذا (عار) يستحق صاحبه (عقاب الموت).

وقد حكوا أن شابا سرق مرة (ثعلبا) فأخفاه فى (ثوبه) الفضفـــاض فإذا بهذا (الثعلب) ينهش فى بطنه فظل (السارق) صابرا على الثعلب حـــتى يكون (شجاعا) فى سرقته وظل هكذا حتى مات فبالغت الأخلاق الإغريقيـــة فى تمجيده.

وبجانب هذا الصورة (الشاذة) للأخلاق فأننــــا نجـد (الأخـــلاق يستهدف بها صاحبها نظرة الناس إليه.

فمثلاً: نجد (العربى) قبل الإسلام: شجاعاً وإذا ما تلمســـنا ســـبب شجاعته وجدناه شجاعاً. لأنه يحب أن يشتهر بين الناس بهذه الصفة ، فكـــل غايته تنحصر فى أن تسير الركبان بهذه الشجاعة.

وهكذا : كان (الكريم) فيهم و (العفيف) فيهم. ومن هنـــا: كـــان منطلق الأخلاق الحميدة فى كل المجتمعات قبـــل الإســـلام هـــى : الدافـــع الشخصى والاجتماعى.

وهذا أمر له خطورته : فأن هذا الشعور الأخلاقى للدافع الخلقـــى يتلاشى تماماً إذا شعر الإنسان بانعدام هذا الدافع. فإذا وجد (العفيـــف) فى (صحراء) لا يراه فيها أحد. تلاشت (عفته) وإذا سافر (الكريم) إلى (بلـد) لا يعرفه فيها أحد تلاشت أريحة كرمه.. وهكذا.

ولما جاء الإسلام لم يحارب هذه الأخلاق لرضائه عنها. وإنما حـارب: المعنى الداخلى للنفس البشرية التى تصدر عن هذه الأخلاق وقد تمثل هذا فى جعل كل التصرفات والأعمال الإنسانية مربوطة (بالنية) القلبيـــة. فربطـــها بداخل الإنسان ووجدانه وحررها من مراعاة حكم الناس عليـــها.. وهـــذا

حدث بعد أن تمت للإسلام التمكن من هذا (الداخل) فى التربية الإســـلامية الكاملة وبزرع القرآن الكريم. وملاحظة سلوك نـــبى الإســـلام محمـــد ﷺ وسلوك أصحابه البررة رضوان الله عليهم الذى ملأوا الدنيا بأخلاقهم نـــوراً وعلماً وحضارة .

ومن هنا جاء قول الرسول الكريم ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات وإنمـــا لكل امرئ ما نوى).

للنبع الأخلاقى:

جاء الإسلام بأخلاق مبتكرة وبأخلاق معروفة قبله. ولكنه (الجـــدة) والابتكار الذى يمكن أن ننسبه إلى الإسلام هو : تحويل الأخلاق فى منبعـــها وهدفها.

إذا أنه بعدما كانت الأخلاق تنبع من مفـــهوم المجتمـــع ونظرتـــه. وصارت تنبع فى الإسلام من (الوحى).

وبعدما كانت الأخلاق تستهدف الحكم من المجتمع والناس. صـلوت تستهدف فى الإسلام (وجه الله) سبحانه وتعالى.

وبهذا (التحول) إلهام. أرســـى رســـول الله ﷺ قواعـــد الأخـــلاق الإسلامية.

وصارت الأخلاق الإسلامية : ركيزة من ركائز العقدية الإســـلامية وطريقا من الطرق الموطلة إلى رضاء الله تعالى وجناته.

فلم يعد فى ظل الإسلام أن الناس وحدهم هم : الناقمون الغـاضبون على الشخص الذى يجافى الأخلاق.

بل جاء المنهج الأخلاقى فى الإسلام يخبرنا : أن الله سبحانه وتعالى هو الذى وضع (المعايير) الأخلاقية وأن من سار عليها. فقد أطاع الله تعالى . وأن من خالفها فقد عصى الله تعالى.

وهذا جعل الأخلاق (عبادة) لله تعالى. فالعمل والعفة والطهارة والإحسان ورعاية اليتيم وحسن معاملة الجار. والبر بالوالدين والعطف على الفقراء والمساكين. وبذل المال بالصدقة والنفقة وإقامة المنشآت العامة التى تخدم الإنسانية والحرص على أداء الواجب نحو الذات والأسرة والمجتمع والحلم والصبر وكظم الغيظ والعفو عن المخطئ وعيادة المرضى وحضور الجنازات إلى آخر هذه الأخلاق الطيبة الحميدة .

صارت هذه الأخلاق مع غيرها مصدر اتصال بمنهج الله تعالى ، إذ وعى (المسلم) أن (الوحى) له توجيه فى كل خلق هذه الأخلاق ، وبجانب هذا التوجيه فإنه جعل (ثوابا) من الله تعالى فى الدار الآخرة لمن امتثل لهذه الأخلاق ، وتوعد بالعقاب من خالف هذه التوجيهات .

وبذلك صارت (التوجيهات) الأخلاقية عند المسلمين فى كل زمان ومكان ، وصار المسلم ينظر إلى الله وحده وهو يصدر عن خلقه ، ولم يعد (المجتمع) فى نظره إلا أنه مجال لتطبيق وتجلى السلوك الخلقى .

وقد أقام الإسلام بهذه (الميزة) الكبرى مملكة الوجدان الأخلاقية ، فقامت الأخلاق منطلقة من الإيمان ، ومستهدفة طريق الله تعالى ، فصارت الأخلاق قائمة فى نفس المسلم سواء كان فى الحضر أم السفر مع جماعة أو كان وحده ، ولم يعد الإنسان المسلم مبتغيا وجهة المجتمع ؛ وإنما صار مبتغيا وجه الله تعالى .

وبهذا التى كامل الأخلاقى فى المنهج الإسلامى تمت نعمة الله على الإنسانية .

ولم يشهد هذا التكامل واضحا ومحددا إلا فى (نبوة) الإسلام التى جاء بها سيدنا محمد ﷺ.

ومن هنا نستطيع أن نفهم الحديث الشريف الذى عبر عن هذا (التكامل) فى بلاغة (جوامع الكلم).

فقد أخبر النبى ﷺ عن عنصر هام من عناصر بعثته للناس ، فقال (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وندرك من هذا الحديث الشريف أن الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه لم يعلن أنه بعث بالأخلاق ؛ إنصافا منه للجوانب الأخلاقية السابقة التى اعتبرها ، ولم يقل صلوات الله وسلامه عليه أنه ـ وحده ـ الذى جاء بالمكارم الأخلاقية ، فقد لمحت بعض هذه المكارم فى بعض الشعوب والحضارات والعقائد ، ولكن الذى ذكره متميزا أنه جاء بالكمال والتكامل ، وعبر عن هذا (بالتمام) وهذا (التمام) الأخلاقى الذى بعث به خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ هو ربط الأخلاق بمنهج الله تعالى واعتباره نوعا من العبادات ، وهذا ترق فى الأخلاق لم يعهد قبل الإسلام .

وهذه (ميزة) جعلت الإسلام مع كونه الدين الخاتم ، هو الدين (الأول) فى العقيدة والأخلاق.

(علم الأخلاق)

تعـــريفه :

الأخلاق جمع (خُلُقْ) ويستعمل الخلق فى عدة معان أهمها :

١ - الطبع : وهو الصفة الراسخة التى جبل عليها الإنسان .

٢ - العادة : وهى الصفة الراسخة المكتسبة الإرادة عن طريق الممارسة .

٣ - السجية : وهى ما تشمل (الطبع والعادة) أى الصفة التى ترسخت من الالتزام بما جبل عليه الإنسان ، والالتزام بما اكتسبه من عادات وتقاليد.

تعريف علم الأخلاق فى الاصطلاح :

اختلفت عبارات العلماء فى تعريف (علم الأخلاق) وهذا الاختلاف يرجع إلى نظرة كل منهم إلى زاوية من زوايا العلم وثمرته.

١ - عرفه البعض بأنه : (علم العادات)، ولكن بعض العلماء نقدوا هذا التعريف من منطلق أن علم الأخلاق لا يبحث فى أعمال الإنسان الإرادية التى صارت من العادات والتقاليد ، وإنما يبحث فى توجيه الأخلاق حسب منهجه ، ويتسنى له الحكم عليها أولها .

٢ - ويعرف علم الأخلاق بأنه : (العلم الذى يدرس مجموعة خاصة من الظواهر الاجتماعية) وقد نقد هذا التعريف بأنه يسوى بين (علم الأخلاق) وبين (علم الاجتماع).

٣ - ويعرف علم الأخلاق بأنه : (علم يدرس الفضائل وكيفية اكتسابها ، والرذائل وكيفية اجتنابها، ويوضح المقياس التى توزن به أعمال الإنسان الإرادية من حيث هى خير أو شر مع تحديد المسئولية والجزاء على الفعل الخلقى) .

٤ – وقد ارتضى الفيلسوف الأخلاق فى المسلم (مسكويه) ت ٤٢١هـــ فى تعريف الأخلاق قوله: "الأخلاق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها مـــن غير فكر ولا روية" . ثم يقول مسكويه: "وهذا الحـــال ــ للنفـــس ــ تنقسم إلى قسمين" :

١ – منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج ، كالإنسان الذى يحركه أدنى شئ نحو الغضب .

٢ – ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه بالرويـــة والفكر ، ثم يستمر عليه أولا فأول حتى يصير ملكة وخلقا [1] .

وقد نقد بما يأتى :

١ – سوى (مسكويه) بين مصدرى الفعل الخلقى سواؤ كان صـــدارا عـــن (الطبق) أو كان (مكتسبا) ولم يعتبر (مسكويه) إلا أمرا واحـــدا وهـــو صدور هذه الأفعال عن النفس فى يسر وسهولة.

٢ – هذا التعريف بكاد أن يسبه التعريف اللغوى للأخلاق ولكنـــه أغلـــق جانب (الإرادة) فى الفعل الخلقى وهو ركيزة هامة ، فلا يمكن أن تعتـــبر عملا (ما) خلقا أو لا خلقيا إلا إذا كان صادرا عن إرادة واعية مدركـــة حرة ، صالحا للحكم عليه بأنه خير أو شر .

٥ – ويعرف حجة الإسلام (الغزالى) ت ٥٠٥هـــ الأخلاق بأنها : (عبـــارة عن هيئة راسخة عنها تصدر الأفعال فى يسر وسهولة من غير حاجـــة إلى فكر ورؤية).

---

(١) راجع ص ٣٧ من ك (تهذيب الأخلاق) ــ لمسكويه .

ويشرح الغزالى تعريفه فيقول :

(فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها الأفعال الجملية الحميدة عقــــلا وشرعا سميت تلك الهيئة: خلقا حسنا ، وإن كان الصادر لأفعـــال قبيحــة سميت الهيئة التى هى المصدر : خلقا سيئا .

وإنما قلنا : إنها هيئة راسخة ؛ لأن من يصدر عنه (بذل المال) علـــى (النذور) لحاجة عارضة لا يقال : خلقا السخاء ما لم يثبت ذلـــك فى نفســه ثبوتا راسخا .

وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأخلاق بسهولة من غير روية ؛ لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد ورويـــة لا يقـــال خلقـــه السخاء والحكمة). [1]

ويعقب أحد الباحثين على هذا فيقول : "وهكذا ميز الغزالى الحقيقى الخلقية عن السلوك المتكلف وعن الأفعال التى لا يترتب على فعلها مـــدح ولا ذم ، فالذى يبذل المال مرة واحدة فى عمره لسبب من الأسباب الطارئـة عليه لا يسمى كريما جوادا ولا الذى يبخل مرة واحدة بسبب من الأســباب يسمى بخيلا ، فإن صار البذل عادة للأول يسمى كريما ، وإن صار التقتـــير طابعا للثانى سمى بخيلا.

على أننا يجب أن نلاحظ أن الغزالى فى تعريفه لم يفرق بين الحكــــم على الشيئ بأنه خير أو شر وبين الحكم عليه بأنه جميل أو قبيح [2] .

---

(١) راجع ك (إحياء علوم الدين).

(٢) راجع ص ١٦ من (الأخلاق) د/سهير مختار.

خلاصة التعاريف :

ويظهر من هذه التعريفات وغيرها كثير ضربنا عنها صفحا للاختصار أن الأخلاق عند من يريد معرفتها إنما يجمعها خط واحد سواء كان التعريف فى اللغة أو الاصطلاح فى القديم أن الحديث إذ الأخلاق فى عمومها لا تخرج عن كونها منهج فى السلوك الإنسانى يسعى نحو هدف وغاية ينشد من خلالها الخير فى الحياة من خلال الفرد السوى المتمتع بالإرادة الحرة والذى يصدر عنه عمل صالح للحكم عليه بالخيرية أو الشرية .

وهكذا يتضح لنا أن الأخلاق ميدانها السلوك الإنسانى فى حياة الفرد والجماعة طبق قوانين ضابطة لهذا السلوك خاضعة لأحكام صارمة تصف هذا السلوك بأنه صالح للإنسان أو ضار به.

أقسام الأخلاق :

تنقسم الأخلاق إلى أخلاق نظرية وأخلاق عملية :

أولا : الأخلاق النظرية :

الأخلاق النظرية : هى فلسفة خاصة لها مبادئها التى تحكم السلوك الإنسانى وتعنى بضبط سيره ، وتمد الإنسان بقوانين ثابتة يسير عليها فى كل الأزمنة والأمكنة .

ثانيا : الأخلاق العملية :

الأخلاق العملية هى مجموعة من القواعد السلوكية التى إذا رعاها الإنسان تمكن من بلوغ غايته نحو السعادة والخير الأسمى .

الفرق بينهما : وإذا أردنا تفرقة بينهما نجد أن الأخلاق النظرية هى (الجانب العقلى) فى علم الأخلاق وهى التى تمثل (الفلسفة المجردة) أما الأخلاق العملية فهى (الجانب التطبيقى) للفلسفة الأخلاقية.

موضوع علم الأخلاق :

يمكننا أن نحدد موضوع (علم الأخلاق) بأنه هو العلم الذى يهتم (بالقيم) ومعنى القيم : هى الصورة المثالية السامية التى ينبغى أن يكون عليها الإنسان . وبعبارة أخرى نستطيع القول بأن موضوع علم الأخلاق هو دراسة ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان ، وبذلك يخرج عن نطاق موضوع البحث فيما هو (كائن) بالفعل. وقد تكفل بالبحث فيما هو (كائن) علم لنفس وعلم الاجتماع.

فموضوع علم الأخلاق على هذا المعنى هو الأحكام التقويمية التى يقاس بها السلوك. ويقول أحد الباحثين فى موضوع علم الأخلاق : "فالأخلاق إذن تدرس طباع الناس وسجاياهم وعاداهم أو فى عبارة أخرى تدرس خصائلهم والمبادئ التى يتصرفون على أساسها ، وقدر ما يعيد صواب أو خطأ من هذه المبادئ ، أو ما فى هذه السجايا من خير أو شر"[(1)]

ويؤكد على المقصود من اعتبارنا أن دراسة الأخلاق إنما تستهدف الصواب أو الخير من سلوك الإنسان ، فيتضح عن قصده من هذا الاهتمام وأنه اهتمام غايته اعتبار صلاحية سلوكنا لغرض (ما) أو (مثال) نرمى إليه ، أو قواعد ومبادئ عامة توجه سلوكنا لكى يتحقق هذا الغرض. ومادامت الأخلاق هى دراسة السلوك جملته لا فى أنواع جزئية منه ، فلا يصلح أى غرض من هذه الأغراض لأن يكون موضع الاعتبار ، ولكن الغرض الصالح هو الغرض الأسمى أو الأقصى والذى يسميه علماء الأخلاق (الخير الأسمى) .

وهذا (الخير الأسمى) هو موضوع علم الأخلاق وهو لا يخرج فى جملته عن كونه (ما ينبغى أن يكون).

---

(١) راجع ص ١٨٢ من ك (مبادئ الأخلاق) د/ ماهر كامل وآخر.

تميز علم الأخلاق عن (الفن) :

ليس من الصواب أن نصف علم الأخلاق بأنه علم تطبيقى رغم أنه يبدو وثيق الصلة بالحياة العملية .

كما أنه لا يصلح أن نصف علم الأخلاق بأن (فن السلوك) لأن الفن يستهدف التعبير عن الجمال ؛ إذ الفن يتطلب (مهارة) خاصة لا يقدر عليها كل الناس ، بينما (الأخلاق) تتطلب (الفعل) الذى يطبقه كل الناس.

اعتراضات على (علم الأخلاق):

اعترض بعض النقاد على استعمال كلمة (علم الأخلاق) وعلل هذا الاعتراض بأن دراسة المثل الأعلى فى السلوك هى فى الحقيقة دراسة (فلسفة) أكثر منها (علمية).

وأيضا فإن الأخلاق لا تسمى (علماً) إذا كان القصد بالعلم دراسة جانب معين من (الخبرة الإنسانية).

فالأخلاق جزء من الفلسفة لأنها جزء من دراسة (الخبرة) بجملتها ، فهى تنظر إلى (خبرة الحياة) من ناحية الإرادة ، إنها تنظر إلى النشاط الكلى للإنسان[1].

ولهذا يفضل الكثير من (النقاد) وصف هذا الجانب الأخلاقى بأنه (الفلسفة الخلقية) بدلا من وصفه بأنه (علم الأخلاق) وعموما فإن عمل الفلسفة يتجلى أكثر من العلم فى البحث عن الخبرة بجملتها.

وهكذا يتحدد لنا (موضوع فلسفة الأخلاق) بأنه القصد والاختيار الذى يصدر عن الإنسان عن وعى وإدراك لما يعمل بشرط صلاحية هذا العمل للحكم عليه بالخير أو الشر .

---

(١) راجع ص ١٨٣ من المرجع السابق .

فائدة علم الأخلاق :

ونعنى بهذه الفائدة هل الإنسان يمكن أن يكتسب قواعد ومبـــادئ تحمله أو تعينه على تغيير وتبديل اختلافه من خير إلى شر أو من شر إلى خير؟

وقد نحتنا عدة اتجاهات فى هذا الصدد ، فمن قائل أنه لا فائدة مـــن تعلم علم الأخلاق ، فالشرير سيظل شريرا بعوامل تصـــوره إنهـــا مرغوبـــة للإنسان على سلوك معين ، وذهب آخرون إلى غير ذلـــك ، والحقيقـــة أن النفس البشرية مستعدة بطبعها لأن تفعل الخير وتفعل الشر وهى فقط تحتـاج فى هذا المؤثر والمثير . ولا يمكننا أن نصف نفسا بأنها شريرة بطبيعتـــها ، أو خيرة بطبيعتها ، وإنما يظللها الخير أو الشر بمقدار بعدها أو قربها من منـــابع كليهما .

وقد دلنا الله سبحانه وتعالى على هذه الحقيقة حيث أرسل الرســـل والأنبياء لدعوة الناس إلى طريق الخير ، وهؤلاء الناس الذين كـــانوا مجـــال الدعوة كالآن أكثرهم سادرا فى الشر والخطيئة ، ورغم واقعهم الأخلاقـــى فإن الدعوة وجهت إليهم واهتدى منهم من اهتدى .

وعقيدة (النبوات) إنما توصل لفكرة أن النفس البشرية صالحـــة لأن تستقيم على الأخلاق الحميدة ، وأن الله سبحانه وتعالى الذى خلق النفـــس الإنسانية يعلم ما يصلحها وما يضرها ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُـــوَ اللَّطِيـــفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

وتتجلى هذه (الفائدة) عندما تضم إلى (النبوة) ما وصلنا عن طريقها من طلب للعبادة المتصلة عدة مرات فى اليوم ، فـــإن هـــذا (الاتصـــال) فى العبادات يدل على أن النفس البشرية (عرضـــة) لأن يغتالهـــا (الشـــيطان) ويقتلعها من طريق (الأخلاق) وبذلك كان هذا الاتصال الدائم الدائب بـــالله تعالى.

وبتوجيه (النبوة) وفكرة (الاتصال) يظهر لنا أن النفس البشرية تحتاج إلى رعاية أخلاقية، وأنها يمكن أن تتبدل وتتغير من الخير إلى الشر ومن الشر إلى الخير . وهذا يؤكد (فائدة) دراسة (علم الأخلاق) والعمل على تنمية مبادئه داخل النفس الإنسانية .

(الأخلاق عند القدماء)

إن من يتصفح تاريخ (فلسفة الأخلاق) يجد أن مؤرخى هذا العلم قد ارتضوا التقسيم التاريخى لهذا العلم الذى ارتضاه مؤرخو الفلسفة . ومن هنا يؤرخون (لفلسفة الأخلاق) عند القدماء عندما يريدون الولوج إلى تقرير (فلسفة الأخلاق) بصفة عامة .

الأخلاق والقدماء :

ذكر التاريخ أن الشعوب والحضارات منذ وجد الإنسان على الأرض ، كانت تعيش وفق فلسفة ارتضتها ، وطبق (معيار) قد صار بدون نظام أخلاقى معين .

نعم : يمكن القول بأن هذه الأنظمة الأخلاقية كانت من قبيل (الأخلاق العملية). أما (فلسفة الأخلاق) كمذهب فلسفى وكعلم مستقبل مدون له أصوله وقواعده ، فإنها لم تعرف بين الشعوب إلا فى عصر ازدهر الفلسفة وعلى يد الإغريق .

ورغم هذا ، فإن مؤرخى (الأخلاق) لا يستطيعون أن يغفلوا الاتجاهات الأخلاقية عند الكثير من الشعوب فى الشرق والتى عرفها الغرب ـ مثلا فى الإغريق . ولذلك يجدر بنا أن ننوه الجانب الأخلاقى عند الشعوب الشرقية خاصة وقد وجدنا من يعترف بفضل الشرق على الغرب فى هذا الميدان.

فقد شهد بعض اليونانيون القدماء المنصفين ومنهم (ديودور) الصقلى المؤرخ الإغريقى الذى زار مصر بين عامى ٦٠ ، ٥٧ ق. م ، فقد ذكر (ديودور) الذين اتصلوا بمصر وعاشوا فيها فترة من الزمن من علماء اليونان وفلاسفتها ومنهم "هوميروس" شاعر اليونان الشهير وسولون المشرع الاثينى ، و "فيثافورس" الفيلسوف الرياضى المعروف و "ديمقريطس" أحد رجال المدرسة الطبيعية و "أفلاطون" صاحب نظرية المثل ..الخ . هؤلاء الأعلام والذى تبدى الفكر الشرقى فى فلسفتهم مما يدل على تأثرهم .

وعليه : فليس الفكر الإغريقى فى جميع جوانبه بمعزل عن الفكر الشرقى . وفى ذلك يقول أحد الباحثين (لسنا بمتعصبين إذا رأينا أن صرح الفلسفة الإغريقية دخل فى بنائه من الحجارة المجلوبة من الشرق .[1]

١ – الأخلاق عند المصريين :

عرف المصريون الكثير من الأخلاق العملية ، وكانت قلوبهم مليئة بالعاطفة الجياشة نحو فكرة العدل ، وقد سرت فكرة (العدل) فى الأخلاق المصرية حتى وجدنا (العدالة) تشيع فى حياة الفرد وحياة الجماعة ، وكان التواصى بالعدل عندهم يصل إلى درجة هامة حتى وجدنا أن بعض الفراعنة يعنى يصلح وزير له حين عين فى منصبه ، فيأمره بان يهتم بأمور الناس جميعا ، البعيد منهم والقريب ، المجهول منهم والمعروف ، فإن أصدق واجبات الأجراء (العدالة) .

كما جاء فى نقوش وجدت على قبر أحد الحكام أنه لم يسئ معاملة أحد من الناس ولم يظلم أرملة ، ولم يستهن فلاحا ، ولم يطرد رعايا ، ولم يسخر فى أعماله عمالا بلا أجر ، وبذلك زال البؤس عن ولايته .

(١) راجع ص ١٦ من ك (تاريخ الأخلاق) د/ محمد يوسف موسى

كما كان المصريون يعتقدون أن كل إنسان مسئول بعد موته عما صدر منه فى حياته قبل الموت ، وإن هذه المسئولية ستفضى به إلى محاكمة فى الآخرة أمام اثنين وأربعين قاضيا برئاسة أوزوريس وسيمثل الميت أمام هذه المحكمة يدافع عن نفسه ذاكرا أنه يجعل بالأخلاق الحميدة ، وأنه ابتعد عن الأخلاق الذميمة ، ثم يصدر الحكم من واقع مسئوليته الأخلاقية ، إما له وإما عليه ، فالجنية للأخلاق الحميدة ، والنار للأخلاق الذميمة .

ومما جاء فى كتاب (الموتى) من دفاع الميت عن نفسه أمام محكمة (أوزوريس) .

إننى لم اقترف إثما ولم اعتد على أحد ولم أسرق ولم اتسبب فى قتل أحد غيلة وغدرا ولم أبخل بشئ من القرابين للآلهة ولم أكذب ولم أجعل أحد يبكى ولم أكن دنسا ولم اقتل الحيوانات المقدسة ولم اتلف أرضا مزروعة ولم أش بأحد ولم أغضب مطلقا ولم أزن ولم أرفض سماع الحقيقة ولم أسئ لا إلى الملك ولا لأبى ولم ألوث الماء ولم أجعل سيدا يسئ معاملة عبده ولم أحنث فى يمينى ولم أغش فى الميزان ولم أحرم رضيعا من مرضعته ولم أصد شيئا من طيور الآلهة ولم امنع الماء فى إبانه ولم اقطع قناة ماء عن مجراها ولم أطفئ نارا عند الحاجة إليها ولم استخف بصوت الله فى قلبى إنى طاهر إنى طاهر [1]

ومن هذا الدفاع الأخلاقى الرائع يظهر لنا أن قدماء المصريين عرفوا الكثير من: الأخلاق العطية واهتموا بها وراعوها فى سلوكهم.

يقول المؤرخ الإنجليزى (باريستيد):

(فالمصريون هم أول قوم اعتقدوا بترتيب الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية. ويرجع هذا الاعتقاد إلى عهد المملكة القديمة والغريب: أن هذه

(١) راجع ص ١٨ من المرجع السابق .

العقيدة انحصرت فى المصريين أكثر من ألفى عام فى حين أن البابليين والإسرائيليين اعتقدوا انتقال الموتى عامة إلى سفر..)[1].

ويرى بعض الباحثين: أن الباعث عند (قدماء المصريين) لم يكن فعل الواجب من أجل الواجب ولا من منطلق العمل على تحقيق (مثل) من المثل العليا النظرية. بل كان (الباعث) نفعيا. إذ كانوا يدعون إلى (الخير) فى هذه الدنيا. رجاء الخير فى الحياة الأخرى ..[2].

٢-الأخلاق عند الهنود:

أن الديانة (البوذية) تعتبر هى والديانة (البرهمية) المصدر الذى يصور الجانب الأخلاقى عند الهنود.

أ-البرهمية: البرهمية هى عبارة عن نظام دينى اجتماعى سياسى وينسب إلى (براهما) وهو عندهم: الآله الأعلى الذى أوجد العالم ويتولى تدبيره. فيحفظه متى شاء ويهلكه متى شاء.

وقد شاع (التثليث) فى الديانة البرهمية فالآلة عندهم ثلاثة هى:

١-براها الموجد. ٢-فشنو الحافظ.

٣-سيفا الملك .

وهذه الثلاثة (إله واحد) .. !! (وقد اقتبس هذا فيما بعد) وقد قامت العقيدة البرهمية على :

أ-وحدة الوجود. ب-تناسخ الأرواح.

والمراد بوحدة الوجود، أن الكون والله تعالى شئ واحد، وما نلاحظه فى الموجودات إنما هى مظاهر للآلة تعود الكائنات وبه تتحد..

---

(١) راجع ص ١١٢ من ك (تاريخ مصر فى أقدم العصور) ترجمة د/ حسن كمال.

(٢) راجع ص ٢٠ من ك (تاريخ الأخلاق).

والمراد بتناسخ الأرواح: أن الإنسان عندما يموت تتقمص روحه بجسد آخر فى بطن أمه. فتنقل بذلك الأرواح من جسد إلى جسد حسب الأعمال الخلقية. أن كانت حسنة ارتقت وانتقلت إلى أجسام صحيحة راقية. وإن كانت سيئة انتقلت إلى أجسام عليه جاهلة. وهكذا فلا بعث ولا حشر بل أن من مات فقد قامت قيامته. وهذا معنى الخلود عندهم.. أنه خلود فى الدنيا التى لن تفنى ولن تزول..

وقد زخرت (البرهمية) بالعديد من المبادئ الأخلاقية التى تتصل باحترام الناس وحبهم والعفو عن المسئ.

تقول البرهمية: (أن الذى يعفو عن المسئ له يكون أثيراً مكرماً لدى السماء. والذى يحمل الحقد يذهب به إلى الجحيم).

وفى قوانين (مانو) أحد فلاسفة البرهمية نجد أن (الأطفال والمسنين والفقراء والمرضى يجب أن نعتبرهم مادة العالم الذى نعيش فيه والمرأة يجب أن تكون موضع احترام خاص حيثما لا نكوم النساء يكون لا جدوى من أفعالنا الخيرة. لا يجوز مطلقا أن نضرب المرأة ولو بزهرة) [(١)].

وبرغم فساد العقيدة البرهمية.. فأننا نلمح بعض المعانى الطيبة من خلال هاتيك الوصايا الأخلاقية التى تؤكد أن (البرهمية) عرفت بعض الجوانب الأخلاقية.

ب-البوذية: أسس هذا المذهب (بوذا)- أى الحكيم- وقد عكف على (البرهمية) فدرسها. ثم قرر أن يعد صياغتها من جديد واستطاع أن يصوغ منها (دين) جديد كثر فيه الاتباع. وكان هو (نبى) هذا الدين. كما وصف نفسه.. واتباعه ألهوه..

---

(١) راجع ص ٢٢ من المرجع السابق.

وقد أقام (بوذا) فلسفته على: أن الحيـــاة لا تخلــو مــن (ألم) وأن التخلص من هذا الألم لا يكون إلا بالزهد فى هذه الدنيا. والإقبـــال علــى التأمل وأخذ النفس بالمحبة والصداقة.. وقام (بوذا) بإلغاء (النظام الطبقـــى) الذى كان عليه (البراهمة) الذين قسموا المجتمع إلى (طبقات) تستذل كـــل (طبقة) ما تحتها من طبقات.

وتقوم (البوذية) على (التناسخ) ولذلك تدعو إلى الأخلاق الطيبـــة حتى تولد الروح مرة أخرى فى جسد راق. وحتى تظل تترقى من رقـــى إلى رقى حتى تبعث فى جسد (كاهن) وعندئذ يصل إلى مرحلة (الخـــلاص) مـــن الولادة .. وهذه هى (النجاة) أى: النجاة من التناسخ ويسمون هذه النجـــاة (النيرقانا) أى السعادة القصوى.

وقد أشاد (بوذا) بالمساواة بين الإنسانية ومن كلماته فى هذا (عيشوا مخفين أعمالكم الطيبة معلنين أخطائكم. أحبوا الناس والكائنـــات كلـــها- ليست الولادة من طبقة معينة هى التى تخلق- البراهمى الحـــق. أنـــا اسمـــى "براهميا"- ذلك- الفقير الذى لا أربه له. والذى هو برئ يتحمل الإهانـــات والضربات ولو بالحديد بصبر وطيبة. والذى لا يضرب حيوانـــا ضعيفـــاً أو قويا.. والذى لا يقوم المعتدى عليه. والذى لا يحمد حاسديه. كل أولئـــك هم: البراهميون الحقيقيون بهذا الاسم)[1].

ويقول (بوذا) مؤكدا على وجوب مقابلة السيئة بالحسنة: (إذا كـــان الحقد يرد على الحقد فكيف ينتهى إذاً...)

وللبوذيين أسطورة رمزية توضح مدى عنايتهم بخلق (البذل) والعطاء تصور الأسطورة أن (أرنباً) لا يملك شيئاً يبذله. قد قصده يوما من يطلـــب

(١) راجع ص ٢٤ من المرجع السابق.

مساعدته. فعز على الأرنب أن يرده فما كان إلا أن (شوى) نفسه حتى يعطيه.

ويصور لنا أحمد الباحثين (محاورة) بين (بوذا) وتلميذ (برنا) وهو بصدد إرساله إلى قوم للتبشير بالبوذية.

المحاورة

بوذا : أنك مرسل إلى شعب غضوب قاس متوحش سفيه فلو أنهم بادروك بالسب واللعن. فماذا يكون رأيك فيهم؟

بوذا : أرى أنهم أناس طيبون. لأنهم شتموني. ولم يضربوني بيد أو حجر.

بوذا : فإن ضربوك بيد أو بحجر؟

برنا : أرى أنهم أناس طيبون. لأنهم ضربوني باليد أو الحجر ولم يضربوني بالعصا أو السيف.

بوذا : فإن ضربوك بالعصا أو بالسيف؟

برنا : أرى أنهم أناس طيبون لأنهم ضربوني بالعصا أو السيف ولم يقضوا على حياتي.

بوذا : فإن قضوا على حياتك؟

برنا : أرى أنهم أناس طيبون رحماء لأنهم خلصوا روحي من هذا الجسم المليئ بالادناس بأقل ما يمكن من الآلم.

بوذا : هذا حسن يابرنا. وأنك لخير من يستطيع أن يعاشر تلك الشعوب البربرية. اذهب يابرنا فأنت الخالص. فخلص غيرك وأنت المعزى فعز غيرك. وأنت الواصل إلى (النيرفانا) فاذهب وادع إليها الآخرين[1].

---

(١) راجع ص ١١ من ك (تاريخ النظريات الأخلاقية) د/ أبو بكر ذكرى.

وهكذا تقف على بعض الجذور الأخلاقية فى العقيدة الهندية ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن هذه التعاليم (الهندية) قد نحت- فيما بعد- فى العقيدة المسيحية.

٣ـ الأخلاق عند الفرس:

قبل الميلاد بحوالى سبعة قرون وجد المفكر الفارسى (زرادشت) الذى استطاع أن يؤلف للفرس دينا يسمى (الزرادشتية).

ولا يجد المؤرخون قبل (الزرادشتية) ما يلفت النظر عند الفرس.

الورادشتية:

تقوم الديانة الزرادشتية على الاعتقاد بوجود (آلهين) أوجدا العالم وتقاسماه. وهما :

أ)إله الخير ويسمى (مازدا). ب)إله الشر ويسمى (أهرمن).

وبذلك فإن الزرادشتية هى ديانة (ثنوية). أى تقوم على فكرة وجود: آلهين اثنين. هما مبدأ كل شئ وقد خلق (إله الخير) السماء والأرض والملائكة والصالحين من الناس وكل ما هو خير وجميل.

أما (إله الشر) فقد خلق: المردة والشياطين من الإنس والجن. وهو سبب كل الرذائل والشرور والأمراض التى تتفشى بين الناس.

والعالم – عند الورادشتية- ينقسم إلى حزبين:

(حزب الخيرين- وحزب الأشرار).

وقد قامت الحرب بين هذين الإلهين وكل (إله) يبغى الغلبة والنصر له ولحزبه. وما تزال الحرب قائمة بينهما.

وهى (سجال) مرة ينتصر (مازدا) وتارة ينتصر (أهرمن) ولكن فى النهاية: سيكتب النصر الحاسم: لإله الخير وحزبه. وسينال حزب الشر جزاء الأشرار.

وهذه العقيدة الباطلة الساذجة التى لم تمتد إلى التوحيف وإنما تخبط عقلها فقالت بالثنوية: تزعم أن لها (نبيها) مبعوثا من (أله الخير) هو (ورادشت). وأن الآلة قد أنزل عليه كتابا سماويا هو (زند افستا) وهذا الكتاب المقدس عندهم خرج به (زرادشت) على الناس بعد عزله استمرت عشر سنوات ويحتوى هذا الكتاب على:

١-عبادة الله والكفر بالشيطان.
٢-الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.
٣-الدعوى إلى اجتناب الخبائث.
٤-العمل بشريعة (مازدا) التى لا تأمر إلا بكل ما هو حسن وجميل من القول والفعل[1].

والأخلاق عند هؤلاء الفرس بنيت تأسيسا على رايهم فى (الألوهية) ..: فالإنسان لديهم فى صراع مستمر بين: النور والظلمة والخير والشر والحياة والموت. وعلى الإنسان إذا أراد أن يكون على خلق كريم أن يضع نفسه وإرادته الحرة رهن مبادئ: الخير والحياة والنور. وبذلك يكون قد أتبع سبيل الفضيلة. وكل إنسان لديه القدرة والحرية فى أن يجعل أو يعطل انتصلو الخير على الشر[2].

(١) راجع ص ٢٥ جـ٢ من ك الملل والنحل للشهرستانى.
(٢) راجع ص ٢٩ من ك (تاريخ الأخلاق).

وهذه الأخلاق للزرادشتية كما تلاحظ: تدعو إلى السلام الذى يعم البشرية. ويبدو بين ثناياها (التفاؤل) فى النصر والصراع الذى فيه يحرك الطاقة نحو : العمل والنشاط.

والسلوك الحسن والأعمال الطيبة تمثل جانبا هاما من جوانب انتصار إله الخير على أله الشر. وهذه (مساعدة) من البشر للآلهة[1].

٤ـ الأخلاق عند الصينيين:

إذا ذكرت (الصين) وحكمتها القديمة. فإن هذا- بالتالى- يعنى : ذكر الحكماء الذين أثروا وأثرا .. وأهم هؤلاء الفلاسفة: "كونفوشيوس" ت سنة ٤٧٩ ق. م.

يعتبر (كونفوشيوس) هو مؤسس: الفلسفة العملية عند الصين وقد بذل جهداً هائلا فى الناحية الخلقية.

وتعتبر (الصين) من أجله: أسبق شعوب الشرق القديم استلهاما لفلسفة الأخلاق. والبحث فيها بحثا مجردا عن الميتافزيقيا[2].

ولد (كونفوشيوس) سنة ٥٥١ ق. م فى أسرة مرموقة متصلة بالحكم.. وتدرج فى المناصب حتى شغل وظيفة (وزير العدل) .. ثم عين (رئيسا للوزراء) ولكنه عزل من منصبه فطفق يجوب البلاد من أجل أ يبث الناس تعاليمه الأخلاقية.

ويذهب الباحثون إلى أن المذهب الأخلاقى الذى ينسب إلى كونفوشيوس: ليس كله وليد فكره. بل أنه قد استلهم فيه (الأسفار القديمة)

---

(١) راجع ص ١١ من ك (تاريخ النظريات الأخلاقية).

(٢) راجع ك (تاريخ النظريات).

التى صورت آداب الصين. وتقاليدها وحكمتها. وكل دوره أنه: أضاف إليها وحذف فكان هذا المذهب الذى ينسب إليه[1].

الواجب الصينى:

اعتبر كونفوشيوس فكرة (الواجب) وجعلها (تاجاً) لفلسفته. فهو لذلك: مقدس عظيم.

ومن هنا: يجب على كل إنسان أن يبدأ بمعرفة (الواجب) الذى يستمد قوته وقيمته من ذاته. ولا يعرف سلطانا إلا سلطان نفسه[2].

واعتبر (كونفوشيوس) هذا الواجب هو (القانون الأخلاقى) الذى يجب أن تصدر عنه كل الأفعال لكل الناس فلا يأتون أمرا أو يذروه إلا من خلال هذا القانون الأخلاقى وهو (الواجب).

ولا يكون أخلاقيا. أو على خلق: من يحيد عن هذا الواجب إذ يجب أن تكون جميع الأعمال منبعثة عنه على معنى: أن أى عمل أو نشاط ينبغى هدفاً أو غاية مهما كانت وبدرن (الواجب) يكون عملا ونشاطاً: لا أخلاقيا.. ويفقد المرء بذلك: قيمته الأخلاقية ولا يوصف بالفضيلة. كما لا يوصف عمله بأنه فاضل..

والواجب إذا اتخذ غاية وباعثا: غمرنا حبه بالسعادة الكاملة.

ولكن ما هو هذا (الواجب) الذى ربط (كونفوشيوس) الإنسان به حتى كاد أن يكون إليها .. ووصفه بصفات الآلة...؟ وكيف يثق الإنسان أنه فعلا يطيع أوامر هذا الواجب..؟

---

(١) راجع ص ٣٠ من ك (تاريخ الأخلاق).

(٢) راجع مقدمة ك (دروس فى تاريخ الفلسفة).

ويعجز (كونفوشيوس) "عن تعريفه أو تحديد معناه ولكنه مع هـــذه الجهالة يقول: (لا علينا إلا الاستماع) للصوت الذى يحسه كل منا فى قــرارة وإلا أن يستجيب له فيكون مؤديا للواجب فاضلاً سعيدا.

ويلاحظ: أن (الواجب) الذى أدار عليه فلسفته هو (الواجب) الذى جاء به بأكثر من عشرين قرنا من الزمان الفيلسوف (كـــانت) فاعتـــبره فى مذهبه الأخلاقى.

ولعلنا أدركنا الآن أن (واجبل) كانط (ولد سنة ١٧٢٤م) مـــأخوذ من (واجب) كونفوشيوس.

تعاليمه:

١–على المرء أن يحاسب نفسه على ما عمل.

٢–الرجل الكريم – عنده– هو الذى لا يحزن ولا يخاف ويقول فى ذلـك (أن من حاسب نفسه. ولم يجد عليها خطيئة. فماذا يحزنه ويخفيه .. ؟).

٣–المرء مفطور على الخير. و (يولد الإنسان مستقيما لمن فقـــد الاســـتقامة ومازال فى الحياة. فنجاؤه من الموت إنما هو من حسن طالعه).

٤–القدوة تؤثر فى الأخلاق والسلوك. إذ (كلما سرت بين رجلين. وجـدت لنفس أستاذين. من له فضائل ومن له رذائل فهو عبرتى).

وهذه العجالة ترينا مكانة البحث الخلقى والفلسفة الخلقيـــة عنـــد قدماء الصين.

٥ـ الأخلاق عند الإسرائيليين:

كان الإسرائيليون– أبناء إسرائيل (يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيـــم عليه السلام– يؤمن بالإله الواحد. وكانت عقيدة (التوحيد) واضحة عنـــد الإسرائيليين) [(١)].

---

(١) راجع مقدمة ك (دروس فى تاريخ الفلسفة) للدكتور إبراهيم مدكور.

وقد مزج هؤلاء: العقيدة الموحدة ببعض المبادئ الأخلاقية التى تحدثت عنها (التوراة) وقد تعارفوا على ذلك. حتى وجدنا أحدهم يقول فى القرن السادس قبل الميلاد: (ليس لجميع الشعوب إلا إله واحد .. وتكريمه أن يكون الكل عادلا).

وقد جاءت (التوراة) تتحدث فى عصرها الزاهر عن الموت والخلود. فجعلت (الفناء) للأجساء. و(الخلود) للنفس. التى ستحاسب. وستساق إلى: الجنة أو إلى النار.

وقد لوحظت (العدالة) تتآخى مع (الخير والفضيلة) وترتكز فكرا أخلاقيا عند الإسرائيليين فى ذاك العهد. فقد جاء فى سفر (الأمثال) من التوراة: (أن الله يبغض العيون المتعالية. واللسان الكاذب. والأيدى السافكة للدم البرئ والقلب العامر بالشر. والأرجل السريعة الجرى للسوء وشاهد الزور. وزارع الخصومات بين أخوة). ويقول: (إن مساير الحكماء يصير حكيما ورفيق الجهالة يضر)[1].

ونلاحظ– أيضا– عند حكماء اليهود ملامح النزعة الأخلاقية السليمة فى ذاك العهد. فنجد مثل: (أحب غيرك كنفسك. ولا تعامله بما لا تحب أن يعاملوك به) ونجد (ها لى) اليهودى يقول فى وصف صاحب الأخلاق الحميدة عنده: (من لا يضطهد مضطهديه ومن يتحمل الإهانة صامتا. ومن يفعل الخير حبا فى الخير. ومن يستسلم لآلامه فرحا. أولئك هم أصدقاء الله)[2].

ويقول (موسى بن سيمون) أكبر فلاسفة اليهود. والمولود بالأندلس. وصاحب كتاب (دلالة الحائرين):

---

(١) راجع ص ٣٥ من ك (تاريخ الأخلاق).

(٢) المرجع السابق.

(أن قاعدة شريعة موسى أن الإنسان ذو استطاعه مطلقة أى: بطبيعته واختياره وإرادته يفعل كل ما للإنسان أن يفعله).

وكذلك: من جملة شريعة موسى: أنه تعالى لا يجوز عليه الجور بوجه من الوجوه. وأن كل ما يتزل بالناس من البلايا أو يصلهم من النعيم– أفرادا كانوا أو جماعات– كل ذلك على جهة الاستحقاق . فلو 'صاب الشخص فى يده.

وأزالها لحينه لكان ذلك عقاباً له. ولو نال أيسر لذة لكان ذلك جزاء له . وكل هذا باستحقاق . لكنا نجهل وجه الاستحقاق) .

وهذا التجديد الأخلاقى لليهود . يلمح فى معظمه من تأثير البيئة الأندلسية التى سادت فيها حضارة الأخلاق الإسلامية.

وقد تحدث بعض اليهود عن أثر (الفطرة الإنسانية) فى تقويم الأخلاق وتهذيبها .

ولكنهم عولوا كثيراً على فكرة (الضمير) فيجعلوه هو:

الذى يهدى الناس بنوره . ومقياس الخير والشرف فى الإنسان . و وصفوة بأنه (الحارس الملائكى الذى شاء الله الحكيم الرحيم أن يضعه فينا لينقل لنا نصائحه وأوامره الأبوية . وليكون قاضياً حين نبتعد عن الطريق السوى.

على أنه : ليس معنى هذا أن (الضمير) عندهم قائد لا يضل . وناصح لا يخطىء .. أن الشهوات قد يقوى أمرها . ويعلوا عليه صوتها . فيضعف أمامها. ويتأثر بها فى احكامه وهنا : يكون الضلال فيها.

ولعلاج هذه الحالة .كان لابد من (الوحى) لمساعدة الضمير وإرشاده ...)

وهذه المعانى الأخلاقية السامية التى لمحت فى البيئة الإسرائيلية . وصارت ترنيمة للحكماء عندهم عصفت بها الرياح. وعدت عليها : مؤثرات الحياة المادية . فتركوا هذه المعانى .. ووضعوا (التلمود) وزادوا فيه عصرا بعد عصر .. ثم بعد ذلك : كتبوا (بروتوكولات) حكماء صهيون .. التى نطقت بما بدلوه وغيروه .. حتى التوحيد الخالص .. أضافوا إليه (التشبيه) وزادوا فيه (التجسيم)، .

وهنا نلمح أن ضوء الحق ساير الإنسانية . ولكن الإنسانية هى: عمت وصمت . وتركت الحق إلى الباطل التى صنعته..

تقييم:

من خلال هذا العرض الوجيز . رأينا أن الشعوب القديمة قد عرفت المبادئ الأخلاقية .. ولكن هذه المعرفة لم تكن كاملة..

ونحن على يقين : ان هذه المعانى الأخلاقية التى لمحت فى هذه المجتمعات ما هى إلا بقايا من (الوحى)المبدل بمعرفتهم . والذين أعرضوا عنه.. أو اعرض عنه سلفهم الطالح . وبقيت (البقايا) الأخلاقية تدل على أثر المنهج الكامل.

ومهما يكن من شيء : فأن هذه النظرة إلى الشرق القديم أعطتنا أن الشرق عرف (الأخلاق).. ولكن (الغرب) قد صاغها .. وخلق منها (علماً) بالمعنى الاصطلاحى ..وأن الإغريق لم تكن وحدها فى ميدان الرقى العقلى أو الأخلاقى..

الإغريق والأخلاق :

يقسم الباحثون أدوار الأخلاق عند الإغريق نفس التقسيم الذى ارتضوه فى الفلسفة).

أ-دور الإعداد والتمهيد. ب-دور النشأة والبناء.

الدور الأول: (الأعداد والتمهيد).

يصف الباحثون سمة هذا العصر بأن الأخلاق كانت فيه لا تعـدوا أن تكون فى صورة (الحكيم) ومصبوبة فى قالب (النصائح). وكانت تجرى علـى ألسنة الشعراء والحكماء ..أو كانت تلمح : أراء منشورة فى بعض نواحـى الأخلاق . لا تعرف الإحاطة والشمول . أو التماسك المنهجى . وكـانت على مستوى مفكك الروابط . مبتور الأجزاء . مهلهل العرض . لا تظـهر فيه (الوحدة) العضوية. أو : (الوحدة) الموضوعية وهذا الوضع (باعد) بينـها وبين مفهوم كلمة (علم) . بالمعنى الاصطلاحى.

وإذا كنا نعلم أن التفكير الإغريقى القديم . لا نستطيع أن نبـدأه إلا منذ ما وصلنا من مدوناته . وأقدم ما وصلنا من هذه المدونات هى (الإلياذة) و(الأوذيسة) للشاعر الإغريقى (هومـيروس). وبعدهـا وصلنـا ديـوان (الأعمال والأيام) للشاعر الإغريقى (هزيود) ومن خلال هذين الشـاعرين . نستطيع أن نقف على ملامح التفكير الأغريقى فى العصر القديم.

هوميروس:

تحتوى(الالياذة) و(الأوذيسة) على كثير من مظاهر الحياة الإغريقية. سواء أكان هذا المظهر أخلاقياً .

أولا أخلاقيا . وقد صيغ هذا الشعر أثناء (حرب طـروادة) الـتى حدثت ما بين سنتى (١١٩٣-١١٨٤ق.م)بين : إسبرطو الإغريقية . ومدينة (طروادة) على شاطئ آسيا الصغرى (تركيا الآن).

وإذا تصفحنا هذا الشعر لنجد له علاقة بالأخلاق عند اليونان نجـد: أن (هوميروس) كان يمتدح ويشيد بفضيلة وكيف صبر (أبطال) ديوانه على: نوائب الدهر . وكافحوا من اجل (العفة).

وبجانب ذلك وصف (الآلهة) الإغريقة . أوصافها غير أخلاقية . وكأنه كان يرى أن الأخلاق تطبق فقط على الناس . دون الآلهة التى تتناسل وتسكن جبل (أولمب) وتنضم تحت لواء كبير الآلهة عند الإغريق والمسمى (زيوس).

هزيود:

فى شعره وجدت (الأخلاق) لها متسعاً عن ذى قبل فأستهدف (هزيود) معان أخلاقية واضحة وجعلها محور شعره. فمثلاً : اتخذ (العدالة) مرصدا لبعض شعره فيقول: (من يضر الغير يجلب الشر على نفسه . عين (زيوس) تبصر كل شىء. إذا كان الذى يربح الدعوة هو الأكثر صلاحاً – فساداً – فمن الضار أن يكون المرء صالحاً . ولكن لا أعتقد أن يكون (زيوس) الحكيم جدا قد صنع مثل هذا .. إن ساعة العقاب آتية لا محالة..)[1].

وهذه المعانى الأخلاقية .. كانت تهب عليها رياح (الوثنية) فتقتلع جذورها فى أغلب الأحيان..

الفيثاغورثية:

يعتبر (فيثاغورس)ت ٤٩٧ ق.م مؤسس(الفيثاغورثية)التى دانت بالكثير من المبادئ والقواعد . وجعلت من (الفيثاغورثية) أكبر مدرسة فلسفية اهتمت بالأخلاق فى عصر ما قبل (سقراط).

وقد وضع نزعة الأخلاق عند الفيثاغورية. فقامت على الزهد والتقشف وإنكار الذات . ويكاد يكون (التصرف) بمعناه الهندى هو محرر:

---

(١) راجع ص ٨ من ك (تاريخ الفلسفة اليونانية).

الأخلاق عند الفيثاغورين: (أنهم كانوا يدينون بالتناسخ . الـــذى يتطلـــب الاعتقاد به المبالغة فى الزهد ورياضة النفس .

من اجل هذا: كانوا يعلمون أن الخير فى انتصـــار : الريـــح علـــى الجسم. وان الفضيلة فى الإعراض عن اللذات . وزان العفة جهاد بين العقـل والشهوات .. وكانوا يوصون بوجوب الأذعان له ومنها : احتمال الحيـــاة وآلامها تكفيراً عما سبق ارتكباه من آثام الحياة السابقة)[1].

وكان (فيثاغورث) قوى العاطفة الدينية . فجمـــع بـــين : العلـــم والدين . وأسس (جمعية دينية) عملية . لنه كان يعتقد : (أن العلم وســـيلة فعالة لتهذيب (الخلاق) وتطهير النفس ... وكان للفيثاغورثيين آداب سـلمية وفيهم تقوى صحيحة...)[2].

وكانت (الجمعية) التى أنشئها (فيثاغورث) فى أول أمرهـــا تدعـــوا إلى: (الإصلاح الدينى ومكارم الأخلاق. وطهارة النفـــس مـــن الرجـــس والدنس) . وكان أعضاؤها يرتدون لباسا أبيضاً شعار لهم . وقد آثـــروا فى عيشهم الخشونة والتقشف لأن الجسم لم يكن فى رأيهم إلا سجن حبس فيـه الروح . فينبغى أن نحطم من قيوده وأغلاله ما وسعنا التحطيم . ولابد لنـدأن نسلك بنفوسنا كل سبيل لتخليصها من سجنها على إلا يكـــون الانتحـــار سبيلاً مشروعاً . لأن الإنسان ملك لله)[3].

ولن الفيثاغوريين: خلطوا فى فلسفتهم بين : الدين والعلم وجدنا انـه نظرهم إلى الحياة. قد اتسمت بالنضج وتحديد المسئولية والحث عليها..

---

(١) راجع ص ٤٥ من ك (تاريخ الأخلاق) د/ محمد يوسف موسى.

(٢) راجع ص ٦ من ك (دروس فى تاريخ الفلسفة)د/ إبراهيم مدكور.

(٣) راجع ص ٢٨ من ك (قصة الفلسفة اليونانية) د/ أحمد أمين وزميله.

يقول الفيثاغوريين: (يجب مساعدة الناس فى حل أثقـالهم لا حملـها عنهم..).

ويقولون : (لا تجعل للنوم عليك سبيلاً قبل أن تعرض على نفسـك ما مر بك فى يومك . وما علمته طيلة النهار . فتتساءل

عما نقصك من خير كان يجب أن تعلمه . وعما أتيت من شر كـان يجب تركه. . وهكذا: تستعرض أعمالك واحدا بعد الأخر . فـإن رأيـت أخيراً انك اقترفت إثماً ندمت . وإلا سررت واطمأنت .

وقد آثرت (الفيثاغوريـة) بأفكارهـا- فيمـا بعـد- فى فلسـفة (أفلاطون). وفى (الأفلاطونية المحدثة) وتجمع هذا التأثير فى المسيحية).

هيرقليطس:

فى (المدينة الطبيعية) أنتهج التفكير الفلسفى المادى نهـج (الريـادة) حتى وجدنا (لمسة) الأخلاق فيها ترتكز على (الفلسفة) . فهو يعتبر أن العالم فى تغير مستمر. وفق قانون صارم . وعلى الإنسان أن يخضع لهذا النظـام . وأن (يحتمل ما يأتى بع فى صبر .. وأن يقمع شهواته لأن الشـهوة توكيـد للشخصية . والشخصية انتقاض علـى القـانون الطبيعـى .. ومعارضـة للتغيير)[1].

ولم تنتشر آراؤه (الأخلاقية) بين الناس لتعمده (الغموض) فى تأليفـه لأنه كان يبتعد عن (العامة) ويكتب للخاصة [2]. وهذا يوضح أنه لم يقصـد نشر أخلاقه.

---

(١)راجع ص ٤٧ من ك (تاريخ الأخلاق).
(٢) راجع ٥٤من ك (قصة الفلسفة اليونانية).

ديمقريطس.

صدر (ديمقريطس) فى فلسفته الأخلاقية من مذهب (المنفعة) لأنه كان (مادى) النزعة ويعتقد فناء الجسد والروح .. فلا خلود ولا بقاء . (والسعادة هى الغاية النهائية التى يجب أن تطلب فى هذه الحياة . وأساس ذلك كلمة: الفقه والتمييز بين اللذات . والمفاضلة بينهما : والتزام حد الاعتدال فيها ..) [1].

ويقول ديمقريطس : ((ليست السعادة مرهونة بالقصور المشيدة والضياع الفسيحة . إنما هى متوقعة \على الحالة النفسية وحدها فكلما ازدادت هدوءا وصفا . ازداد المرء سعادة ونعيماً . والسبيل المؤدية إلى ذلك هى: اعتدال الحاجات وبساطة العيش) [2].

السوفسطائيون والأخلاق:

فى عصر من العصور الإغريقية ساد التعصب كل عقل يونانى . فقد صار كل (إغريقى) يتعصب لإقليمه ومدينته ويرى أنها أرقى المدن وأعظمها (نظاماً) –وكان يعلى مصلحتها على ما دونها من مدن وأقاليم . وأسلمت هذه (النزعة) إلى : الأنانية والفردية . فصار كمل (إغريقى) يرى نفسه فوق (مدينته) نفسها . وأن مصلحة (الذات) مقدمة على مصلحة (الجماعة) ومصلحة (الدولة).

وفى هذا العصر: ظهر (السوفسطائيون) وهم عبارة عن طائفة من (المعلمين) متفرقين فى بلاد اليونان. اتخذوا (التدريس) حرفة لهم. وكانوا

---

(١)راجع ص ٤٧ من ك (تاريخ الأخلاق).

(٢)راجع ص ٧٧ من ك(قصة الفلاسفة اليونانية).

د. أحمد أمين .

يرحلون من بلد إلى بلد. يلقون (المحاضرات) ويتخذون لهم طلبة. ويتقاضون على تعليمهم أجرا.

وكانوا يعملون: موضوعات مختلفة يتطلبها الشعب أنذاك. فمثلا أختص "بروتاجوراس" بتعليم: قواعد النجاح في السياسة. واختص بروتاجوراس بتعليم : قواعد النجاح فى السياسة. واختص "جورجياس" بتعليم البلاغة وعلم السياسة واختص (لروديكوس) بتعليم قواعد النحو والصرف. واختص "هيياس" بتعليم التاريخ والطبيعة والرياضة(١).

والسوفسطائيون – بذلك – هم (معلمو بيان) وهذا معنى الاسم فى أصله اليونانى. ولكنهم اساءوا استعمال الجدل واصبحوا مغالطين ومعلمى مغالطة. وتحول منعى اللفظ تبعا لتحولهم.

وكانوا (يعارضون العقائد والأخلاق والعادات بعضها ببعض عند مختلف الشعوب. فشككوا الناس فى العقل والحق والخير والشر والعدل والظلم. ودافع بعضهم عن: الشهوة الأمارة فسماها (الطبيعة) وحبذا الرجل القوى الذى يتبع طبيعته: غير حافل بالمبادئ الخلقية وعلل – السوفسطائيون– المبادئ– الأخلاقية– بأنها. اختراع العامة ضعاف النفوس الذين يحاولون أن يحتموا وراءها دون بطش(٢) القوى) (٣).

٣–وقد هوجم (السوفسطائيين) عبر التاريخ هجوما يستحقونه لأنهم جعلوا الإنسان (مقياس كل شئ) فما يراه خيرا فهو خير. وما يراه شرا فهو شر.. فأفسدوا: المبادئ والقواعد والأخلاق..

---

(١) راجع ص ٩٣ من ك (قصة الفلسفة اليونانية).

(٢) راجع ص ١١ من ك (دروس فى تاريخ الفلسفة).

(٣) والعجيب : أن مثل هذا ما زال يقال فى العصر الحديث (الغرب) القوى بتعين (المنفعة).

وفى خضم هذا الضباب الداكن من الهجوم المؤهل بـــالدليل. نجـــد بعض الباحثين يبحث لهؤلاء عن بارقة أمل وسط هذا الضباب فيقول:

(.. من الحق أن لا ينكر عليهم أنهم- السوفســطائيون – كـــانوا الأولين الذين أثاروا مسائل كثيرة وجدت فيه الفلسفة الأخلاقية فيما بعـــد غذاء دسما لها. لقد أثاروا مسألة :

الفضيلة وكيف تكون للمرء... قد يكون من الحق أن نقـــول أن السوفسطائيين ساعدوا بقوة فى إيجاد علم الأخلاق النظرى) (١).

وبجانب أننا لا نوافق على هذا .. فأننا نعتقد أنهم: عبثوا بالإنســـان وعقله وفطرته وبداهته وقوانينه الفكرية. وكانوا (سبعة) فى تاريخ الإنسانية.

وعموما : لقد جاء (سقراط) فتصـــدى للسوفســطائيين وهدمـــن فلسفتهم. وأفحمهم. وتبدت الفلسفة على يديه فى (ثوب) قشيب. وجعـــل (للأخلاق) مكانا رفيعا فى فلسفته.

تقييم :

ظهر لنا أن العناية بالمبادئ (الأخلاقية) وجدت جذورها منذ بكـــور الفلسفة الإغريقية ولذلك نحن لا نذهب مع من يقول:

(كانت الفلسفة الإغريقية حتى القرن السادس قبل الميلاد. فلســـفة طبيعية مادية لا تعنى بالبحث عن الخير والشر) [٢].

ولعلنا نقرر الحق عندمـــا نقـــول: أن (الأخـــلاق) حـــتى العصـــر (السوفسطائى) لم ترق إلى مستوى(العلم) الكامل.. ولم تكن قد نجحت فى أن يكون (فلسفة) بالمعنى الاصطلاحى.

---

(١) راجع ص ٥٧ من ك (تاريخ الأخلاق).
(٢) راجع ص ١٣ من ك (تاريخ النظريات الأخلاقية) د. أبو بكر ذكرى.

النشأة

الدور الثانى : (دور النشأة والبناء):

وبصفة الباحثون بأنه الذى أسست فيه (الأخلاق) وتكونت. بحيث صارت (علماً) قائماً بذاته. له فلسفته وأصوله وقواعده ومسائله. وقد بلغت: (فلسفة الأخلاق) فى هذا (الدور) شأواً رائداً من الكمال والنضج.

ويرجع المؤرخون الفضل فى هذا كلمة إلى أشهر فلاسفة الأغريق نضجاً واكتمالا وهم : (سقراط وأفلاطون وأرسطو).

وسنعرض للجوانب الأخلاقية فى فلسفة هؤلاء لندرك كيف تكونت (فلسفة الأخلاق) كعلم من نتائج أفكارهم...

١ـسقراط :

أشرنا إلى دور (السوفسطائية) فى هدم النظام العقلى والاجتماعى والإنسانى. سواء فى الأخلاق أو الدين أو القانون. أو الحقيقة البديهية أو المطلقة. وجعلوا الإنسان (مقياس كل شئ). فتداعى فى الواقع قانون الحق وانهار.

وفى هذا الجو : جاء (سقراط) فانقذ الفكر الإنسانى من هذه الوحدة التى تردى فيها على يد السوفسطائية.

وقد لد (سقراط) فى (أثينا) سنة ٤٧٠ ق.م من أب يحترف صناعة التماثيل. وأم تعمل (قابلة). وحاول (سقراط) أن يصنع (التماثيل) مثل أبيه. ولكنه سرعان ما تركها. واشتغل بالفلسفة. وعاش حياته كلها فى (اثينا) ولم يغادرها إلا عندما اشترك مع جيش بلاده فى حرب (البلوبنيزية) سنة ٤٣١ - ٤٠٣ق م وظل يعمل بالفلسفة يعلمها للناس والشباب خاصة. حتى اتهم وهو فى (السبعين) من عمره بإنكار الآلهة الإغريقية. والدعوة إلى آلهة جديدة وأنه يفسد عقول الشباب وحكم عليه بالإعدام فأعدم بتجرعه

(السم) سنة ٣٩٩ ق م وحاول تلاميذه أن ينقذوه من الموت (بتهريبه) من السجن. ولكن (سقراط) رفض الهرب. ومات وسطِ تلاميذه الذين تفرقوا فى البلاد يبشرون بفلسفته[١].

كان سقراط قبيح المنظر قصيراً بديناً بارز العين (جاحظ) ذو أنف كبيرة وفم واسع. ولكنه لم يجعل هذه (الملامح) سببا فى أنطرائه أو عزلته أو حقده على الناس والمجتمع. بل جعل هذا الشكل (الدميم) مستودعا لنفس جميلة ذكية وقد أحبه الناس لعدله وبعده عن الظلم. وحكمته الرصينة وبصره بالأمور حين الحكم عليها بالخطأ أو الصواب. وكأن قائما بكفاف العيش ذو إرادة قوية يسيرها ولا تسيره. كل هذا بجانب: عقل فلسفى وفكر دقيق. وحب للحكمة.

وكان يعلن بأنه ليس (حكيما) وإنما هو (محب للحكمة) أى (فيلسوفا)[٢].

ولم يقصد (سقراط) أن ينسئ مدرسة علمية. عندما كون (جماعة) من التلاميذ يسيرون خلفه بانتظام واستمرار. بل كان يحاول أن يتحدث إلى الناس من خلالهم: كى يكتشف وإياهم : الحقيقة التى انكرها (السوفسطائيون).

وكان (سقراط) لا يهتم بالمظاهر الخارجية ولا الجمال الحسن. بل وجه كل اهتمامه إلى: الباطن فارتفع بحياته الباطنة ارتفاعاً تاما (حتى أنه كان كثيراً من الأحيان فى شبه ذهول لاستغراقه فى تأمل باطنى)[٣].

---

(١) راجع ص ١٥ من ك (تاريخ النظريات الأخلاقية).

(٢) راجع ص ١٠٧ من ك (قصة الفلسفة اليونانية).

(٣) راجع ص ١٨ من ك (أفلاطون) (صيف الفكر اليونانى) د/ عبد الرحمن بدوى.

منهجه: كان (سقراط) يجادل منكر (الحقيقة) بمنهج خاص ابتكره يقوم على ركيزتين (التهكم – والتوليد) وفى نطاق ركيزة (التهكم) كان يتصنع الجهل ويتظاهر بتسليمه لآراء الخصم. ثم يبدأ فى إلقاء (الأسئلة) على مجادلة. الذى (استنام) إلى تسليم سقراط. فإذا بهذه (الأسئلة) تثير الشكوك فى نفس المجادل .. ويظل وراءه. حتى يحمله على الاقرار بالجهل. ومن يومها صار: السؤال مع تصنع الجهل يسمى (بالتهكم السقراطى) وغرضه تخليص (العقول) من العلم الزائف. وتهيئتها لتلقى الحق ثم بعد ذلك: يلج (سقراط) إلى ركيزة (التوليد) فيلقى أسئلة مرتبة ترتيباً عقلياً. بحيث تنهض إلى اكتشاف الحقيقة من خلال هذا المنهج فينطق بها وحده.. وكأنه يدفع إليها دفعاً بهذه الأسئلة وتحتاج (الفرحة) نفس (الخصم) لأنه هو الذى نطق بالنتيجة، وهذا التدرج هو ما يسمى (بالتوليد). أى : استخراج الحق من النفس. وكأنه (كامن) فيها ولا يحتاج إلا إلى رجوع المرء إلى نفسه حتى يتضح ويظهر.

وكان (سقراط) يعنى (بتحديد) معانى الألفاظ التى يدور حولها الجدل والنقاش. وكان يستخدم (الاستقراء) فى الوصول إلى الحقيقة حتى قال عنه (أرسطو) إن (سقراط) هو (أول من طلب الحد الكلى طلباً مطرداً وتوسل إليه بالاستقراء أى: كان أول واضع لمنهاج العلم) (١).

منهجه فى الأخلاق :

وفق (سقراط) فى جعل منهج (التهكم والتوليد) طريقة له فى البحث فى الأخلاق. فأقام تعاليمه وفلسفته الأخلاقية عليها (المحايرة) التى تقوم على منهجه المبتكر. وذهب (سقراط) إلى أن الباحث لا يتأتى له أن يعرف الإنسان إلا بمحادثة الناس، لأن (الإنسان) هو الذى يحمل (القدرة) وعلى اختبار الآراء التى تتعلق بالأمور الإنسانية. وبذلك يصير هذا (الإنسان) فى

(١) راجع ص ١١ من ك (دروس فى تاريخ الفلسفة) د/ إبراهيم مدكور.

(أمان) من الخطأ فى التفكير أن كان تفكيره يتم بطريق (المحاورة) التى تصحح بواسطة من يحاوره.

والحقائق الأخلاقية – عند سقراط – ليست إلا: معرفـــة للطبيعـة الإنسانية. وهى موجودة عند كل إنسان ولكـــن (القلائـــل) هـــم الذيـــن يستطيعون التعبير عنها.

الأخلاق عند سقراط :

يكفى عند نقاد الفلسفة (سقراط) فخرا ومكانة أنـــه ظـــل يدعـــو (الاغريق) إلى الفضيلة ولو لم يفعل إلا هذه الدعوة لكفاه ذالك.

وقد سجل تاريخ سقراط الفلسفى: أن لـــه مذهبـــا متماســـكا فى (الأخلاق) عرفت (بالفلسفة الأخلاقية).

وتجدر الإشارة إلى أن سقراط لم يعن بنظريـــات (الطبيعـــة والمـــادة والكون) كأغلب: فلاسفة الإغريق وكذلك: ليـــهتم بـــالبحث فى علـــوم (الرياضة) .. وإنما وجه كل طاقته الفعلية والذهنية إلى: الإنسان والأخـــلاق وكانت فلسفته أخلاقية. واتخذ لتها شعاراً وجده فى معبد (دلفى) هو (أعرف نفسك بنفسك)[1].

ولذلك عرف عن (سقراط) بأنه (مؤسس علم الأخلاق) ذلـــك لأن مذهبه كان سقراط يرى أن الفضيلة يمكن أن (تعلم) مثـــل بـــاقى العلـــوم الأخرى[2].

وكان (سقراط) يريد من قوله (الفضيلة العلم) أنه: متى حصل هـــذا العلم. لن يبق محل لتمييز العلم عن الفضيلة لأن الذى يعلم أن هذا (خـــير).

---

(١) راجع ص ١٢ من ك (دروس فى تاريه الفلسفة) د/ مذكور.
(٢) راجع ص من ك (قصة الفلسفة اليونانية) د/ أحمد أمين.

يفهم ويوقن طبعاً أن من صالحه أن يعمله. وإذا يمكن: إلا أن يريد عملـه لأن الإرادة لا يمكن أن تسير ضد العقل. وليس ضلالها وعثراتهـا إلا: ضـلال للعقل نفسه.

وعلى ذلك: إذا علمنا أن هذا خير أردناه ومتى أردناه علمنـاه لأن كل إنسان يطلب الخير لنفسه وهذا النخير يكون بتوافق: الإرادة مع العقـل وبذلك يتحقق (الخير) بالعمل وفق العلم والمعرفة[1].

وكان (سقراط) يرى أن الفضيلة (أثمن) من كل ما فى الحيـاة. بـل أفضل من الحياة ذاتها وأن الإنسان يجب طيه أن لا يخافو لا يخشى فى هـذه الحياة إلا شيئاً واحد هو: الشر الأخلاقى.

وأن: الشرير الطاغية لا يستطيع أن (يشقى) الرجا الفاضل مـهما أنزل به من ممن وآلام.. ما دام هذا (الرجل) معتصما بفضيلته متحليا بها.

والحياة الهانئة بالمنصب والثروة والحياة. وسائر متع هذه الحياة: كلها لا تعدل: الفضيلة التى هى: الحكمة والمعرفة الحقة.

والأخلاق عند (سقراط) تختلف عن الأخلاق عند (السفسطائية). إذ كانت وسيلتهم إلى ما يتصورونه الأخلاق هى (الخطابة). بينمـا كـانت وسيلة (سقراط) هى الجدل (الديالكتيك)

وقد ذهب (أفلاطون) تلميذ سقراط إلى أن : المعيار الأخلاقى الـذى أتخذه سقراط هو (السمو الروحى) وينقل عنه قوله: (أن الخير أو الفضيلـة: صحة الروح بينما الشر أو الرذيلة مرض لها. ولهذا يجب أن تقاس الأعمـال حسب كونها مؤدية لتحقيق هذه الغاية: غاية السمو الروحى) [2].

---

(١) راجع ص ٦٨ من ك (تاربى الأخلاق) د/ محمد يوسف موسى.
(٢) راجع ص ٤٨ من ك (أفلاطون) د/عبد الرحمن بدوى.

الفرد عند سقراط :

كان (سقراط) يطلب من (الفرد) أن يتخذ له (غاية) فى الحياة هـي: ألا يكون عبدا لأى شئ فى هذه الحياة. بل يكون مكتفيا بنفسه وهذا الاكتفاء هو (القناعة) فى هذه الحياة.

وعلى ذلك : فالقناعة يجب أن تكون الفضيلة الرئيسية التى ينشدها الفرد فى حياته وأن يحرص على التحلى بها.

وليست القناعة- عند سقراط- هى : الزهد فى (ملذات) الدنيا فقد كان سقراط يأخذ بها ويعترف... ولكن القناعة معناها عنده: أن يكون الإنسان (معتدلا) فى الذات ولا يكون أسيرا لشهواته.

وبذلك يظهر أن ما ينشده (سقراط) من الفرد هو: الاعتدال وضبط النفس وحينئذ: يكون هذا (الفرد) أخلاقيا وفاضلا..

الصداقة عند سقراط:

لعله قد خشى (سقراط) من حديثه عن (الفرد) أن يظن بفلسفته (الأخلاقية أنه يدعو إلى العزلة والفردية) والانطواء على النفس ولذلك : وجدناه يتحدث فى فلسفته الأخلاقية عن معنى (الصداقة) ويعنى بها : اتصال الفرد بالأفراد الآخرين وهذه الصداقة شئ ضرورى للحياة لأن العلم عنده هو الفضيلة وهذا العلم لا يتم فى فلسفته إلا (بالمحاورة) وهذه (المحاورة) لا تكون إلا مع (أفراد) آخرين مجتمعين.

وهذه الصداقة بين الأفراد: تستلزم (الحب) الذى تصوره - سقراط- متبادلا بين الأفراد وقد عنى به: الرغبة فى نفع الأخرين والانتفاع بما يقدمه هؤلاء.

ولذلك يجب أن يكون هذا (الحب) من جانبين ولا يصح أن يسمى (حبا) عند سقراط ما كان من جانب واحد وقد ارتفع سقراط بفكرة الحب إلى درجة لم تكن معروفة كثيرا عند اليونانيين(١).

ورغم هذا فانه : اعتبر صلة (الزواج) مسألة ثانوية فعدها وسيلة للنسل فقط ويجعل الأساس هى: صداقة الأصدقاء.

الأخلاق والسياسة عند سقراط :

كان يطالب بأن يؤدى كل إنسان واجبه نحو الدولة وسقراط ينظر إلى : إطاعة القانون نظرة سامية حتى أنه يعتبرها: مقياس الفضيلة وكان يربط (الفرد) بالدولة ربطا محوره (الطاعة) فيطالبه بأن يؤدى كل ما تطلبه منه الدولة.

وكان سقراط يرفض فكرة: الاقتراع والتصويت الانتخابى لأنه – عنده – لا يمكن أن يكون وسيلة للحكم السليم إذ مصدر الحكم السليم – عنده– هو: العلم الصحيح وهذا لا يتأتى ألا للعلماء والحكماء وهذه النزعة تدعو إلى (الاستقراطية) وتناوئ (الديمقراطية) التى كانت لها مكانة عند اليونانيين.

ومن أجل نظرته إلى الدولة تلك. وجدناه: يحبذ العمل ويجعله أسلس الفضيلة بين الناس بل والمفاضلة أيضا لان الفضيلة عنده (علم) والعلم لا يتأتى إلا بالعمل ومن هنا: أشاد بالعمل فى فلسفته الأخلاقية.

ولعلنا ندهش عندنا نجد (سقراط) يدعو فى فلسفته الأخلاقية التى مذهب عرف بعده قرون عند (المسيحية) وهو : عدم مقاومة الشر بالشر.

---

(١) راجع ص ٢٥ من المرجع السابق.

يقول (أفلاطون) معبرا عن مذهب أستاذ (أن سقراط كان يطـــالب بألا يفعل الإنسان الشر مهما كان وبالنسبة التي أي إنسان كائن من كـــان حتى ولو كان هذا الإنسان: عدوا............)[1].

تقييم:

ظهر لنا بوضوح أن سقراط هو : مؤسس علن الأخلاق وفق ذلـــك يقول الفرنسي (اميل بوترو) عضو أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسة: (ولد علم الأخلاق في اليونان في اللحظة التي استولى فيها العقل على أزمة الحيـــاة الإنسانية ... وسقراط هو : المؤسس الحقيقي لهذا العلم.

لقد كان الأول – بمعنى سقراط– الذي أدرك هذه الفكرة وهـــي أن العلم الأخلاقي أساسا يتميز عن التقاليد الدينية– يقصـــد الديـــن الوثـــني الإغريقي أنذاك – وأنه مع هذا لا يرتكز على العادات أو الغرائز– يقصـــد أنه فارق بذلك علم الاجتماع وعلم النفس– بقد رآى– سقراط – أن مـــن الممكن أن نجد في الملاحظة اليقظة المنظمة للطبيعة الإنسانية: العناصر اللازمـــة لمذهب أخلاقي لا تعوزه الدقة ولا السمو ولا السلطان كل المسألة كانت إذا معرفة طبيعة الإنسان الحقة وبهذا كأن مذهب سقراط أول محاولة للأخـــلاق الحر العقلية..

إن أخلاق سقراط تتلخص في هذه الحكمة: أعرف نفسك. علـــى أن تكون هذه المعرفة عميقة مبتكرة على طريقة سقراط الخاصة بـــــه: أعـــرف نفسك بنفسك. ومعناها: أن يبحث المرء بفكره. فيكشف ما فيه من شـــئ ذاتي عام دائم يميزه عما عداه ويكون خاصية الإنسان. ثم إذا عـــرف هـــذا الشئ عليه أن يتصرف على وفقه وهكذا كانت هــــذه الفكـــرة: أســـاس

(١) راجع ص ٦٨ من ك (تاربى الأخلاق) د/ محمد يوسف موسى.

الأخلاق الهيلينة– الإغريقية– وكـــان هـــذا الأســـاس. هـــو : ازدهـــرت باليونان)[1].

وبذلك : بأن لنا فضل (سقراط) على (علم الأخلاق) وكيف اعتـنى به وقصر فلسفته عليه. وقعده وقننه وعرف: الفضيلة وكيفية الوصول إليـها. وأرشد إلى وسيلة الحصول على (السعادة) التى هى عنـــده: غايــة علــم الأخلاق.

٢ـ أفلاطـــــون:

كان أفلاطون تلميذاً لسقراط. ودام على ملازمته أعواما طويلـــة. وقد شهد له أستاذه بالنبوغ وقال: (كم من أشياء حملنى هذا الفتى– يعــنى أفلاطون– على الخوض فيها. ولم تكن قد خطرت لى من قبل ببال).

وقد تتلمذ أفلاطون لسقراط حوالى (عشر سنوات) ولم يفارقه حــتى موته.

وإلى أفلاطون يرجع الفضل فى نقل تعــاليم وفلســفة ســقراط إلى الأجيال التالية. إذ لم يؤثر عن (سقراط) مؤلفات أو مدونات. وإنما الــــذى حفظ لنا آراء سقراط فى كتب هو (أفلاطون).

ولم يشهد التاريخ عقلية مثل (أفلاطون) الذى اســتطاع أن ينشــئ فلسفة كاملة جعل محورها نظريته فى (المثل) [2].

حياته :

ولد (أفلاطون) فى أثينا سنة ٤٢٧ ق.م فى أسرة (أرستقراطية) كبــيرة النفوذ علمته العلوم الرياضية والآداب الإغريقية. وما جاء فى كتب الفلاسفة

---

(١) راجع ص ٧٣ من ك (تاريخ الأخلاق) د/ محمد يوسف موسى.

(٢) راجع ص ١٦ من ك (تاريخ النظريات الأخلاقية).

الذين سبقوه وتتلمذ فى العلم الطبيعى على أحد تلاميذ (هيرقليطس) وعندما ناهز العشرين من عمره تتلمذ لسقراط وبعد موت سقراط تتلمذ (لاقليدس) فى (ميغارى) حوالى: ثلاث سنوات. فتأثر بالجدل. وبعدها سافر إلى (مصر) وقض بها ما يقرب من (عام) واتصل بالمدرسة (الكهنوتية) فى جامعة (عين شمس) القديمة. وظهرت آثار زيادتها لمصر فى فلسفته. ثم زار (إيطاليا) وقابل بعض (الفيثاغوريين).

ثم رجع إلى أثينا سنة ٣٨٧ق.م فأنشأ (مدرسة) على أبواب المدينة تطل على بستان (أكاديموس) وهو (بطل أسطورى). فسميت مدرسة أفلاطون فيما بعد (بالأكاديمية) وكانت تشبه (الجامعة) فى عصرنا الحديث. حيث كانت تعنى بجميع العلوم. ويدرس بها العديد من الأساتذة. وظل أفلاطون يدرس فيها.

ومكث بها حوالى : أربعين عاما. حتى مات سنة ٣٤٧ق.م [١].

الأخلاق عند أفلاطون:

يرى أفلاطون أن الفضيلة ليست مرادفة للذة .. وليس الفضيلة – أيضا– : عمل ما يراه كل شخص حقا.

ويرى: أن الفضيلة ليست عمل الحق. فقد يعمل الحق على أساس باطل. فلا يكون فضيلة. إذ يشترط فى الفضيلة: أن يعرف لم كان هذا الحق حقا.

لهذا كانت الفضيلة عند أفلاطون هى : العمل الحق صادراً عن معرفة حقه بقيمة الحق[٢].

---

(١) راجع ص من ك (دروس فى تاريخ الفلسفة) د/ مدكور.
(٢) راجع ص ٢١٥ من ك (أفلاطون) د/ عبد الرحمن بدوى.

وبذلك فرق (أفلاطون) بين : الفضيلة الفلسفية والفضيلة العادية التقليدية. إذ عمل الخير. لأن الناس يفعلونه يعتبر عملا من قبيل: الفضيلة عند عامة الناس. وهو يشبه الفضيلة عند: النحل والنمل .. أى هى : فضيلة تلقائية عزيزية لا أثر للإدارة والعقل فيها.

وقد أشار (أفلاطون) الذى كان يعتقد فى (تناسخ الأرواح) أن أرواح هؤلاء الفضلاء ستحل فى: النحل !!!

وقد تساءل (أفلاطون) عن معنى (الخير) وكيف تصل إلى معرفته. وما هو مقياس الخير والشر؟

وما هى غاية الغايات التى إذا قرب العمل منها كان خيرا وإذا بعد عنها كان شرا..؟

يرى أفلاطون: أن (السعادة) هى غاية الغايات وأن العمل كلما اقترب منها كان خيرا. وكلما بعد عنها كان شرا..

ويصل أفلاطون إلى تساؤل هام. يقول : ما هى هذه السعادة...؟

يهرع (أفلاطون) إلى نظريته فى (المثل) بصفة خاصة وفلسفته الكلية بصفة عامة. وقد وجد إجابته عن هذا السؤال تتكون من أربعة أجزاء.

الجزء الأول : العلم بعالم (المثل) وهو : الفلسفة.

الجزء الثانى: تفهم الارتباط بين عالمى: المثل والحس وكيف (يتجلى) عالم المثل فى عالم الحس وذلك (التجلى) يستتبع (عشق) ما فى عالمنا من جمال.

الجزء الثالث: التثقف بأنواع العلوم والفنون.

الجزء الرابع : التمتع بلذائذ هذا العالم النقيـــة الطـــاهرة البريئـــة. والترفع عما هو خسيس ودنئ[1].

ويرى أفلاطون أن الفضيلة العليا هى: فضيلة العدالة ويعـــنى بهـــا: توازن القوى النفسية وتعادلها بحيث تكون قوة الغضب وقوة الشهوة وقـــوة العقل فى تعادل. ينشأ عن اعتدال العقل. فضيلة الحكمة. وينشأ عن اعتـــدال الغضب الشجاعة. وينشأ عن اعتدال الشهوة: العفة. ومجموع (الاعتـــدال الناشئ من هذه (القوى) يسمى (العدالة).

وهذه (العدالة) تؤدى إلى (السعادة) ذات الأجزاء الأربعة التى هـــى غاية الحياة[2].

ويرى بعض الباحثين أن أفلاطون عندما أقام الجانب الأخلاقى عنـده على فلسفته العامة. كانت المسألة الأخلاقية (حلها يسيرا. أليس من البـين فى هذه النظرية. أن الواجب الانصراف عن الجزئيات. تلك الأشباح الزائلـــة والصور الخادعة والخيرات الزائفة والتعلق بالجمال بالذات. علـــه الجمـــال المتفرق فى الأشياء. والمقصد الأسمى للإدارة فى نزوعها إلى المطلق) [3].

وقد حصر أفلاطون الفضائل فى قوى (النفس) لأنه كان يـــرى: أن فضيلة الإنسان هى : التشبه بالله مثال الخير المطلق. وهذا (التشبه) يقتضـــى أن يفهم الإنسان نفسه وقواها. حتى يحقق (الانسجام).

---

(١) راجع ص ٦٩ من ك (قصة الفلسفة اليونانية).

(٢) راجع ص ١٦ من ك (تاريخ النظريات الأخلاقية) أبو بكر ذكرى.

(٣) راجع ص ١٩ من ك دروس فى تاريخ الفلسفة.

بين هذه القوى فتصلح النفس به. كما أنصلح العالم بهذا الانسجام المثبوت فيه.

الخير المطلق عند أفلاطون:

أفلاطون يهتم مثل باقي فلاسفة الأخلاق. بيان معنى (الخير). فيجعل (موضوع) علم الأخلاق النظرى- الفلسفي-: تحديد معنى: الخير المطلق. أى: الخير الذى يكتفى بنفسه ولا يكون وسيلة لغيره.

وبهذا يتضح الفرق بينه وبين سائر (الخيرات) وليس هذا الخير المطلق هو (اللذة)- عند أفلاطون وحدها .. وكذلك ليس (العلم) وحده هو الخير المطلق وبما أننا لا نعرف من الخيرات سواهما.. وجب علينا أن نجعلها أساسا للخير المطلق. الذى يوجد (ثمرة) لاتخاذ (اللذة بالعلم).

فالخير المطلق عند أفلاطون هو : مزيج متناسب من اللذة والمعرفة[1].

السعادة عند أفلاطون :

يعتقد أفلاطون بالرابطة بين : السعادة والفضيلة والسعادة التى هى نتاج الفضيلة تتحقق فى هذه الحياة متى كان الإنسان فاضلاً.

كما ربط أفلاطون فى قوة بين: الأخلاق والسياسة فتحدث عن (الفرد) باعتباره: ومصدر (الدولة) وهذه الدولة فى نظره هى (الفرد) مكبراً. والفضيلة التى تجمعهما تنحصر فى وجوب أن يقوم كل منهما بالعمل على وجه الكمال. وقد حفلت (جمهورية أفلاطون) بالعديد من نظرته الأخلاقية.. والتى قامت على الربط بين الأخلاق والسياسة برباط فلسفى وثيق(٢).

---

(١) راجع ص ٧٩ من ص (تاريخ الأخلاق).

(٢) راجع ص ٨٤ من ك (تاريخ الأخلاق) د/ محمد يوسف موسى.

تقييم :

وقد أخذ (النقاد) على فلسفة (أفلاطون) الأخلاقية: أنها لم تتعد وجهة النظر اليونانية التى كانت موجودة فى عصر أفلاطون. ولكن هذا لا يؤثر فى أنه حاول أن يوجد فى المجتمع الإغريقى: أخلاقا حميدة. فمثلاً : كانت تسوده فكره قصر عمل الخير على الأصدقاء.. ومعاملة الأعداء بالشر. فوجدنا (أفلاطون) يهاجم هذه النزعة ويقول: (أنه ليس من الخير مطلقا أن تفعل شرا سواء كان ذلك الشر موجبها إلى عدو أو إلى صديق. وواجب على الإنسان أن يعامل أعداءه بالخير لعله يكون منهم أصدقاء ومن الفضيلة أن ترد الشر بالخير. فذلك أسمى من أن تجاوب الشر بالشر) (١).

ومهما يكن من أمر هذه (الفلسفة الأخلاقية) فإن النزعة الروحية فيها: واضحة ومهدت السبيل- فيما بعد- أمام الأخلاق الصوفية فى: المسيحية والأفلاطونية الحديثة(٢).

---

(١) راجع ص ١٧٧ من ك (قصة الفلسفة اليونانية).

(٢) الأفلاطونية المحدثة أو مدرسة الإسكندرية الفلسفية كما يسميها العرب هى: إحدى الموجبات الفكرية التى عاشت فى الإسكندرية فى القرون الأولى للميلاد ومنذ فتح الإسكندر للشرق وحتى الفتح الإسلامى. ويطلق على القرون التى تلت موت الإسكندر الأكبر (العصر الهيلينى) وهذه المدرية لها خصائص متميزة نضجاً وانحطاطاً رجالها ومن أشهر (فيلون) ٢٥ ق.م - ٤ بعد الميلاد و (أفلوطين) ٢٠٥م - ٢٧٠م.

الأخلاق عند أرسطو

يتميز أرسطو بأنه الصورة الدالة على شموخ وقوة واكتمال الفلسفة اليونانية .

وقد أسهم فى جوانب العلوم الفلسفية المختلفة ، ووضع بناءه فى فلسفة الأخلاق مستخلصاً رأى سابقيه ناقداً ومحللاً .

وقد ولد أرسطو ٣٨٤ ق.م ، وتوفى ٣٢٢ ق.م فى مستعمرة يونانية على بحر (إيجه) وكانت تسمى (أسطاجيرا) .

و أرسطو من أسرة عريقة نبغت فى علوم الطب (١)، وطفولة أرسطو تكاد تكون مطوية ، لم يلق عليها الضوء فلم تصلنا كاملة .

ويكفى أن نعلم أن أباه قد مات وهو طفل صغير وترك لوالده أرسطو مالاً وفيراً ، ولكنه لم يحسن إدارته فأفلس وفقد ميراثه .

ولما كان والده (نيقوماخوس) طبيباً للملك (أمينتاس الثانى) ملك (مقدونيا) فقد تعلم أرسطو فى البلاط الملكى وزامل فى الدراسة (فيليبوس) والد الاسكندر الأكبر (المقدونى الشهير) فهيأته هذه الزمالة ليكون على صله قوية بالبلاط الملكى .

ولما وصل عمره (العشرين) عاماً ، غادر مقدونيا (أثينا) موئل الفلسفة والعلم آنذاك ليتلقى العلم على يد أساتذة (الأكاديمية) التى أنشأها أستاذه (أفلاطون) ، وأعجب أفلاطون بالتلميذ المقدونى لما شاهده عليه من قوة العقل وملامح الذكاء والثقافة فى تحصيل العلم والقراءة ، حتى لقبه (بالقراء) لكثرة إطلاعه على الكتب ، ثم بعد نضجه سماه (العقل) لتميزه عن كل طلاب (الأكاديمية) ، ثم عينه أفلاطون (معلماً) لعلم الخطابة .

---

(١) فى هذا العصر كانت العلوم فى أحضان الفلسفة ونشأت وترعرعت على يد الفلاسفة ، ثم استقلت عنها بعد ذلك (علماً علماً) بعوامل الزمن والنضج والاستقلال ، فالفيلسوف كان طبيباً ومهندساً ورياضياً وسياسياً ومعلماً .. الخ .

ولقد ظل أرسطو ملازماً لأستاذه أفلاطون بالأكاديمية لمدة عشـــرين عاماً ، ولم يترك الأكاديمية إلا بعد وفاة أستاذه (أفلاطـــون) وقـــد تـــأثر (أرسطو) عندما أوصى أفلاطون لابن أخيـــه (إسبوســـيبوس) برئاســـة الأكاديمية مع أنه لم يكن مقرباً منه كما كان (أرسطو) .

ثم بعد ذلك رحل عن (أثينا) متوجهاً إلى (أسوس) بآسيا الصغرى – تركيا الآن – عندما طلب منه حاكمها (هرمياس) الذى كان يزامله فى (الأكاديمية) بأثينا .

وظل أرسطو فى (أسوس) ثلاثة أعوام ذاق فيها طعـــم الاســـتقرار وراحة البال ، وبدأ يتفرغ لتقرير الفلسفة التى تكونت لديه خلال رحلتـــه العلمية وعلاقته بالفلاسفة خاصة (أفلاطون) .

وقد عاونه على الاستقرار أن زميله (هرمياس) زوجه أبنته ، ولكن (الفرس) هاجموا مدينة (أسوس) وقتلوا (هرمياس) ، فوصل أرسطو إلى مدينة (ميتيلين) ولما ماتت زوجته تزوج امرأة أخرى أنجب منـــها ولـــده (نيقوماخوس) وهو الذى جعل اسمه عنوان كتابه الذى ألفه فى الأخلاق وهو (الأخلاق إلى نيقوماخوس) .

ولكن الأمور تطورت بالنسبة لأرسطو ، فقد طلبـــه (فيليبـــوس) الأمير المقدونى ليتولى تعليم ولد (الاسكندر الأكبر) .

ولعلنا بذلك وصلنا إلى أنه كان تلميذا لأفلاطون وكـــان أســـتاذاً للإسكندر الأكبر المقدونى (منشئ مدينة الإسكندرية) الذى ظل يعلمه لمدة (خمس سنوات) .

ولما تولى (الاسكندر الأكبر) الحكم بعد اغتيال أبيه ، ترك أرسطو البلاط المقدونى وعاد إلى أثينا مرة ثانية التى ازدهرت فيهـــا (الأكاديميـــة) الذى رفض الانضمام إليها ، وكون أرسطو لنفسه مدرسة فلسفية خاصة به

عليها وكانت تسمى باسم (إله الرعاة) عند الإغريق واسمه (أبولون لوقيوس) وعرفت باسم مدرسة (المشائية) وأتباعها بالمشائين ، لأنهم كانوا يمشون فى الرواق مع أستاذهم أرسطو .

وظلت (المشائية) فى أثينا تعمل بدراسة العلم والفلسفة لمدة ١٤ عاماً حتى مات الاسكندر المقدونى وسقطت دولته ، ففر أرسطو من الأعداء إلى مدينة (خلقيس) ، ومات فيها بعد عام وهو فى الثالثة والستين من عمره تقريباً .

أثاره العلمية :

يعتبر أرسطو مكثراً فى المؤلفات العلمية فى جميع الاتجاهات والعلوم والتخصصات وهو مؤلفات ابتكاريه وليدة ذهن متقد على قوة إدراك وسرعة حجة وشدة عارضة.

يقول الدكتور محمد عبد الرحمن عن أرسطو :

(لم يترك فناً إلا طرقه ولا مذهباً من مذاهب الفلسفة و الأخلاق إلا عالجه ، ولا نظاماً اجتماعياً إلا تناوله بالدرس والنقد ، فله مؤلفات فى الطبيعة وما بعد الطبيعة والنفس والأخلاق والسياسة والخطابة والحيوان)

مؤلفات الشباب :

ويرى الباحث أن المؤلفات التى آلفها أرسطو فى مرحلة الشباب ضاعت واندثرت ، ولم تصلنا منها إلا الأسماء وهى عبارة عن (سبعة وعشرين) محاورة ، على نسق (محاورات أفلاطون) ويذهب (شيشرون) المؤرخ

وهذه (المحاورات) هى التى أسهمت فى شهرة أرسطو لحسن أسلوبها وحسن تلقى الجماهير .

مؤلفات الكهولة :

تمثل الفترة الأخيرة من حياته منذ إنشاء المدرسة (المشائية) وحتى وفاته ٣٢٢ ق.م ، وهى كتب علمية جافة العبارة ، جادة التوجيه ، صعبة التحصيل ، لدقة القضايا التى تتناولها ، وهى كتب كثيرة فى جميع المناحى فتحدها فى المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة والأخلاق والسياسة والفن والشعر والخطابة .

ولشهرته العلمية نسبت إليه بعض الكتب التى لم يؤلفها وأثبت التحقيق أنها (متحولة) ولم تكن من تأليف أرسطو .

وبما أننا بصدد إلقاء الضوء على الجانب الأخلاقى عند أرسطو فلن نذكر من مؤلفاته فى تلك الفترة والتى قاربت (الأربعين) كتاباً سوى ما يعنينا فى جوانب (الفلسفة الأخلاقية) عند أرسطو .

مؤلفات أرسطو الاخلاقية :

ألف أرسطو كتباً فى الميدان الأخلاقى هى :-

١- الأخلاق إلى نيقوماخوس . ٢- الأخلاق إلى يوديموس .

٣- الأخلاق الكبرى . ٤- كتاب السياسة .

٥- نظام الأثينين .

وقد برزت فى هذه الكتب جوانب الفلسفة الأخلاقية عند أرسطو ، حتى وصف مذهبه الأخلاقى عند الفلاسفة بأنه المذهب الأخلاقى المتكامل فى تاريخ الفلسفة ، وكل من جاء بعده تأهل منه أو من أفلاطون [1] .

---

(١) ص ٥١ وما بعد من كتاب (من الفلسفة اليونانية) ، د/ محمد عبد الرحمن مرحباً .

فلسفته الأخلاقية :

وصلت أرسطو كل موجات النضج العقلى ، وصادفت أرضاً خصبة تفاعلت مع هذه الفلسفة التى تدحرجت غليه غير العصور والعقول .

ولذلك يعتبر أرسطو قمة النضج الإغريقى فى الفاسفة ، فقد التهم ما عند أفلاطون ، ونقده ووقف منه موقف المراجع

ولقد كان أرسطو مقولة شهيرة تدل على مدى إدراكه للعقل ودوره فى ومدى نضج التلميذ مهما انبهر بأستاذه ، كان يقول عن تقديره لأفلاطون (الحق صديق ، وأفلاطون صديق ، ولكن صداقتى للحق أولى من صداقتى لأفلاطون) .

ولذلك ظلت الفروق الفردية والمذهبية واضحة بين أفلاطون وأرسطو فعندما طّوف أفلاطون فى (عالم المثل) الذى جعله أساساً للوجود الحقيقى ، نجد أرسطو : يرتبط بالحياة والواقع والحس وابتكر عالم الحس لأنه غير موجود فى الطبيعة ، والنظرة العلمية المدققة (بالمعلم الأول) للفلسفة واليونان .

أودع أرسطو كتابه (الأخلاق إلى نيقوماخوس) فلسفته الأخلاقية فلسفته الأخلاقية ويعد أرسطو من أهم الفلاسفة التى تتجلى لديهم الفلسفة الأخلاقية اليونانية ، ونجد ركائز الأخلاق اليونانية لديه مثل : الفضيلة واللذة والمساعدة والنجاح والخير الأسمى .

وهى أمور تطلب لذاتها تحقيقاً للذات الإنسانية دون سبب نفعى آخر أو سلوك (سياسى) يظهر ما لا يبطن .

وهذا شرط هام عند الأخلاق الأرسطية ، و هذا شده للبحث فى مفهوم المساعدة ، كيف نكون سعداء وكيف نجعل أفعالنا سعيدة ، ثم ما هى مقومات السعادة ... ؟

السعادة الخلقية لأرسطو :

لا يمكن أن يدرك الإنسان السعادة وطبيعتها إلا إذا أدرك طبيعة النفس البشرية ، فهى حال من أحوال النفس الإنسانية وقوى النفس بصفة عامة بها الاشتراك بين :

الإنسان والحيوان والنبات ، مثل : القوة الغازية ، وكذلك بها :

الاشتراك بين الإنسان والحيوان وهو القوة الحساسية .

وما يتميز به الإنسان و يختص به وهو : القوة الناطقة .

وسعادة الإنسان فى ترقيته للقوة الناطقة ، إذا يشاركه فى غيرها من القوى عوامل أخرى مثل : الحيوان والنبات .

وذلك تخفيضاً لقاعدة أرسطو (إن أى كائن لا يبلغ غايته ولا يحقق سعادته وخيراه الأقصى إلا بأدائه لوظيفته الخاصة به على الوجه الأكمل) .

فالسعادة إنما تكون فى عمل النفس الناطقة من حيث أنها :

نفس ناطقة ، أى بالنظر إلى تميزها وفضيلتها وكمالها .

والسعادة ليست فعل عارض فى زمن أو وقت محدد ، بل لابد أن يصير : عادة راسخة وخلقاً متصلاً ملازماً ، و هذا هو اللذة الحقيقية للفعل الخلقى ، وبذلك وفق أرسطو بين السعادة واللذة الخلقية .

وندهش عندما نجد أرسطو يعوّل كثيراً على وجود المقومات الحيائية (مال وجاه وبنون) من أجل تحقيق الخير والسعادة فإن بعض المكارم لا يمكن أن تمارس إلا من خلال تملك هذه المقومات .

الفضيلة عند أرسطو :

الفضائل عند أرسطو على نوعين :

ا- الفضائل العقلية : وتختص بالقوة الناطقة ..

ب- الفضائل النزوعية : وتختص بالغرائز الشهوية حين تطيع أوامر العقل وتسمى الفضائل الأخلاقية .

أما الفضائل العقلية : فهى مثل : العلم و الفن والحكمة وهى تكتسب بالتعلم وتنمو بالدراسة ، ويرى أن التأمل أسمى أنواع الفضائل العقلية .

أما الفضائل الأخلاقية فهى مثل : الشجاعة والعفّة والكرم والصدق و وهذه تكتسب بالمزاولة والتدريب والتمرن عليها سلوكاً وعملاً .

وهذه الفضائل لا تتكون فى الإنسان على سبيل (الطبع) وكذلك لا تخالف الطبع أو تضاده ، بل أن القضية لا تخرج هنا عن : أننا مستعدون بحسب الطبع أن نقبل الفضائل وقد يأخذنا الطبع أيضاً إلى التحلى بفضائل أخرى .. ولا صدام هنا أو هناك ، ولذلك وجب التألم والاختيار للسعادة .

وكل ما يفعله علماء (التربية) هى زرع هذه الفضائل فى النفوس البشرية ، وتنشئة الناس عليها .

تعريف الفضيلة الأخلاقية عند أرسطو :

إذا الفضائل ليست طبيعية وإنما تكتسب فيمكن تعريفها على النحو الآتى :

(الفضائل ملكات خلقية مكتسبة راسخة فى النفس يكون الفعل رفيها حراً صادراً بمحض الإرادة وليس بأى تأثير أجنبى ، ويكون الإنسان بها صالحاً قويماً يفعل ما ينبغى عليه على أكمل وجه) .

الفضيلة وسط :

يرتبط معنى الفضيلة عند أرسطو بمفهوم (الوسط) العدل بين (رذيلتين) .

الرذيلة الأولى : الإفراط .

الرذيلة الثانية : التفريط .

فالشجاعة مثلاً : فضيلة تتوسط بين (الجبن) و (التهور)

والعفة : وسط بين (المجون) و (الجمود)

والكرم : وسط بين (الإسراف) و (التقتير)

وهذا الوسط : ليس وسطاً رياضياً لا يختلف بالنسبة لكل الناس ولكنه وسط متحرك حسب طبائع البشر والعصور والانفعالات البشرية .

الفهرس